يحيى محمد عبد القادر

على هامش الأحداث في السودان

الدار السودانية للكتب
الخرطوم ـ شارع البلدية
ص.ب (٢٤٧٣) تلفون (٨٠٠٣١)
برقيا : توزيعدار

على هامش الأحداث
في السودان



مقدمة

الفصول التي جمعتها وأودعتها بين دفتي هذا الكتاب ، كانت قد نشرت مسلسلة على شكل ذكريات في صحيفتي (أنباء السودان) . . . . ورغم الطابع الشخصي الذي تتسم به ، إلا أنها تشتمل على معالم من تاريخ السودان الحديث ، منها ما يتصل بالشخصيات التي تولت مقاليد الأمور في البلاد ، وتلوينها ، ومنها ما يتصل بمجرى الأحداث نفسها وتقييمها ، ومنها ما يتصل بالمناخ الذي وقعت فيه الأحداث ، وتفاعلاته . . .

ولعلي بنشر هذا الكتاب قد أساهم في إيضاح بعض الحقائق ، وإنارة بعض المنعطفات ، بل لعلي قد أساهم في تقديم (خامات) تصلح (على وجه ما) ـ بعد صقلها ـ لكي يستعين بها مؤرخ الغد على أداء رسالته والله المستعان وهو ولي التوفيق

يحيى محمد عبد القادر

شخصيات

السيد علي الميرغني

عرفت السيد علي الميرغني في عام ١٩٣٦ عندما رافقت عمي الشيخ عبد الرحيم محمد وهو ختمي إلى حلة خوجلي حيث زاره وطلب إليه أن يتوسط في مشكلة بينه وبين آخرين في قرية ود حامد من أعمال شندي .

وقد استقبلنا الزعيم الجليل باسم الثغر وما إن اتسع الحديث ودار حول مركز شندي حتى انجاب التحفظ التقليدي ، ورأيت نفسي أمام رجل ليس واسع الاطلاع ملماً بكل الشؤون العامة وشؤون المنطقة التي أقبل عمي منها فحسب ، وإنما أمام رجل يحب النكتة الطريفة والنادرة المستملحة ويضحك ملء شدقيه إذا استدعى المجال الضحك و يحاول أن يعطيك صورة للدنيا غير مملوءة بالقتام والآلام .... أمام رجل خفيف الظل بكل ما في هذه الكلمة من معنى .

وإذا كانت تجارب العمر الطويل في أخريات أيام سيادته جعلته أبعد ما يكون لدى زواره العاديين ومن لا يثق به من الصفوة ، من التعرض للمسائل الشائكة فهو فيما عدا ذلك سهل سمح غير متعنت أو متشدد .

يساير الناس ، ويجاملهم ، ويتبسط معهم ويفضي إليهم ويفضون إليه بما يعن لهم من الآراء والاتجاهات في إطار معين ونطاق محدود .

والفرق بين سيادته والإمام عبد الرحمن المهدي في الحديث أن السيد علي كان يخاطب كل جماعةٍ باللهجة الخاصة بها ، أما الإمام عبد الرحمن فكان معظم حديثه باللغة العربية الفصحى .

ومنذ تلك الزيارة تكررت زيارتي للدائرة واستقبال سيادته لي فإن التزام معظم أفراد أسرتي بالعلاقة التقليدية بالبيت الميرغني جعل الباب أمامي مفتوحاً رغم عملي في جريدة النيل لسان حال آل المهدي .

وختمية أسرتي هي التي دفعت طائفة من رجالات الختمية للاهتام بي وتكريمي ومن أبرزهم الشيخ حامد كشه من كبار تجار الخرطوم الذي أقام لي مأدبة غداء دعا إليها عددا من الشخصيات الختمية .

غير أن نفراً من أصدقائي في العمل الصحفي نصحوني بأن أتريث في قبول بعض الدعوات خوفاً من الاعتداء علي ، نظرا لاستعار الخلاف بين طائفتي الختمية والأنصار في ذلك الحين .... ووجودي أنا في الجريدة الناطقة بلسان الأنصار .

وقد فعلت ..... وانقطعت عن قبول تلك الدعوات بل أهملت إهمالاً فاحشاً تاماً اقتراحاً من أحد أبناء كبوشية بأن أصدر صحيفة أسبوعية تمول من جهات مالية ختمية .

والسيد علي الميرغني بسيط في حياته فهو يسكن منزلا متواضعا لا تحليه الشرفات العالية ولا تتخمه الأثاثات الفاخرة ولا تحيط به مظاهر الأبهة والفخامة ، ولا تصطنع فيه الأساليب الحديثة في الاستحمام والمأكل والمشرب والملبس والضيافة إلى غير ذلك من الشؤون . على أنه رغم تواضعه الجم ، يحتفظ دائما بمسافة بينه وبين الآخرين ، وخاصة الأجانب منهم ويملي عليه هذا الاحتفاظ كبرياء هاشمية ميرغنية يستمدها من قواعد وتقاليد درج عليها البيت الميرغني منذ عهد بعيد .

والحدث الذي وقع بين السيد علي الميرغني وبين الشيخ أحمد أبو دقن أحد مشايخ المعهد العلمي في أم درمان من الشواهد الواضحة في هذا المقام .

فإن الشيخ اعتقد أن قرابته ـ إذ كان ابن خالة السيد علي ـ ومركزه الديني يسمحان له بالتوسط عند السيد علي الميرغني في مسألة عائلية شريفية خالصة فما كان من السيد علي إلا أن غضب على الشيخ أحمد أبو دقن ، وأبعده ، وإلا أن وجد الشيخ نفسه وسط جحيم من تمرد الطلبة ، والمطالبات بإقصائه عن مركزه الديني .... ؟

إن هذه المسألة العائلية الشريفية الخالصة لا ينبغي أن يتدخل فيها ـ إن سمح بالتدخل ـ إلا لشخص يتحلى بنفس المستوى في القربى والنسب والخلوص ، هذه هي تقاليد البيت ...... الميرغني ، وهي صارمة جدا .

وكان يحدث أن يحدد ميعادا يقابل فيه في سرايه بالخرطوم الحاكم العام البريطاني فإذا

جاء الحاكم العام واستقبله الأتباع وجلس ، يجيء السيد علي متأخرا بضع دقائق من الخرطوم بحري لكي يقف الحاكم العام عند قدومه ولا يضطر (وهو الزعيم الحسيب النسيب إذا انتظر مجيئه) إلى الوقوف له كا تقتضي بذلك قواعد البروتكول .

وعند ما زار سيادته ذات عام روما حدد له البابا ميعاداً لمقابلته يوم الثلاثاء دون أن يستشيره فاتصل بالمقام البابوي أحد الأتباع وقال أن السيد علي يوم الثلاثاء سوف يكون متوعكاً ولكنه مستعد لمقابلته يوم الخميس إذا رأى ذلك مناسباً .

وتم للسيد علي الميرغني ما أراد .

وتوفي سيادته في الحادي والعشرين من فبراير ١٩٦٨ عن عمر يناهز الثانية والثمانين على ما جاء في كتاب مناقب سيادته الذي أصدرته الدائرة الميرغنية .

والله أعلم ؟

المهدي

قابلت الإمام عبد الرحمن المهدي لأول مرة ضمن عدد من الزوار في إحدى الأمسيات من عام ١٩٣٥ بسراي الخرطوم .

وكنت أنزوي في طرف المجلس وقد عقدت الرهبة لساني ، وانصرف الحاضرون الواحد بعد الآخر وبقيت أنا لا أجرؤ على الانصراف ، ولا أجرؤ على المكوث .

ولاحظ السيد الإمام ترددي واضطرابي فاستدعاني ، وفي هذه اللحظة أقبل الأستاذ زين العابدين إبراهيم سكرتير سيادته ، وعرض عليه رسالة توصية كنت أحملها من البكباشي حامد صالح الملك (اللواء بالمعاش الآن) وعندئذ انفرجت أسارير سيادته ، وأخذ يناقشني حول موضوعات نشرتها لي الصحف المصرية في عناية بالغة جعلتني أشعر بأن لي قيمة ووزنا ودفعت إلى نفسي بالثقة والشجاعة ، ولم ألبث أن وجدتني أسترسل في حديث طال ، حتى نبهني الأستاذ زين العابدين فاستأذنت ومضيت .

ولم أكد أعين في جريدة النيل حتى اتصل بي الأستاذ زين العابدين وطلب إليّ أن أذهب إلى محل قرنفلي لأفصل بدلتين وقميصين وأختار كرفتتين وحذائين وفعلت وتولى فضل الله قرنفلي وشقيقه شكر الله بنفسيهما توجيهي في الانتقاء والاختيار .

وذات مساء لبست إحدى الحلتين الجديدتين وعاونني الأخ يوسف فضل على ربط الكرافته ثم دار بي أفراد الميز (محمد عثمان محجوب ويوسف فضل وإسحاق سعيد عطيه وضيفهم في السهرة عبد الله العاقب) وأخذوا يتغنون (أبو الصديق فراج الضيق) .

وذهبت يوماً لسيادته وأنا أحمل مقالة في الثناء عليه والإشادة بعملٍ من أعماله فاستمع إلي ثم قال : حسنا ..... ولكننا لا نود أن تنصرف إلى هذا الجانب وحده .... فهناك جوانب كثيرة تحتاج إلى علاج ...... ؟ ؟

وأضاف إن تشجيعنا لك يرجع إلى أننا وجدنا موهبة توسمنا فيها خيرا فأردنا أن ننميها .

وحدث عام ١٩٣٦ أن ضغط الشيخ نعمان الجارم قاضي القضاة المصري على السيد الإمام لكي تعين الجريدة مصريا قاهريا يدعى علي منصور محررا للجريدة بدل حسن صبحي المصري القاهري الذي أبعد عن الجريدة ، وزاول علي منصور عمله الجديد كمحرر فعلا لعدة أسابيع .... وجمعنا الأستاذ أحمد يوسف هاشم أنا وإسماعيل إبراهيم ومحمود مصطفى الطاهر وإسماعيل السراج الموظفين والمحررين في الجريدة وقال : ـ إن الشيخ الأمين عبد القادر رئيس التحرير سوف يتغيب في مساء الغد فإذا جاء علي منصور ضربناه وطردناه .

ولم أوافق أنا بيني وبين نفسي على هذا الإجراء (وإن لم أعلن الرفض) إذ أني بطبيعتي أكره العنف ، ثم لم أجد باعثا يدعوني لمعاداة رجل لا ينافسني شخصيا وقد يكون عونا لي .

وانسحبت في هدوء ..... ولعل هذا كان رأي بقية الزملاء بعد مناقشة الموضوع ، إذ أن علي منصور لم يضرب ..... وأخيرا اتفق العاملون في الجريدة من محررين وموظفين على الإضراب احتجاجا مع إرسال مذكرة لشركة الطبع والنشر التي تصدر الجريدة تطالب بفصل علي منصور ومنح زيادة في المرتبات والاختصاصات لكل العاملين ما عداي .

وأسرعت فقابلت السيد الإمام ، وأطلعته على ما وقع ، وأضفت بأنني ضد ما فعل الزملاء ولكنني وقّعت على المذكرة محرجا .

فقال لي في صراحة لم أعهدها فيه من قبل : ـ كنت وددت لو تضامنت مع الآخرين .

وكنت غاضبا على المرحوم أحمد يوسف هاشم عندما كان رئيسا للتحرير ، فانتهزت فرصة انفرادي بالسيد الإمام ، وجعلت أذكر بعض العيوب ، فبدا الغضب واضحا على وجهه ، ثم انتفض قائما من المقعد الذي كان يجلس عليه ، اخذ يصلي ؟

فانصرفت خذيان لا أكاد أهتدي إلى طريقي ؟

وعندما كوّن الإمام عبد الرحمن مكتبة في سرايه بالجزيرة أبا ، ومكتبة في سراية بالخرطوم قال لنا عندما التقبنا به في سرايه بالخرطوم : ـ إن هاتين المكتبتين لخدمة العاملين في ميدان الصحافة وهما مفتوحتا الأبواب لهم دائما بغير استثناء . وصحب الأستاذ صالح عبد القادر فيما بعد بعض المثقفين الشباب إلى الجزيرة أبا حيث تفقدوا مكتبتها .



واعتدت خلال عملي في جريدة النيل في الأربعينيات أن أتنقل بين أماكن مختلفة وأنا في طريقي للمكتب أو عند انصرافي منه تنطسا للأخبار ، والتماسًا لما وراءها ولذلك فإنني كنت رغم خروجي مبكرا من المنزل لا أصل للجريدة إلا بعد العاشرة صباحا ولا أعود للمنزل إلا بعد الثالثة عصرا .

وقد أطلق علي بابكر عباس وإبراهيم أحمد إمام ـ وكان الأول أجزجي في مستشفى بحري والثاني موظفا في المخازن ـ لهذا السبب اسم قطار النقل لتوقف هذا القطار في كل محطة .



وحدث في صباح أحد الأيام أن وصلت الجريدة متأخرا كالعادة فوجدت سيارة الإمام عبد الرحمن تقف أمام الدار وعلمت من مرافقي سيادته الذين كانوا يقفون إلى جانب السيارة أنه يقوم بزيارة تفقدية مفاجئة .

وصعدت إلى مكاتب الجريدة وكانت تقع في الطابق الأعلى من بناية مدني يحي التي هدمت فيما بعد وتشغل الآن العمارة الضخمة التي بها مطبعة النيل والتي كانت تسمى قبل ذلك دار الصحف الاستقلالية .

ولم أكد أدخل المكاتب حتى رأيت السيد الإمام يقف أمام خريطة كبيرة للسودان ومحاسب الجريدة حمدي يحاول عن طريق الفهلوة أن يترجم عبارات بالإنجليزية رغم أنه (أي حمدي) لم يكن ملما بها . ولم يكن في المكاتب أحد غيره وغير مراسلة واحد .

وسألني السيد الإمام : هل جئت الآن ؟ فأجبت بنعم ، وأبديت عذري ؟ ؟

وسأل السيد الإمام : ـ وأين رئيس التحرير .... ؟ فلما لم أجب .... سأل وأين مدير الإدارة ...... ؟

فلما لم أجب .... سأل وأين بقية المحررين والموظفين .... فلذت بالصمت أيضا ؟ ؟ ؟ ؟

ووضح الامتعاض على وجهه ..... ثم تحول بجسمه كله فجأة وأخذ يهبط السلالم سريعا وهو يردّد : ـ

إذا كان رب البيت بالدف ضاربا فشيمة أهل البيت كلهم الرقص

وارتقى السيارة ...... ثم وضع يده على صدره علامة الوداع وانصرف .

وظل محررو الجريدة وموظفوها أسابيع عديدة لا يزورون سراي الإمام .... خجلا ...... وتخوفا .



عندما اشتد الجدل حول معاهدة ١٩٣٦ بين مصر وبريطانيا دعا الإمام عبد الرحمن المهدي محرري النيل وكنت بينهم فقدم إلينا نصيحة قال فيها : ـ

إن المعاهدة لم تعط السودانيين إلا القليل وقد عبرنا عن سخطنا على المعاهدة بما فيه الكفاية .... والسخط ليس هو الوسيلة الوحيدة للوصول إلى المطالب ...... لأن السخط رفض وعداء والرفض والعداء وحدهما لا يحلان المشاكل وإذا كنت تدين شخصا مائة جنيه وأعطاك منها خمسين جنيها وليست لديك طاقة على انتزاع المائة كلها فاقبل الخمسين ثم طالب بالباقي . تلك هي سياستنا .

وقابلت الإمام بعد فترة من الانقطاع وكان قد تعافى من مرض ، فلاحظت ضعفه ونحول جسمه ولكن ذاكرته كانت قوية ، وصوته كان في وضوحه العادي ، ومكثت لديه فترة ثم خرجت ، وجلست إلى مكتب الأميرلاي حسن الزين مدير المكتب الخاص ، وجاء حسن ، وكان قد اختلى بالإمام بضع دقائق وقال لي : ـ إن الإمام يرى أنك ابتعدت عنه كثيرا .... ثم استرسل ليقول بصوت منخفض : كما أنه يصفك بأنك متقلب ......

وتعجبت فإن الكلمة الأخيرة لا تتفق مع ما عرف به السيد الإمام من مرونة وتاريخ حياته كله أشبه بكتاب مفتوح .

ثم تساءلت بيني وبين نفسي : هل صدر حسن الزين فيا قال من عند نفسه ؟

إن حسن الزين رغم صداقته لي رجل مسؤول وأنصاري ملتزم فهل يصدر عنه شيء خاص بالإمام دون أن يكون قد أمر به . ولم أزل محتارا .... وهذه العبارة تجول في صدري ولعلها تخزني .

وحين اشتد الجدل بين أعضاء الجمعية التشريعية حول الزيادة التي طالب بها الموظفون البريطانيون على مرتباتهم وكانت الزيادة في جملتها لا تزيد على مائة ألف جنيه .

تساءل الإمام في اجتماع حضرة بعض الصحفيين وبعض أعضاء الجمعية هل بأيدي هؤلاء الموظفين أن يُعينوا على تحقيق استقلال السودان ؟ فأجيب بنعم . قال : إذن لماذا تقفون منهم هذا الموقف اعتبروا المائة ألف جنيه رشوة لتحقيق الاستقلال فهل هذا المبلغ كثير على الاستقلال ؟؟؟؟؟



وكان السيد عبد الله الفاضل المهدي قد تخلى عن منصب مدير دائرة المهدي لتسند إلى السيد الصديق عبد الرحمن المهدي .... وكانت أعمال الدائرة وأعمال السيد عبد الله قد تشابكت خلال وجوده كمدير ، وعندما رؤي إزالة التشابك حدث بعض الخلاف اليسير .

وسمعت عقب فراغ السيد الامام من صلاة المغرب يوما حديثا بينه وبين السيد محمد الخليفة شريف يقول فيه الامام : ان تسوية هذه الأمور ستتم بالتدريج وخاصة والصديق يعلم أنه ليس مديرا للدائرة فقط وإنما هو ممثل لوالده فالتعامل الرسمي يجب أن يقترن بالتعاطف الأبوي . ان عبد الله هو ابن أخي .

كما أن السيد عبد الله الفاضل يجب أن يقدر أن الصديق ابني وأنه يشغل المركز الذي ينبغي أن يشغله .

ودعاني الصديق عبد الله عبد الرحمن نقد الله للانضمام لحزب الأمة فلم استجب للدعوة ، ولعلي كنت أنظر عند عدم الاستجابة ، إلى عملي كمراسل لجريدة الأهرام المصرية وما استقر في الأذهان من عداء حزب الأمة لمصر ، ولعلي أيضا كنت متأثرا لعدم دعوتي للاجتماعات التحضيرية بينما دعي زميلي في المكتب أحمد يوسف هاشم .

وقال لي نقد الله يابني إركب معنا ولا تكن مع الكافرين ولكنني لم أركب (ولعلها الأهرام ولعلها الكبرياء الجريحة كذلك) ، والغريب أن الأستاذ أحمد يوسف هاشم رئيس تحرير النيل لم يستجب كذلك رغم حضوره اجتماعات الحزب الأولى . وانشأ مع آخرين حزب القوميين (ولعلها أيضاً الكبرياء الجريحة عندما لم يختر لشغل منصب سكرتير الحزب أو أي منصب آخر مشابه) .

ولم ألبث بعد قليل تحت تأثير الصديق عبد القادر المرضي أن انضمت للحزب الجمهوري الذي يرأسه محمود محمد طه ، وكان هذا الحزب عند انشائه منظورا إليه كحزب مناوئ لحزب الأمة رغم استقلاليته بحسبان أن الأخير كان يهدف إلى قيام الملكية . وكانت رسائل الحزب الجمهوري تأتي عن طريق عنواني في جريدة النيل .

وقابلت الامام عبد الرحمن بعد ذلك وذكرت له في صراحة اعتذاري عن عضوية حزب الأمة بسبب عملي في الأهرام .

فقال لي الامام ببساطته المأثورة كأنه يحاورني : ألا ترى أن عضويتك في الحزب الجمهوري الآن قد تعرضك أيضا للمتاعب في الأهرام . ان مصر الآن تطالب بأن يكون ملك مصر ملكا على السودان ، وكانت رمية (معنية ؟؟) ولم أكن كعادتي سريع البديهة فجمجمت بعبارات غير مفهومة وانصرفت .

ولم استمر في الحزب الجمهوري فقد تركته حين خلط النشاط السياسي بنشاط ديني لم يتفق في أسسه مع معتقداتي .

وقصدت إلى السيد الامام في عام ١٩٤٦ عندما تخليت عن جريدة النيل ، وتفرغت

لجريدة الأهرام ، وأفضيت إليه بالأسباب التي دعتني إلى فعل ما فعلت ، فاستمع إلي باهتمام ثم قال :

هل تستطيع الدعوة للاستقلال عن طريق مراسلتك للأهرام ؟

فأجبت بطريقة لا أعرف حتى الآن لماذا التزمت فيها الصلابة ولم يكن ثمة داع لها ، ولعلني كبر علي أن أضلله عن موقفي وهو رجل حبيب إلى قلبي أجبت : مستحيل ..... فايمان معظم الشعب المصري بقضية الوحدة تجعل أية محاولة من هذا القبيل لا جدوى منها كما أنها قد تضر بي .

واسترسلت فقلت : إن مهمتي في الأهرام لا تتجاوز ارسال الخبر في أمانة وتقديم ايضاحات وحواشٍ له لمن يريد تفسيرا .

وأعدائي الذين يعملون ضدي لكي يحصلوا على منصب المراسلة كثيرون وما أسهل أن يتمسك علي أحدهم بكلمة أو كلمات فيوسع منها أعدائي ، وقد يتزيدونْ عليها ثم يجعلون منها قضية ..... وقد لا يكتفون بما يفعلون بي بل ربما جرجروا الأهرام نفسها ، وأصحابها كما نعلم لبنانيون متهمون دائماً بعدم الولاء لمصر .

وأردفت أنني أحاول الاحتفاظ بوظيفتي في الأهرام فهي الآن مصدر رزقي الوحيد ...... وإذا تخليت عنها وأسندت المراسلة إلى أحد الأشقاء من أعداء حزب الأمة فقد يستخدم المراسلة في الاضرار به والميدان أمامه رحيب .

وكأنما خاب أمل الامام فيّ ، فشعرت بأن حرارة حديثه قد خبت .

ثم قال بعد توقف :

هل أنت حريص على استقلال السودان ؟

أجبت : بنعم

قال : اذن أي طريق تسلكه فهو حسن ، وأكد لي أن جريدة النيل ليست لحزب الأمة ، وان محرريها أحرار في اعتناق المبادئ التي يرونها أنسب لهم ، وذكرني بأن أطلب مكافأتي عن مدة خدمتي في جريدة النيل ، والغريب أنني لم أطلب هذه المكافأة حتى اللحظة رغم حاجتي إليها .

وكنت في عـام ١٩٤٦ في أوج نشـاطي الصحفي وكان الشبـاب الوثـاب أجمل هبـات الطبيعة يمدني بطاقات على السعي لا تنفد .

وحـدث أن اعتزم الامـام عبـد الرحمن المهـدي في نـوفمبر من نفس العـام ، السفر إلى لندن لمقابلـة المستر بيفن وزير خـارجيـة انجلترا وكبـار المسؤولين البريطـانيين لكي يعرض عليهم وجهة نظر الجبهة الاستقلالية السودانية ، ويحتج على اتفاقية صدقي ـ بيفن .

وقد سبقت الرحلة مظـاهرة صـاخبـة في نهـايـة أكتوبر كانت كالتمهيـد لهـا كما سلمت مذكرة من الجبهة الاستقلالية للمستر هندرسون مسـاعـد السكرتير الاداري لشؤون الأمن في هذا الصدد أمام تمثال كتشنر .

وقد رأى الامام قبيل سفره أن يزور السيد علي الميرغني في داره بحلة خوجلي ليطلعه على الغرض من الزيارة ، والخطة التي يريد اتباعها .

وكانت مصر حكومـة وشعبـا مهتمـة بـالتطورات التي تحـدث في السودان خلال هـذه الفترة كما كانت مهتمة بما يصدر عن زعامة الختمية بصفة خاصة .

وعرفت من المرحـوم الشيـخ أحمـد عبـد الله وكيـل السيـد علي الميرغني وابن خـالتـه وصديقي وجاري في الخرطوم بحري بميعاد المقابلة .

وتم الاتفاق بيني وبينه على أن أتصل به أثناء المقابلة تلفونياً فيختلس فترة بعد أخرى ليفضى إليّ بما يدور فيها خطوة خطوة حتى أتمكن من موافـاة الأهرام تلغرافيـا بجليـة هـذا الحدث الهام تفصيلياً وفي نفس وقت وقوعه .

وكان الشيخ أحمد من أصدقاء مصر المقربين كما كان شديد الحرص على ارضاء الصحف المصرية .

وفي الساعة السابعة والنصف من مساء أول نوفمبر وهو اليوم السـابق لسفر الامـام زار الامام عبد الرحمن السيد علي فاتصلت من مقهى انطونيادس الجيبي (وكان في ذلـك الوقت يقع جوار مكتب التلغراف بالخرطوم) بالشيخ أحمد عبد الله فأعطاني تفصيلات عن وصول الامام عبـد الرحمن لـدار السيـد علي واستقبـال الزعيمين ومن حضر الاستقبـال من حـاشيـة الطرفين .

فأرسلت برقية في الحال مع أحد الجرسونات بما أطلعني عليه .

ثم اتصلت به مرة أخرى فأعطاني فكرة واضحة عن الحديث الذي جرى بينهما وكيف أن السيد علي حصر حديثه حول الجو وتقلباته دون أن يتعرض لرحلة لندن أو الغرض منها .

فأرسلت برقية ثانية .

واتصلت به مرة ثالثة حيث أعطاني معلومات عن الكيفية التي انتهى بها الحديث ووداع الامام عبد الرحمن .

فأرسلت برقية ثالثة .

ثم اتصلت به مرة رابعة فأفضى إليّ برأيه حول نتيجة المقابلة وأنها خلت من كل مضمون سياسي فدونت هذا الرأي وبعثت به ببرقية رابعة بوصفه تصريحا صادرا من ختمي مسؤول في دائرة السيد علي . وهكذا غطيت هذه المقابلة التاريخية تغطية كاملة .

وقابلت الامام قبل وفاته بأسابيع قليلة ، فذكر أسماء أبنائي الكبار الواحد بعد الآخر ثم قال : ـ

ماذا أحدثت بعد هؤلاء ؟

فأخذت أذكر أسماء البقية وتوقفت قليلا لأن اسم أحدهم تاه عليّ .

فضحك في عمق وقال لي : أعانك الله .

وذاكرة الامام عبد الرحمن في حفظ الأسماء ومعرفة الوجوه ذاكرة فذة لم أعرف لها ضريبا قط .

وتوفي الامام عام ١٩٥٩ عن عمر يناهز الرابعة والسبعين على أصح الروايات .

الشريف يوسف الهندي

كنت منذ قدومي إلى الخرطوم في عام ١٩٣٥ ، وتعييني محرراً في جريدة النيل تواقاً إلى مقابلة المرحوم الشريف يوسف الهندي ... ولكن هذه المقابلة لم تتيسر إلا في عام ١٩٣٧ .

فقد شخصت إلى بري اللاماب ذات أصيل ، وقصدت إلى مقر الشريف ، وكان الباب الرئيسي مقفلاً ، وقال لي الرجل الذي أوكلت إليه حراسته ، إن المقابلة غير ميسورة الآن .

وكدت أستقل سيارة التاكسي وأعود أدراجي لولا أن شاء القدر غير ذلك ، فقد ظهر على حين فجأة السيد محمد أحمد شرفي من أقرباء المهدي ، وكان صديقاً للشريف ، ويتولى زراعة أرض من أراضيه في تلك المنطقة .

وأمسك السيد شرفي بيدي وقال لي : ـ إن هناك باباً جانبياً صغيراً ربما أمكننا أن ندخل منه ... فإن هذه الساعة من أنسب الساعات التي يتسع فيها للمرء أن يحادث الشريف نظراً لعدم وجود زوار بالداخل .

ومضينا إلى الباب الجانبي الصغير فوجدناه لحسن الحظ غير مقفل .

وتركني السيد شرفي واختفى خلفه ، وما هي إلا دقائق حتى أقبل متهلل الأسارير ، وصاح : ـ لقد أذن الشريف بمقابلتك فتعال معي .

وصعدت درجات أفضت بي إلى (مصطبة) مرتفعة ، كانت بها مقاعد منثورة على شكل دائري ، وفي الوسط عنقريب كان يجلس عليه الشريف نصف جلسة ، تحيط به المساند ، وكان رقيق الجسم ، على وجهه تجاعيد غير غائرة ، وكان قمحي اللون ، ذا عينين واسعتين وأنف أشم ، وكان فارع الطول ، قريب الشبه من ابنه الشريف الحسين .

ولم يكن الشريف مرتدياً غير ثوب من الدمور تغيَّر لونه من أثر الدهن .

وأسرعت فقبلت يده ثم جلست في مقعد بالقرب من شرفي .

وقد اعتذر الشريف بأنه (متحسس) وأنه لم يأذن بهذه المقابلة إلا ليتعرف على الولد الذي نشر مقالة عنه في مجلة الرابطة العربية وجرؤ على أن يمحو اسمه من سجل الزعماء الثلاثة ويستبدله باسم الشيخ أحمد أبو دقن شيخ المعهد العلمي !

وأضاف وهو لا يخفي ابتسامته الواسعة : أن الشيخ أبو دقن هو ابن خالة السيد علي الميرغني فهو والحالة هذه ختمي وزعيمه الحقيقي السيد علي وأضاف : وانتقل الآن إلى ظل زعامة الإمام عبد الرحمن المهدي بعد أن أبعد ، عندما تطاول وتدخل لكي يقوم بإصلاح ذات البين بين من لا يجوز له التدخل في شؤونهم الخاصة من أهل البيت إلا لمن هم في نفس المركز من النسب الشريف وأردف قائلاً :

والشيخ أبو دقن لا أتباع له إلا طلبة المعهد العلمي الذين يتمردون عليه الآن ويرمونه بالحجارة فلا ينقذه منهم غير جحافل الأنصار . فهل تريد أن تستبدل هذا الرجل الذي لا يكاد يحمي نفسه ، بالشريف يوسف ؟ وعلى أي أساس !؟

وكانت البساطة التي يسرد بها الشريف عباراته القارصة ، وعدم ظهور علامة من علامات الغضب على وجهه سبباً في أنني لم أُروّع ... بل أنشأت أعتذر بكلمات تنقصها الحرارة والقوة وعناصر الإقناع إذ كنت قريب عهد بالقرية ، ولم أكن قد روّضت نفسي على الجدل بعد ، مع قصور طبيعي في المنطق وبطء في الذكاء ، وفقدان للباقة وعدم قدرة على حسن التأني في الأمور .

ويبدو أن شرفي شعر بأنني غير كفء للرد على الزعيم الكبير الذي واصل انتقاداته جامعاً بين التهكم والتوجيه ... فأخذ (أي شرفي) ينوب عني في الاعتذار ، مشيراً إلى أن إغفال اسم الشريف لم يكن إهمالاً متعمداً ، وإنما حصراً للمسألة التي عالجتها المقالة وهي ثورة طلبة المعهد العلمي بأم درمان على أطراف النزاع الذين اشتركوا من قريب أو بعيد وهم الإمام عبد الرحمن والشيخ أحمد أبو دقن ثم السيد علي الذي نسب إلى غضبه من الشيخ تمرد الطلبة ومناداتهم بإقصائه من منصبه ... والحياد في أمثال هذه الفتن مغنم كبير .

وقدم لنا أحد الأتباع شاياً وكيكاً فشربنا وأكلنا ثم انطلق الشريف على سجيته فحدثنا في صراحة مطلقة عن شخصيات سودانية قديمة وحديثة وقصص تتردد حولها . وكان حديثاً ممتعاً تتخلله الفكاهة مما قربّه إلى نفسي ، وأزال ما بيني وبينه من حجب الخور والخشية ... وأمر أحد الأتباع بدفع أجرة التاكسي الذي جئت به وصرفه ثم دعاني إلى اصطحابه في سيارته إلى الخرطوم .

وقصدنا إلى سراي الإمام عبد الرحمن المهدي في الخرطوم ، وأمر الشريف السائق بأن يقلني إلى حيث شئت وأهاب بي أن أعود لزيارته مرة أخرى .

وزرت سيادته بعد أيام وكان يصحبني في هذه الزيارة ابن عمتي عبد القادر مشعال (الطبيب فيما بعد) وكان طالباً في كلية غردون التذكارية فرحب بنا كلينا ، وشربنا شاياً وأكلنا كيكاً واستمتعنا بحديث شهيّ شرّق وغرّب ، ثم عدنا مع الشريف إلى الخرطوم وصحبناه إلى منزل جديد كان قد تم الخلاص من بنائه بالقرب من المستشفى الملكي بالخرطوم ، وهناك فرش لنا الحارس أبسطة على الأرض ودعا الشريف السيد عبد العزيز الجندي وكيل أعماله من مخبزه في السوق فحضر على عجل وحيا الشريف في خضوع ... وبعد سمر طال حتى الساعة التاسعة مساء تناول موضوعات مختلفة ـ أومأ سيادة الشريف إلى عبد العزيز الجندي فجاء بعشاء من مطعم أنطوانيادس وكان من ألوانه رأس خروف .

وكانت المشكلة التي تواجه الشريف لأكثر من عام بعد ذلك هي كيف يردّني إلى عملي في جريدة النيل بعد أن أفصل .

لقد كان الخلاف بيني وبين المرحوم الأستاذ أحمد يوسف هاشم لا يجعلني أستقر في الجريدة ، وكانت إعادتي للعمل عندما كان الإمام عبد الرحمن مسيطراً عليها سهلة ، أما بعد أن آلت هذه السيطرة للمستر أسبيرو وكيل كنتوميذ لوس الشريك الأكبر ... فقد كانت عسيرة .

وقد هاجم الشريف أسبيرو يوماً وهدده إن لم يذعن لمشيئته في ردّي للعمل ... وذلك عندما أساء أسبيرو إليّ أمامه وذكر أنه عين خلفاً ليحي وهو الزين هاشم وكان يعمل في الحسابات وقال أسبيرو للشريف يستحيل تعيين شخصين في وظيفة واحدة .

ومع هذا الإصرار فقد فرض عليه الشريف إعادتي للعمل فأعادني مكرهاً . وأذكر أنني فصلت من النيل خمس مرات في عام واحد .

وجاءني خطاب الفصل الخامس في منتصف النهار وسألت عن الشريف فعلمت أن سيادته دعا بعض الشخصيات في منزله الجديد على الشاطىء بالقرب من كوبري النيل الأزرق .

وهو المنزل الذي نزل فيه خلال الحرب العظمى الثانية جلالة الإمبراطور هيلاسلاسي ...

فاستقليت دراجة وذهبت إلى هناك وكان منظري وأنا أصعد السلالم والعرق يتساقط من جميع أنحاء جسمي ، إلى القاعة الكبرى في القصر يثير الشفقة . وقد كان الإمام عبد الرحمن المهدي والشريف يوسف وحامد صالح الملك يجلسون على أرائك وثيرة والمراوح تدور فترسل نسمات رطبة .

وفوجئوا بحضوري ... ولعل منظري وأنا في تلك الحالة التي أشرت إليها قد أفادتني إذا ما لبثت أن عدت وأنا أحمل خطاباً بإعادتي للعمل .

لقد كان المستر أسبيرو لا ييأس من فصلي والشريف لا ييأس من إعادتي للعمل ... إلى أن سئمت أخيراً لعبة الكراسي الموسيقية هذه فتركت النيل ولم أعد إليها إلا بعد سنتين حيث وجدت أمامي في الجريدة شخصيات جديدة منهم المبارك إبراهيم والهادي العمرابي ... ثم سرعان ما عين عبد الله عبد الرحمن نقد الله نائباً لرئيس التحرير أثناء وجود المرحوم أحمد يوسف هاشم في القاهرة وكان صديقاً وعادلاً ، وكان رجلاً يؤمن بنفسه ويؤمن بالآخرين ولم أجنح بعد ذلك وإلى وقت طويل إلى وساطة الشريف .

هذا وكانت للشريف يوسف الهندي أكبر مكتبة جامعة في السودان ولم تزل بقايا هذه المكتبة قائمة في داره ببري .

كما كان شاعراً صوفياً وأذكر من شعره هذا المطلع من قصيدة طويلة :

أدر ذكرهم أهـــل المحبـــة والأنس وذكّرني عهـــداً تصرم بـــالأمس

الأزهري

في عام ١٩٣٨ عقب أول اجتماع عام لمؤتمر الخريجين لانتخاب هيئة تتكون من ستين عضواً ، وفي اليوم التالي اجتمعت الهيئة المنتخبة وانتخبت بدورها لجنة تنفيذية من ١٥ عضواً ، وازالة لأسباب التطاحن تقرر أن تكون الرئاسة دورية فيتغيّر الرئيس كل شهر ، بينما يختار سكرتير دائم .

وقد اختير السيد اسماعيل الأزهري في منصب السكرتير الدائم .

غير أن هذا الوضع سرعان ما تغير بعد أن قررت اللجنة التنفيذية تعديل اللوائح وانتخاب رئيس مستديم لفترة عام ، وتم انتخاب أول رئيس دائم في عام ١٩٤٠ وكان هو السيد اسماعيل الأزهري ، وقد تبادل السيد الأزهري والسيد ابراهيم أحمد هذا المنصب لعدة سنوات ثم استقر عام ١٩٤٦ لدى السيد الأزهري وقد عرفت السيد الأزهري منذ قيام المؤتمر كصحفيّ ، وظللت أتتبع تحركاته ، وأساير نشاطه ، وما لبثت أن شعرت نحوه بكثير من الود .

ويرجع السبب في ذلك إلى السهولة التي أجدها في التعامل معه .

فهو جمّ التواضع ، قريب التناول ، لا يضن عليك بالخبر المتاح في غير عنت ولا مشقة ، ولا يضن عليك بوجهة نظره الخاصة في الموضوع المطروح في غير عنت ولا مشقة أيضاً .

وكثيراً ما دعوت نفسي لتناول الأفطار معه ......وكثيراً ما دعوت نفسي لتناول شاي العصر ، وكنت في كل الأحوال أخرج مملوء اليدين بالمعلومات ..... وكنت أسعد بسماع خطبة العضوية التي أعلم يقيناً أنه لا يحضرها ولا يعد لها بل ولا يكتب رؤوس موضوعاتها ..... لقد كانت دائماً بنت لحظتها .

لقد كانت خطبة لطيفة جداً ولم أكن أرتاح بقدر ما أرتاح لنسيان الأزهري للبروتكول والألقاب والحواجز بين المواطنين .... وكأنه كان يسخر منها .

وقد ضج نادي الخريجين الممتلئ على سعته بالضحك والاستحسان حين خاطب السيد اسماعيل الأزهري رفعة علي ماهر باشا رئيس وزراء مصر في احتفال النادي بتكريمه عند زيارته للسودان خلال الحرب العظمى الثانية بقوله سعادة معالي دولة رفعة علي ماهر باشا ، إن أزهري لم يكن يجهل الألقاب ولكنه كان لا يضع لها الاعتبار الذي يضعه بعض الناس . وفي هذا المزج المتعمد بين أعلاها وأسفلها تهكم صريح وتحقير مقصود ولعله سبق الثورة المصرية بنفوره واستهانته بها . ولم يغضب الزوار المصريون لأنهم على ثقة بأن أزهري يكن لهم الود كلّ الود .

ولم يفاجأ السودانيون لأنهم جميعاً كانوا يعلمون أنه لم يرد السخرية بالضيوف وإنما كان يسخر من الألقاب نفسها .

والعفوية كانت هي سر قربه من الناس ، والعفوية هي التي ولدت بينه وبينهم روح المحبة والتآلف .

وكانت بسمته الواسعة العريضة ، ووجهه المشرق الصبوح يفعلان بالنفوس في لحظات فعل السحر .

وقد ترأس أزهري حزب الأشقاء ثم ترأس الحزب الوطني الاتحادي بعد اندماج الأحزاب الاتحادية في حزب واحد تحت المظلة المصرية .

ثم ترأس أول حكومة وطنية وهي حكومة الحكم الذاتي في ٤ يناير سنة ١٩٥٤ وشغل فيها منصبي وزيري الداخلية والدفاع ثم ترأس الحكومة الإئتلافية سنة ١٩٥٦ ثم أصبح رئيساً دائماً مع مجلس السيادة فيا بعد ، بعد إجراء تعديل في الدستور .

وعلى أزهري مسحة صوفية ـ يحسبها بعضهم ضرباً من الدروشة ، والعرق دساس كما يقولون ـ إذ أن أسرته عريقة في الدين ولها طريقة معروفة .

مخلص عنيد فيا يؤمن بأنه الحق ، عمل منذ بداية الحركة الوطنية بروح الرجل السياسي فحالف الأنصار ثم تحول عنهم إلى الختمية ، وقاد الحركة الوطنية وكان جهاداً

موصولاً أضنى فيه الجهد وضحى بالصحة .... وكانت أولى تضحياته في ١٤ يناير ١٩٤٦ حينما ركل منصبه في كلية غردون التذكارية لكي يتجرد للعمل الوطني .

وقد كان السيد إسماعيل الأزهري وراء حركة إعلان الاستقلال من داخل البرلمان ، ثم من وراء الجهود التي بذلت لاعتراف دولتي الحكم الذاتي بالاستقلال .

وقد اشترك السيد إسماعيل رئيس الوزراء ومحمد أحمد محجوب زعيم المعارضة بحضور الإمام السيد عبد الرحمن المهدي في مطلع عام ١٩٥٦ في إنزال علمي دولتي الحكم الثنائي حيث سلماه لمندوبي هاتين الدولتين ، كما اشتركا في رفع علم السودان وسط تهليل الجماهير وهتافاتهم ودموعهم التي عبرت عن الفرح والإبتهاج .

وبذلك أدى مهمته التي كرس من أجلها كل حياته .

ولد السيد إسماعيل الأزهري عام ١٩٠١ وتوفي عام ١٩٦٩ أي أن عمره لم يتجاوز السبعين . وثمة خلاف حول هذا الموضوع لم يسوَ بعد .

محمد نور الدين

عرفت المرحوم السيد محمد نور الدين الزعيم السياسي الكبير عام ١٩٣٩ حينما كان يحضر بانتظام إلى دار نادي الخرطوم بحري ويدخل في الحلقة التي تلتف حول الراديو لاستماع آخر أنباء القتال خلال الحرب العظمى الثانية .

وكان السيد نور الدين وسائر أعضاء النادي يؤيدون ألمانيا ، ويفرحون لكل انتصاراتها مثلهم في ذلك مثل معظم الشعب السوداني ، وكنت أنا وحدي أقف ضد دولتي المحور وكنت أجد من سخرية الأعضاء وتنديدهم ما يدفعني أحيانا إلى الغضب ولكنني سرعان ما اكظمه ، لأنني أعلم يقينا أن غضبي لا يردعهم عني بل يزيدهم امعانا في السخرية والتنديد بي .

ورغم اختلافي مع نور الدين في الرأي حول الحرب فقد بدأت تنمو بيني وبينه صلة من الود لم تنقطع قط .

وكان يحبوني كلما شهدني في النادي بطلب شاي أو مرطب ، ويبادلني الأحاديث وكنت أتجنب جهد طاقتي موضوع الحرب حتى لا نقع في خلاف يستغله الأعضاء في التريقة عليّ .

وكان نور الدين يرى أن أعداءنا الحقيقيين هم البريطانيون لأنهم يستعمروننا ، وأننا يجب أن نقف في الجانب المضاد لهم مهما يكن من أمر هذا الجانب .

بينما كنت أرى أن الحرب لم تكن بين مستعمرين وخصوم للاستعمار ، إذ أن النازيين والفاشيين كانوا طلاب استعمار وكانوا من أكثر الدول الأوربية ضراوة ضد الشعوب المقهورة التي يستعمرونها إذ يعتبرونها من طينة أدنى من طينتهم ... ويمتاز الألمان بأنهم يضعون للشعوب درجات ومقاييس الجنس الآري الذي يتكون منه الألمان هو الجنس الآرقى .

وكان لدينا مثل قريب هو جارتنا أثيوبيا التي غزاها الايطاليون الفاشست ولم يكتفوا بضربها بكل ما عرف في ذلك الوقت مِن أدوات الدمار بل استعملوا ضد شعبها الأعزل المسالم ، الغازات السامة وقنابل النابالم ورصاص دم دم وجاءوا بالمشردين من أبناء جلدتهم لكي يستوطنوا أثيوبيا وينتزعوا أخصب أراضيها وخير مواقعها ليمكنوهم منها .

ولم تعلن ألمانيا النازية زميلة إيطاليا استنكارها لما حدث ، مما يدل على تأييدها له .

ونحن حينما نقف إلى جانب الحلفاء إنما نقف على الأقل إلى جانب الديمقراطية كمبدأ ضد الديكتاتورية والعنصرية كمبدأين .

غير أن أقوالي لم تكن محلّ اصغاء قط ولعل نور الدين كان يهدف إلى استغلال فرصة الحرب للضغط على الانجليز عملا على تخفيف قبضتهم على وادي النيل ، ومنحهم بعض الحقوق والمطالب ان لم يكن كلّها .

وازدادت معرفتي بالسيد نور الدين بعد ذلك عندما دخل المعترك السياسي وأصبح من أقطاب حزب الأشقاء ، فقد كنت كثير الاتصال به من أجل الحصول على الأخبار والتصريحات وأحيانا من أجل (الونسة) (والقطيعة) .

وقد لاحظت في نور الدين نشاطا لا يكاد يفتر في سبيل الدعوة لحزب الأشقاء وكسب الأنصار له .

وقال لي ذات يوم ان حزب الأشقاء لم يعلن مبادئه لأن مبادئه الحقيقيه هي الوحدة التامة بين مصر والسودان ، فإذا أعلنت ربما ولدت شقاقا بين المنتمين إليه لا ضرورة له في هذه المرحلة وهي مرحلة النضال ضد البريطانيين .

وأيده في ذلك السيد يحيى الفضلي الذي كان إلى جانبه بأن مبادئ الحزب لم تعلن ، ولكن لم يقل ان مبادئه الحقيقية هي الوحدة .

وقد أطلق على نور الدين لقب الوكيل لأنه كان وكيلا لحزب الأشقاء ، ووكيلا للبنك الأهلي في أم درمان ، ووكيلا لوفد السودان إلى مصر فيما بعد .

ونور الدين ولد في حلفا عام ١٨٩٧ وتخرج في المدرسة الابتدائية في عام ١٩١٣ ،

والتحق بالبنك الأهلي المصري في الخرطوم في عام ١٩١٥ ، وفي عام ١٩٢٥ أصبح وكيل البنك في الأبيض وكان أول وكيل غير انجليزي للبنك في الشرق الأوسط ، ووجدت أعماله المصرفيه التقدير من رئاسة البنك في لندن فقد فتح للبنك آفاقا لم تكن معروفة حتى ذلك الحين .

ونقل إلى الخرطوم في عام ١٩٣٨ ومارس منذ ذلك الوقت علاقاته السياسية في نطاق واسع .

وينحدر نور الدين من بيت ديني وثيق الصلة برئاسة الختمية ، وقد أخذ الخلافة من السيد علي الميرغني شخصيا .

ونور الدين غير بليغ في التعبير باللغة العربية بسبب لهجته النوبية .... ولكن حماسته وفطنته وسرعة بادرته ودهاؤه تسدّ هذا النقص تماما .

وقد وصفته في كلمة كتبتها عنه بأنه كان دائما يواجه العاصفة .

وهذا في الواقع من مصادر قوته بل هذا مفتاح شخصيته .

لم تذكر عنه طيلة حياته هذه الصغائر الشخصية التي علقت بالبعض فخدشت من سمعتهم ، وأحالت من لمعانهم . فهو ربّ أسرة مثاليّ ، وهو صديق مخلص وهو مضيف واسع الصدر ، رحب المائدة وهو محافظ شديد الرعاية لمظاهر الدين والأخلاق وما تعارف عليه المجتمع .

ونور الدين من أدق الناس فهما لطبائع الأفراد ، ونفسياتهم ، ونواحي الضعف والقوة فيهم ، ولذلك فهو قادر دائما على مسايرتهم ، واستجلابهم والتفاهم معهم والعمل على مرضاتهم .

يعود المريض ، ويودع المسافر ، ويستقبل الآيب ، ويصل الرحم ، ويعين على نوائب الزمان ، ويحمل الكلّ ، ولا يترك فرصة للعطف والمجاملة والمواساة وتقريب الشقة بينه وبين الآخرين الا انتهزها .

ولم يكن في معظم ما يفعل متكلفا .

وأذكر أنني كنت مارا في سوق الخرطوم فإذا بسيارة تقف إلى جانبي وكان فيها السيد نور الدين وابنه صلاح والسيد خضر عمر .

وقال لي نور الدين : إركب

فركبت ولم أسأله ، ولعله خطر ببالي أن ثمة خبرا ملحا يريد مني أن أبلغه للأهرام .

وانطلقت السيارة إلى مقر جريدة الأشقاء بالخرطوم ، وكان في الدار التي خصصت لسكن السيد يحي الفضلي بعد ذلك .

وكان الباب لسبب لم نتعمق في معرفته مقفلا ، فاغتصبناه ، وحاول بعض من كان معنا اغتصاب باب احدى الغرف وكان مقفلا أيضا فمنعه نور الدين ..... وأشار إلى غرفة ذات باب مفتوح ، وقال : إليها .

وذهبنا إلى حيث أشار ثم جاء صلاح ببطيخة ضخمة كانت موضوعة في الحقيبة الخلفية للسيارة .

ورفع نور الدين رأسه ضاحكا وقال لي : لقد جئت بك لكي نأكل هذه البطيخة سويا .

وضحكت وضحك الآخرون .

ورغم أن أكلة بطيخة ليست بالأمر الكبير الا أنني شعرت نحو نور الدين بامتنان عظيم .

والحق يقال ان مثل هذه اللمسات الانسانية الصغيرة قد كسبت لنور الدين الكثير من الرجال ، إنه مثل صغير لروح التعاون والتآلف بينه وبين الآخرين وعرضه كصورة حية من أخلاق ذلك الرجل .

ولعله لم يصبح عسيرا على الفهم انتقالي بجريدة السوداني اليومية التي كنت أحررها في عام ١٩٥٠ عند انشقاق حزب الأشقاء إلى جانب نور الدين ، بعد أن وقفت إلى جانب السيد اسماعيل الأزهري حينا .

وكان حزب الأشقاء ثم الحزب الوطني الاتحادي لا يمثل مدرسة واحدة من التفكير

السياسي بل يمثل مدارس عديدة ووجهات نظر مختلفة تتدرج من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار ... ومن أقصى الاستقلالية حيث كان أزهري إلى أقصى الوحدة كما كان نور الدين .

وعندما تمّ تقرير المصير ، من داخل البرلمان في عام ١٩٥٦ ، واتجهت الأغلبية المطلقة نحو الاستقلال رأى نور الدين ألا يكون الصوت النشاز في ذلك الاجماع ... فصوّت إلى جانب الاستقلال وهو مكره .

ولم يضعف إيمانه بالوحدة في أي عهد من عهود حياته ، رغم أنه لقي العنت من هذا الاصرار ...... ولقي الأهمال الفاحش من جانب مصر التي احبها وعمل من أجل ارتباط السودان بها .

ومن الكلمات التي أُثرت عنه إبان مكافحته للجمعية التشريعية عام ١٩٤٨ قوله : (نرفضها ولو جاءت مبرأة من كل عيب) .

ميرغني حمزة

ميرغني حمزة قمة سياسية ووطنية ذات أثر وخطر وقد لعب أدوارا هامة خلال الحكم الثنائي والحكم الذاتي وبداية الاستقلال .

تخرج من قسم الهندسة بكلية غردون التذكارية عام ١٩١٤ واشترك في حملة دارفور عام ١٩١٦ وكان من البارزين في حركة نادي الخريجين بأم درمان عام ١٩٣٠ ، وكان من (الفيلست)[١] وعرف عقب هذه الحركة بالانتماء لطائفة الختمية وتعاونه مع زعيمها الأكبر السيد علي الميرغني ، وظل في مصلحة الأشغال حتى تقاعد بالمعاش حيث تفرغ للعمل السياسي أولا ثم لأعمال الشركات أخيرا .

كان أول رئيس للجنة ملجأ القرش كما كان من أعضاء لجنة المدرسة الأهلية المؤسسين ، وكان كذلك أحد أعضاء لجنة العشرة التي قامت بالوساطة في إضراب طلبة كلية غردون التذكارية وشكاوى الموظفين ، وقد عقدت أغلب جلسات اللجنة الأخيرة في منزله .

انضم لمؤتمر الخريجين منذ تكوينه ، وكان من أعضاء اللجنة التنفيذية في السنين الثلاث الأولى ، وتركه عندما تسيطر عليه حزب الأشقاء .

انتخبه مجلس بلدي أم درمان لعضوية المجلس الاستشاري . وكان هو والسيد الفيل من أقوى المعارضين شكيمة .

رفض وزارة الأشغال عندما عرضت عليه في عام ١٩٤٨ لعدم رغبته في التعاون مع الأنصار ، وهم يوم ذاك سند الجمعية التشريعية بعد قيام الجمعية التشريعية والمجلس التنفيذي الذي نشأ عنها .

---

(١) نسبة إلى السيد الفيل

أوكلت إليه الوفود السودانية في باريس عام ١٩٥٢ تدوين الكتيب الذي أصدرته للدفاع عن حقوق السودانيين ، كما كان أحد ثلاثة أسند إليهم اللواء محمد نجيب رئيس جمهورية مصر مهمة تشكيل الحزب الوطني الاتحادي .

وعندما تألفت أول وزارة سودانية أسندت إليه وزارات المعارف والزراعة والري ثم قنع باثنتين .

كان في عهد الحكم الثنائي كثير الاتصال بالبريطانيين الحاكمين . وتضرب بشاي عصره الأمثال ، وكان يتخذ هذا الاتصال كأسلوب سياسي واجتماعي قال المرحوم محمود الفكي من قصيدته القومية الساخرة بالاستغاثة (من أبرم الأمر بشاي العصر) .

وكان بعض البريطانيين يميلون إليه لاعتداله وواقعيته ولكن كثرة منهم كانت تخشاه وتعتبره من أولئك الذين يجري حب النقد في دمائهم .... ولكن هؤلاء وأولئك كانوا مضطرين لمسايرته والتفاهم معه لأنه من أقطاب الختمية المقربين للسيد علي الميرغني والذين لا يبرم أمر للطائفة بدونهم .

أكره الناس للذبذبة في الرأي وقلّ أن يركن للزوايا المظلمة وقلّ أن يعيش تحت الغموض والالتواءات .

يقول أعداؤه انه حقود ،ويقول أصدقاؤه انه ودود .

وواقع الأمر أنه إذا كون الرأي عن الأشخاص أو الهيئات أو الطوائف بعد دراسة وتمحيص ، لا يغيره إلا في عثر شديد وربما لا يغيّره على الاطلاق .

يدقق في عمله ، ويواظب عليه ، ويحرص على الإجادة والاتقان وتشمل عنايته الخطير والحقير من الأمور .

وكان ميرغني قليل الابتسام ، نادر الضحك ، أجش الصوت ، بطيء الحديث ، طويل القامة ، نحيف البنية ، معروق الوجه ، رياضي التكوين ، له عوينات يخلعها ويلبسها في حركة عصبية باستمرار .

عرف بالموضوعية والمنطق في مناقشاته ، واتسمت كتاباته بسلاسة الأسلوب ، وجودة

العبارة ، والتعمق والتركيز ، وايثار اللفظة غير المألوفة وغير المتعارفة إذا كانت أكثر أداء للمعنى من اللفظة المألوفة والمتعارفة .

يعتبر من المتمكنين في اللغة الانجليزية ، كما يعتبر من السودانيين القلائل الذين اتسع اطلاعهم ، وتنوع ... وتعددت مصادره .

قويّ الخصومة ، عنيفها ، جامحها ، صعب الارضاء ، يؤثر الطريق الواضح المستقيم .

ربما استفاد بعض أخلاقه من مهنته كمهندس .

اعتنق الاتحاد ، ثم اعتنق الاستقلال باعتباره تفسيرا لكلمة الاتحاد .. وقد خرج من الحزب الوطني الاتحادي هو وأحمد جلي وخلف الله خالد عقب اقالة السيد اسماعيل الأزهري له من الوزارة وكون حزب الاستقلال الجمهوري ورأسه .... وأسند السكرتارية للسيد عبد الله ميرغني ، وضم للحزب شخصيات هامة في الساحة الشعبية من أبرزهم محمد سيد أحمد سوار الذهب وفضل بشير وصالح حسين بيومي ، ومحمد حاج الخضر علي كمير ، والتيجاني أبو قرون ، والأمين أرباب ومحمد أحمد الجلالي ، ومحمد علي أبو راس ، ومحمود قباني ، وعثمان جاد الله .

وكان عليه أن يواجه ويكافح ويخاصم دهاقنة فن الأساليب الشعبية فلم يتأت له ذلك ..... وفشل فشلا ذريعا .

لقد كان ميرغني يريد من الجماهير أن تذهب إليه .... بينما كان الآخرون يذهبون إليها .

كان يعمل على أن يطرح أمام الجماهير الحقائق عن طريق اللفظ المختار والمعنى المصقول .... كان يريد أن يكتسب عقول الجماهير كما يفعل الزعماء السياسيون في أرقى البلاد ديمقراطية .

بينما كان غيره يتعامل مع الجماهير بنفس ألفاظها وتعابيرها واتجاهاتها ..... ويريد أن يكسب عواطفها باعتبارها المدخل إلى عقولها .

فلم يصل ميرغني إلى ما أراد ووصلوا هم إلى ما يريدون .

وفي أوائل عام ١٩٥٧ رشح ميرغني حمزة لرئاسة الحكومة ضد السيد اسماعيل الأزهري بمعونة من حزب الأمة وبعض النواب الختمية عقب سقوط حكومة أزهري الأولى أثر خلافه مع رئاسة الختمية وتحول بعض النواب وهم طيفور محمد شريف ومحمد جبارة العوض ومجدوب إبراهيم عن تأييده .

غير أن أزهري ما لبث أن استعاد ثقة المجلس بصوت واحد بعد عودة النواب المتردين ..... وكون حكومة جديدة .. اشترك فيها حزب الأمة وحزب الاستقلال .... وكان ممثل حزب الاستقلال ميرغني .

وبفضل اجماع الأحزاب ، تم الاستفتاء من داخل البرلمان .

وقد حدث عندما كنت محررا بجريدة الاستقلال ان طلب اليّ الأستاذ محمد أحمد السلمابي رئيس التحرير أن أكتب دراسات شخصية عن السياسيين ففعلت .

ومن بين من كتبت عنهم المرحوم السيد يحي الفضلي الرجل الثاني في حزب الأشقاء وقد وصفته بأنه قويّ ، وأنه يحطّم خصومه كما يحطم المارد أعشابا جافة اعترضت طريقه بأقدامه الغلاظ .

ولم أكن في هذا الوصف الذي انسقت إليه على سجيتي موفقا لانني اشتركت في تحرير جريدة سياسية انشئت لمحاربة حزب الأشقاء بعامة ويحي الفضلي بخاصة .

وزرت في نفس المساء الذي نشرت فيه الكلمة السيد صالح حسين بيومي وهو عضو الحزب ومموله لكي أحصل منه كالعادة على سلفية بعد بذل القليل من النفاق .

ووجدت ميرغني هناك فلما رآني انتفض كمن مسته كهرباء عالية الفولت ، وواجهني بثورة عصبية شديدة العنف .

وقال في صوت عال يُسمع من بعد نحن أصدرنا جريدة الاستقلال لنحطم يحي الفضلي وأمثاله فتجيء أنت لكي تكتب في نفس الجريدة إشادة بيحي وتُمجِّده وتصفه بالقوة .

لقد كدت أذهب للجريدة وأحرق كل ما طبع فيها ، هذا استهتار ... هذا لعب .

ان هذه ليست سياستنا .

وتصاعد غضب ميرغني بالتدريج وهو يشتد في مخاطبتي إلى حد جعلني أنصرف سريعا ، خوفا من تطور الموقف من جانب الرجل العصبي إلى مالا تحمد عقباه .

واستقال السلمابي - وهو رجل شديد الحساسية - بعد أن جوبه بثورة ميرغنية أخرى .

ولم استقل أنا لأنني كنت محتاجا لكل مليم من مرتبي رغم شعوري بما في هذا الموقف من تخاذل وضعف ولا أزيد ..... بل ورغم علمي بأنني لن أبقى في الجريدة طويلا .... فبخروج السلمابي الذي جاء بي لن يقف إلى جانبي أحد ، وبذلك يكون أمري قد تقرر سلفا .

ولم يزل إدراكي لهذه الحقيقة يضيف عقدة إلى مجموعة من العقد التي تكونت في نفسي من ظروف الضعف التي مرت بي فتحيل حياتي أحيانا إلى جحيم .

إنني أحب الشجاعة في القول والعمل تّصورا ولكنني لا أمارسها في الواقع إلا نادرا ..

لقد مضى ميرغني بعد أن جاهد جهاد الابطال فيا يعتقد أنه الحق ..... وأصبح اسمه في تاريخ السودان الحديث في جلائه ووضوحه كالذهب المصفى .

عبد الله خليل

قبيل نهاية الحرب العالمية الثانية في عام ١٩٤٥ وعقب الحملات الصحفية المتعددة ، والحركات الداخلية الداعية إلى تحقيق المطالب الوطنية برزت عدة أحزاب إلى الوجود وكان من بينها حزب الأمة الذي يدعو إلى استقلال السودان بكامل حدوده الجغرافية .

وقد ساند الحزب منذ البداية الإمام عبد الرحمن المهدي ..... أو هو في الحقيقة الذي كونه . وقد مده بالمال والنفوذ والشخصيات الكبيرة .....

واختير لسكرتارية الحزب الأميرالاي عبد الله خليل أحد كبار الضباط العظام المتقاعدين وتولى رئاسة الحزب السيد الصديق المهدي .

وقد أتم عبد الله خليل قسم الهندسة بكلية غردون التذكارية ثم التحق بالمدرسة الحربية وتخرج فيها كضابط عام ١٩١٢ ، وقد اشترك خلال الحرب العظمى الأولى في معركة المضايق بتركيا ، كما اشترك في الحملة ضد السلطان علي دينار عام ١٩١٦ ، وكان أحد المدافعين عن الضباط المعتقلين الذين اتهموا بالتمرد في ثورة ١٩٢٤ .

انتخب زعيماً للجمعية التشريعية في عام ١٩٤٨ وتولى وزارة الزراعة .

وكان من ممثلي حزب الأمة في لجنة الأحزاب المؤتلفة عام ١٩٥٣ ، كما كان من موقعي ميثاقها .

رأس وزارة حزب الأمة الأولى في أواخر عام ١٩٥٦ ، ثم رأس الوزارة الائتلافية بعد الانتخابات في أواخر عام ١٩٥٨ ، واعتقل في عهد حكومة الفريق إبراهيم عبود من بين الزعماء الذين اعتقلوا .

كان مهندسا بارعا وجنديا بارعا وخاض السياسة فبرع فيها أيضا إذا اعتبرنا أن

السياسي هو الذي يعمل وفق مقتضى الحال ، ويحاول أن يكسب أقصى ما يمكن كسبه بالوسائل التي يملكها .

صادق البريطانيين وهذه حقيقة لا شك فيها ولكنه لم يدر قط ظهره للحركة الوطنية ، لقد كان أحد أعمدتها .

كان يساير البريطانيين في سياستهم ولكنه كان أيضا يدفع بالمتطرفين لكي يثيروا الغبار حول هذه السياسة .

وقد وصفته في تحليل صحفي بأنه يعيد سيرة كافور في إيطاليا حين كان وهو في رأس الحكومة بالنهار يوهم بأنه ضد الوطنيين الثائرين ، ثم يستقبل هؤلاء الوطنيين الثائرين بالليل ليشترك معهم في وضع الخطط ضد الحكومة وضد المستعمرين ، وبذلك استطاع توحيد إيطاليا تحت أسرة سافوي .



كريم يضرب بكرمه المثل ..... وقيل أنه إذا كان يمتلك عشرة جنيهات فإن نصفها لأول صديق محتاج يلتقي به .

رهن يوما منزله ليفرج ضائقة حاقت بأحد معارفه ..... ووهب يوما مكتبه بكل ما فيه لزميل لأنه كان أحوج منه إليه . داره لا ينقطع عنها الزوار وأرباب الحاجات .

وكانت مائدة الإفطار لديه وخاصة عندما كان رئيسا للوزارة أشبه ما تكون بالمؤتمر القومي ، يحضرها عادة ما يقرب من عشرين شخصا ..... وكان هؤلاء العشرون يمثلون انقسامات الشعب السوداني حزبيا وطائفيا وقبليا .

تعود أن يقول (لا) للمتأخرين وما أكثرهم لأن المبادرين يكونون قد استنفدوا جميع ما عنده حتى الوعود .

ورغم دخله الكبير فإن رصيده في البنك لم يكن ليزيد عن رقم واحد في أغلب الأحيان . وقد يكون هذا الرقم في بعض الأحيان ، الصفر .

شديد الإخلاص لمن يتسم فيه الإخلاص من أحبائه وأصدقائه ..... سليم دواعي الصدر لا يبسط الأذى لأحد ، لا بلسانه ولا بيده ولا بنفوذه .

وقد عجب من رآه يخفّ لزيارة الأستاذ الدرديري أحمد إسماعيل رئيس حزب وحدة وادي النيل عند خروجه من السجن رغم اختلاف مبدأيهما وأسلوبيهما اختلاف النقيض للنقيض ، ورغم أنه كان عضواً في المجلس التنفيذي الحاكم . ولكن هذه الزيارة لم تثر عجب من يعرفون خلق الأميرالاي .

والحقيقة الكبيرة في السودان خلال التطاحن الحزبي والسياسي والطائفي أن السودانيين لم يكونوا متباعدين كتباعد الزعماء المختلفين سياسيا في بعض البلاد الأخرى .

لم يصل اختلاف السياسيين السودانيين قط إلى حد القطيعة لا في الماضي ولا في الحاضر . لقد كان من أصدقاء عبد الله خليل الحميمين الذين لا ينقطعون عنه رغم الانقسام الحزبي والسياسي الدرديري أحمد إسماعيل (حزب وادي النيل) مبارك زروق (شقيقا) ، والدرديري نقد وزين العابدين صالح (جمهوريين اشتراكيين) وزين العابدين هو أخ لعبد الله خليل بالرضاعة .

وكان أصدقاء عبد الله خليل خليط شيوخ وكهول وشباب وحزب أمة وأشقاء واتحاديون ومن كل جنس وملة ودين .

صريح واضح كالكتاب المفتوح ، لا يحب الغموض والالتواء .
شجاع في التعبير عن آرائه كشجاعته وهو يستقبل الخصوم .
قد لا يحبه كثيرون ولكن لا يحقد عليه أحد .

كان سكرتيرا لحزب الأمة ورئيسا لوزراء الحزب ولكنه مع ذلك كان يمتلك من الآراء والاتجاهات ما يجعله أحيانا ضد حزب الأمة وضد آل المهدي .

وقد بدا ذلك واضحا أثناء مفاوضات وفد المهدي مع حكومة مصر .

إذ كان يتحدى من يقول بقبول التاج الرمزي للسودان ، وأن يكون السودان في نطاق الوحدة مع مصر ، وكاد في ساعة غضب أن ينضم للحزب الجمهوري الاشتراكي .

وحين أخذ السيد محمد الخليفة شريف من أقطاب حزب الأمة وآخرون يجرون اتصالات وهو رئيس للحكومة للإطاحة به في منتصف عام ١٩٥٨ قال للصديق المهدي رئيس حزب الأمة لماذا يتعب السيد محمد نفسه هذا التعب المرهق في محاولة قد لا يكفل لها النجاح في حين أن استقالتي حاضرة . وهي دائما بين يديك إذا أردتها .

فطيب السيد الصديق خاطره ..... وقال له أن السيد محمد الخليفة لا يمثل حزب الأمة رغم أنه من أقطابه ولا يمثل آل المهدي رغم أنه من صميمهم .

وإننا واثقون منك وليس ثمة نية للتغيير .

غير أن عبد الله خليل لم يكن على يقين من هذه الثقة ..... ولعلها هي السبب في تكاثف اتصالاته بالسيد علي الميرغني في ذلك الحين ، وفي تخطيطه لبعض الأحداث الكبرى .

أعان كثيرين من المقربين إليه في أزماتهم وعندما حاقت به الديون ، وساءت أوضاعه المادية لم يجد من هؤلاء المقربين إليه ما يدفع عنه هذه الظروف . رغم أن الكثير من المال الذي آل إليهم كان لعبد الله خليل أكبر الفضل فيه .

إن عبد الله خليل رجل نادر بين الرجال وقد أعطى كل ما في وسعه وكل ما عنده . وكان مثالا للطيبة والوطنية وروح الخير لا أشك في ذلك بل أخالني دون ما أريد .

وهناك مسألة يحق أن أنوه بها ..... لقد كنت أعتقد وكان كثيرون يعتقدون أن ثقافة عبد الله خليل العسكرية لا تخوّله القدرة على المناقشة إذا دخلت نطاقا عسيرا تشتجر فيه الآراء وتتعقد الموضوعات ، وتتعدد الاحتمالات . غير أن هذا الاعتقاد لم يكن صائبا قط ....

كنت عضوا في لجنة الأحزاب المؤتلفة بوصفي ممثلا للحزب الوطني (حزب الشريف) وكان ثمة جدل حضره الصاغ صلاح سالم وزير الإرشاد القومي المصري ووزير الدولة لشؤون السودان وكان الجدل يشمل مدة بقاء القوات المحتلّة وأسلوب الاستفتاء

الشعبي لتقرير المصير ، والسلطة التي تتولى الإشراف على انتخابات الحكم الذاتي ثم السلطة التي تتولى الإشراف على الاستفتاء إلخ ..... وكانت اللجنة تضم السادة إسماعيل الأزهري ومحمد نور الدين والدرديري محمد عثمان عن الحزب الوطني الاتحادي والصديق المهدي وعبد الله خليل وعبد الرحمن علي طه عن حزب الأمة وإبراهيم بدري ثم أخيرا زين العابدين صالح والدرديري نقد عن الحزب الجمهوري الاشتراكي ثم شخصي عن الحزب الوطني (حزب الشريف) .

فدهشت حين وجدت عبد الله من أكثر المتحدثين منطقا ، ومن أكثرهم مداورة ، ومن أكثرهم فهما للسياسات هنا وهناك ، ومن أكثرهم تفنيدا لحجج الخصوم وتعزيزا وتدعيما لما يقدم من حجج ..... بل (وهذا مهم) من أكثرهم وضوحا في التعبير عن وجهة نظره .

وكانت صلابته تتجلى في أنه لا يقف بين لا ونعم قط ..... وكان جل حديثه حتميات تعينه فيها تجارب شخصية وتاريخية وعسكرية .

وربما كانت بينه وبين السيد الصديق المهدي مسافة ولكنها مسافة ما بين الرجل المحافظ الحذر الكبير السن الذي لا يريد الوثبات السريعة دون إعداد وتحوط ، والرجل الذي يريد أن يكون في المقدمة دائما مهما تكن النتائج ..... الرجل الذي يريد أن يكون أمام كل المتفاوضين غير متخلف شعرة واحدة .....

وانتدبني عبد الله بك خليل عام ١٩٥٨ لكي أتحرى بصفتي الصحفية عن موقف السعودية من استقلال السودان واستعدادها للوقوف في وجه عبد الناصر وعندما لجأت للسعودية في عام ١٩٥٣ عقب ثورة ٢١ أكتوبر كتب رسالة لجلالة الملك فيصل يدعوه لمعاونتي .

وتوفي عبد الله خليل عام ١٩٧٢ ..... وكان قد تجاوز السبعين من العمر .

وكان مأتمه مأتما قوميا .

محمد أحمد محجوب

ولد السيد محمد أحمد محجوب في عام ١٩٠٨ في الدويم وتخرج في قسم الهندسة بكلية غردون عام ١٩٢٩ ، والتحق بمدرسة الحقوق حيث تخرج فيها عام ١٩٣٨ ..... وكانت الدفعة التي تخرجت في ذلك العام وهي الدفعة الأولى ، تتكون من محمد أحمد أبو رنات والريح الأمين ، ومالك إبراهيم مالك ، وإبراهيم المفتي ، ومجذوب علي حسيب ، وأحمد متولي العتباني .

وعمل محجوب في القضاء منذ عامه الأول وحدث أن عرضت عليه رئاسة تحرير جريدة الأمة عندما أنشئ حزب الأمة بمرتب قدره ثمانون جنيهاً وهو أكبر مرتب عرض على صحفي سوداني يوم ذاك ولكنه اشترط لقبول المنصب أن يمنح ترخيصاً بمزاولة المحاماة ، فلما رفض طلبه ، رفض المنصب ورشح زميله الأستاذ يوسف مصطفى التني بديلاً عنه .

واستقال محجوب من القضاء عام ١٩٤٦ ولم يلبث أن أختير سكرتيراً للجبهة الاستقلالية ثم سافر إلى انجلترا في صحبة الإمام عبد الرحمن المهدي ليعمل على معارضة بروتوكول صدقي بيفن

وعاد إلى السودان في عام ١٩٤٧ ليمارس مهنة المحاماة بعد أن منح ترخيصاً بمزاولتها .

ولم يلبث أن سافر مع وفد الجبهة الاستقلالية برئاسة السيد الصديق المهدي لحضور عرض القضية المصرية على مجلس الأمن .

واستقال من سكرتارية الجبهة الاستقلالية في عام ١٩٤٨ لاختلاف في وجهات النظر .

وكان من بين الأعضاء الذي عينهم الحاكم العام في الجمعية التشريعية .

واستقال منها بعد ذلك هو وصالح عبد القادر ، وأحمد يوسف هاشم .....

وقد أطلق عليهم يوم ذاك اسم الفرسان الثلاثة ، وقد كونوا مع آخرين ما سمي بهيئة تحرير السودان ومن بين أهدافها محاربة الطائفية .

وكان محجوب من أعمدة صحيفة النهضة السودانية التي كان يصدرها محمد عباس أبو الريش وصحيفة الفجر التي كان يصدرها عرفات محمد عبد الله .

وكان محجوب من الخطباء الذين يهزون المنابر ويثيرون حماسة الجماهير ويلعبون بعواطفه .

وكانت الجمعية التشريعية قبل أن يستقيل كما كان البرلمان والجمعية التأسيسية ميداناً لصولاته وجولاته الخطابية ..... وقد كشف عن قدرة فائقة في المناورات البرلمانية وقوة عارضة رائعة في الجدل والنقاش ودقة إحكام في تسديد الهدف .

وكان سامعو محجوب يؤثرون إلقاءه الارتجالي أكثر من تحضيره ..... لأنه عند الارتجال ينفعل ثم ينطلق لا تقيده أوراق ، مما يستخرج أقصى طاقاته ..... وأحد لذعاته وأكثرها إثارة ، ومما يدفعه إلى تخطي كل الاعتبارات السياسية والتقليدية .

قرأ كثيراً ، واتصل كثيراً ، وكانت له علاقات وثيقة بقيادات مرموقة في الشرق والغرب ، وكوّن لنفسه ثقافة سياسية واجتماعية وافرة جيدة .

ويعتبر كتابه (الحكومة المحلية في السودان) آية من آيات البحث والاستقراء والاطلاع الواسع والفهم الدقيق .

صريح أبيض القلب ، يحب الكلمة الطيبة ..... له رصيد كبير من الأصدقاء في كل المعسكرات .

ومن الحوادث المرموقة في حياته استقالته من الجمعية التشريعية ولجنة دستور السودان برئاسة صمويل بيكر .

وقد كان السبب في استقالته من الجمعية أنه عندما نجح هو وبقية أفراد المعارضة في إسقاط مشروع يقضي بزيادة مرتبات الموظفين البريطانيين خاصة استطاعت الحكومة أن

تغري بعض الأعضاء بتقديم المشروع مرة أخرى وأن تغري كذلك أكثرية الأعضاء بطرق مختلفة بإجازته فأجيز .

وحجة محجوب وزملائه في معارضة المشروع هو أنه يؤثر على خزانة البلاد وبخاصة في بند المعاشات ولما كانت الميزانية تستند على محصول نقدي واحد تتلاعب بأسعاره الأسواق العالمية وهو القطن ، فإنه من الخطأ أن تكون المرتبات ٤٠ ٪ من الميزانية بحيث لو حدث أن قلّ محصول القطن في عام أو هبط سعره لما أمكن للخزانة أن تدفع المرتبات وبالتالي لن تستطيع أن توفي بالتزاماتها نحو الشعب .

أما استقالته من لجنة الدستور فترجع إلى أنه هو وزملاؤه كانوا يرون أن مصر بعد أن ألغت المعاهدة لم يعد أمام السودانيين إلا أن يعلنوا إنهاء الحكم الثنائي وإلا أن يطالبوا بحلول لجنة دولية محل رأس الدولة لمدة عامين يقرّر بعدها السودانيون مصيرهم .

وكان بعض الأعضاء يرون الاعتماد على وعود بريطانيا غير أن الأعضاء المستقلين رأوا أن وعود بريطانيا لا يمكن الاعتماد عليها بالإضافة إلى أنه ليس في يد بريطانيا من الناحية القانونية أن تعطي السودانيين استقلالهم و (فاقد الشيء لا يعطيه) .

وعلاقتي بالسيد محجوب كانت علاقة وثيقة ودانية منذ أن التقينا لأول مرة في أول عام ١٩٣٦ حينما كان يتردد على جريدة النيل وهو طالب في مدرسة الحقوق ، للقرابة التي تربط بينه وبين الشيخ الأمين عبد القادر رئيس التحرير وأحمد يوسف هاشم المحرر بالجريدة .

ولا أنسى قط أنه كان يشجعني في ذلك الحين لكي أذهب إلى القاهرة لأواصل تعليمي وكنت أرفض في إصرار لاعتقادي بأنني في قمة المعرفة ، وأن ما حصلت عليه من قراءاتي ليس فيه زيادة لمستزيد ...... ولعله قد خيل إليَّ بدافع من الغرور الذي كنت أقف على ذروته ، إن تشجيعي على بعثة القاهرة إنما هو تآمر عليّ لكي أخرج من جريدة النيل وهي أوهام سخيفة ، كم تأسفت عليها فيما بعد .

ومهما يكن من شيء فإن العلاقة التي تربطني بمحجوب لم تهن قط في شتى الحالات

والظروف وقد ساهم في تحرير جريدة أنباء السودان فترة من الزمن عندما تخلى عن رئاسة الوزارة للسيد الصادق المهدي .



وأذكر في سبتمبر من عام ١٩٥٢ أنني كنت في حوالي العاشرة مساء أزور فندق سميراميس بالقاهرة لبعض شأني ..... وكان وفدٌ من حزب الأمة قد جاء إلى القاهرة ونزل هناك ، وجلس بعض أفراده في أبهائه يتناولون المرطبات ويتبادلون الأحاديث .

وكان عددٌ من الصحفيين والمصورين يدورون حولهم كما كان ثمة عدد من الضباط يترددون بين الضيوف وشفاههم تفتر عن ابتسامات واسعة ، ورؤوسهم تومئ إيماءات خفيفة تعبيراً عن تحية لهذا أو ذاك ممن يمرون بهم .

ورأيت السيد محمد أحمد محجوب وكان يتولى منصب سكرتير الجبهة الاستقلالية فشخصت إليه ، وكان يجلس قريباً من مدخل الفندق . وكان قد تجمع حوله كالعادة لفيف من أصدقائه الصحفيين المصريين ويربض على مرمى البصر منه رسَّام كريكاتيري يحاول أن يلتقط بعض ملامحه .

وفي هذه اللحظة مرَّ ضابط برتبة (بكباشي) طويل القامة ، ممتلئ العود معتدل المشية ، على شيء من الوسامة والمهابة ...... ولمح الضابط محجوباً فتوقف وصافحه مصافحة العارف ، وانطلقت أساريره ثم بادله الحديث في رقة وحزم معاً .

وأذكر حتى هذه اللحظة أنه بدا في وقفته أوضح طولاً من محجوب ..... ولكن محجوب لو اعتدل في وقفته لكان على مقياسه .

وأثَّر في نفسي مطلع الضابط ، ولم أدر أكان التأثير من جراء الجو الرهيب الذي كان يسود القاهرة أثر انتصار الثورة المصرية بقيادة الضباط الأحرار أم كان ناشئاً عن النغمة المفعمة التي تجلت بين ثنايا عبارات الضابط أم كان منبعثاً من قوة شخصيته أم من مجموعة هذه العوامل .

وخيل إليّ أن جولة الضابط كانت جولة تفهم واختبار ..... فإن نظراته الثاقبة

لا تقف عند حدود محجوب ورفاقه بل تتجاوزها لتشمل كل من في الأبهاء الواسعة .

واستأذن الضابط ومضى مسرعاً وهبط السلالم في غير رفق واتجه نحو سيارة عسكرية كانت تنتظره .

وسمعنا بعد دقائق صوت محرك السيارة وهو يدور ، وضجيجها وهي تنطلق .

والتفت إلينا محجوب وقد غمره الجد ولبس ثوب العارف ببواطن الأمور ، وقال : إنه البكباشي جمال عبد الناصر من هيئة الضباط الأحرار ، وأقواهم وأخطرهم بل هو رأس هذه الحركة .

ولما كانت أسماء أعضاء مجلس قيادة الثورة باستثناء رئيسهم اللواء محمد نجيب لم يكن قد أعلن عنها بعد ..... بل لم يكن يعرف عددهم . فقد دفعت برأسي جانباً ، وفي ذهني أنها بعض مبالغات محجوب أرسلها على سبيل المجاملة للضابط الصديق ، أو تعبيراً عن قدرته المتفوقة على كشف ما وراء الحجب ، أو فتحاً لآفاق جديدة من الكلام .

وتحركت لكي أغادر المكان وأذهب إلى حيث أنزل في فندق قصر الجزيرة بالقرب من كبري أبو العلا .

فسألني محجوب إلى أين ؟

قلت : لقد سهرت كثيراً وآن لي أن أذهب لأنام .

فضحك وقال : إنني سوف أمضي بعد هذه الساعة إلى أخبار اليوم لأبدأ السهرة مع علي ومصطفى أمين وبقية الشلة ..... السهرة التي ربما استمرت حتى الرابعة صباحاً .

ولم أسأل محجوب مزيداً من المعلومات عن الضابط ولم أعر هذه المقابلة اهتماماً .

وتجري الأحداث سريعاً ويتضح شأن جمال عبد الناصر ..... ويصبح الأول في مصر بعد أن كان مجهولاً ، وأحس بوخز أليم فقد أضعت بإهمالي وعدم قدرتي على الرؤية البعيدة خبراً كبيراً أو تحقيقاً مثيراً . وأنا قبل كل شيء وبعد كل شيء صحفي يجري حب الصحافة في دمي وقد كان يمكن أن يكون جمال بالنسبة لي في ذلك الوقت المبكر من الثورة دراسة تاريخية وشخصية ونفسية فريدة ذات وزن وسبقاً صحفياً ذا اعتبار .

على أنني طالما تساءلت بعد تلك المقابلة ، هل كانت الصلة بين محجوب وجمال هي صلة معرفة عابرة ، أم أبعد مدى من ذلك كله ؟

فمنذ تلك الساعة وحتى وفاة جمال عبد الناصر كان دائماً طريق محجوب يلتقي بطريق جمال .

صحيحٌ أن محجوب كان ينتقد ويتسع أحياناً في الانتقاد ويتهم الشعب المصري بأنه يفسد الزعماء .

ولكن هذه الانتقادات كانت تذوب عند وقوع الأحداث الجادة ولا يلبث أن يصبح مع جمال قلباً وقالباً .



وقد تولى محجوب وزارة الخارجية في عام ١٩٥٧ ودعاني لإصدار عدد خاص عن وزارة الخارجية من جريدة أنباء السودان وصدر العدد وكان فاخراً ..... وكانت تحية طيبة من الصديق محجوب لرجل في مثل وضعي المالي وقد انتقدت جريدة الأيام تخصيص الأنباء بإصدار العدد .

ثم تولى وزارة الخارجية في حكومة اكتوبر سنة ١٩٦٤ .

ثم أسندت إليه رئاسة الوزارة عام ١٩٦٧ .

ثم أسندت إليه رئاسة الوزارة مرة أخرى عام ١٩٦٨ .

وقام برئاسة لجنة الوساطة في المشكلة اليمنية وكانت له وقفات في الأمم المتحدة بأسلوبه الرائع وبيانه الخلاب وقوميته التي لا مطعن فيها أتاحت له صداقة ومودة وتقدير معظم الدول العربية وكبار رجالها . لقد كان دائماً في مقدمة الصفوف .



وكنت أؤيد محجوب عندما كان في المعارضة ثم عدلت عن هذا التأييد في وزارته

الأخيرة لاختلاف في وجهات النظر ..... فقد كان واضح الاتجاه نحو مصر بقيادة عبد الناصر وكنت أنا ضدها في ضراوة .

ولكن علاقاتي الخاصة به كانت ناضرة كما كانت دائماً .

وحدثت من محجوب لمسة من لمساته النبيلة أثناء توليه رئاسة الوزارة ووزارة الخارجية في عام ١٩٦٨ .

فقد قابلني جمال محمد أحمد وكيل وزارة الخارجية في مكتب الأستاذ محمد توفيق مدير شركة التأمينات العامة : وقال لي أن محجوب مستعد لكي يعطيك تفرغاً كاملاً بمرتب ويعينك على طبع ذكرياتك التاريخية في بيروت باعتبارك أحد شهود الأحداث التاريخية النادرين سواء باشتراكك في لجنة الأحزاب المؤتلفة أو بتوقيعك لميثاقها أو بمسايرتك للنشاط السياسي والوطني كصحفي ما يقرب من أربعين عاماً ..... على أن تترك العمل الصحفي .

وأكد جمال : أنه حاضر اليوم لتحقيق هذا العرض فوراً .

غير أنني رغم موافقتي على العرض لم أذهب لجمال وآثرت العمل الصحفي لأنه في واقعه يمثل حياتي .... ولاتهامي محجوباً بأنه كان يريد إسكات الصوت الوحيد في السودان الذي كان يعمل ضد عبد الناصر بإصرار وعنف (رغم أن جريدتي لم تكن واسعة الانتشار) .

وذهبت عني فرصة من الفرص النادرة التي قد لا تعود .

والواقع أنني علمت من محجوب بعد ذلك مزيداً من المعلومات عن هذا العرض فقد ذكر أنه لم يتقدم به مجاملة لصديق فليس ثمة مجاملة في أموال الدولة ولكنه رأى أن متابعتي للأحداث كصحفي منذ عام ١٩٣٠ ومشاركتي في صنعها خلال عضويتي في لجنة الأحزاب المؤتلفة وتوقيعي لميثاقها قد يجعل من ذكرياتي عنها خصوصاً إذا تفرغت لها تفرغاً تاماً ، عملاً تاريخياً جيداً قد يستفاد منه .

☆ ☆ ☆

وخلال زيارة قام بها محجوب للسعودية سعيا وراء المصالحة في المشكلة اليمنية .

جلست معه في أحد قصور الضيافة في جدة وأقبل سمو الأمير سلطان بن عبد العزيز وزير الدفاع لزيارته .

وقال محجوب للأمير خلال الحديث مشيرا إليّ : إن يحي عبد القادر يهاجمني في جريدة أنباء السودان وأنا رئيس الوزراء بينما كان يؤيدني ويدافع عن سياستي أثناء وجودي في المعارضة .

ولم يعلق الأمير الأديب الكيس على الموضوع واكتفى بابتسامة واسعة وضيئة ثم انتقل إلى حديث آخر .

ولعل محجوب كان يتهم الشيخ محمد عبد الرحمن العبيكان السفير السعودي في الخرطوم بأنه كان وراء مهاجتي له ولعله رغب في أن يصل هذا الاتهام إلى آذان المسؤولين في السعودية بصورة غير رسمية .

وعندما نقل بعد قليل من ذلك التاريخ ؟ الشيخ محمد عبد الرحمن العبيكان إلى السعودية ليصبح مستشارا لجلالة الملك فيصل وأقبل الشيخ عبد الله الملحوق خلفا له كان في مقدمة الأعمال التي قام بها إقامة حفلة تكريم للسيد محمد أحمد محجوب رئيس الوزراء دعا إليها كبار الشخصيات السودانية والأجنبية في العاصمة السودانية وقد عنيت أنا بالكتابة عن هذه الحفلة الفريدة وخصصت لها صفحتين كاملتين ولعل في إقامة هذه الحفلة تعبير من جلالة الملك الفيصل عن تأييده لمحجوب وإزالة لمشاعر الشك التي كانت تراود محجوب فيما يختص سياسة السفير العبيكان حياله .

ودعاني إلى العناية بهذه الحفلة ذات المغزى رغبتي الدائمة في أن أوثق علاقة السودان بالمملكة برغم ما أحاط بإقامتها من تأويلات كانت كلها ضدي وضد الشيخ العبيكان .



وقد أصدر محجوب هو والدكتور عبد الحليم محمد كتابا بعنوان موت دنيا ملآة بالنقدات الاجتماعية والسياسية .

كما أصدر محجوب أخيرا كتابا بالإنجليزية عن الديمقراطية في الشرق الأوسط .

وقد ترجمت هذا الكتاب إلى العربية دار النهار في بيروت .

والكتاب يضع صورة حية عن النشاط السياسي والوطني الذي اشترك فيه محجوب .

ومحجوب شاعر كبير .

وقد درس طلاب الثانوية المصرية العليا قصيدته عن الأندلس التي أصدرها في كتيب بعنوان الفردوس المفقود وهي القصيدة التي نظمها في ابريل سنة ١٩٦٧ عندما وقف بين آثار العرب في اسبانيا حينما كان يمثل بلاده في مؤتمر دولي عقد هنالك فهزت ذكريات الماضي وهو يرى حضارة عربية زالت ومجدا عربيا أضيع ثم عاد فصدمته الهزيمة في حرب يونيو ١٩٦٧ وارتبطت في خلده نكبة العرب في الأندلس بنكبة العرب في فلسطين .

وجاء في القصيدة :

فردوس مجـد أضـاع الخلف روعتـه   من بعـد ماكان للإسلام عنوانا
هـذه فلسطين كادت والوغى دول   تكون أندلساً أخرى وأحزابنا

الخاتم ومبارك ويحي ومحمود

عندما قدمت من شندي إلى الخرطوم في عام ١٩٣٥ نزلت في ضيافة صديق العمر وزميل الصبا محمد عثمان محجوب .. وكان يعمل في قسم الهندسة بالسكة الحديد وكنت أصحبه في زيارات أسبوعية للأستاذ محمد الخاتم عثمان المدرس بالمدرسة الأهلية يوم ذاك .

والرجل كما عرفه المتصلون به ، ساحر الحديث عذب المحضر ، سهل المأخذ ، رحب الصدر .... فيه هذه القدرة الخارقة على امتلاك القلوب .... واصطناع الأصدقاء .

وكانت فضيلته الأولى عندي أنه كان الوحيد بين جميع معارفي الذي شجعني على مواصلة الكتابة ، ونمّى في نفسي الثقة .... وأحاطني بجو من الرحمة افتقدته في أقرب الناس إليّ .

لقد كنت أشبه بمخلوق بدائي بسيط قذفت به الأقدار إلى عالم الحضارة المعقد فاستوحش ونفر وعز عليه الأليف .... حتى إذا ماوجده بعد طول اضطراب سكن إليه سكون الطائر إلى عشه .

مبارك

وفي منزل الأستاذ الخاتم عرفت الأستاذ مبارك زروق ... عرفته في صوره المتناثرة في غرفة الاستقبال ... صور بالعمامة والجلباب وصور بالجاكتة والبنطلون .... وصور بين لدات وصور بغير لدات ... ولقد كان الشيخ الخاتم أستاذ مبارك في المدرسة وجاره في (الحلة) فرعاه وحدب عليه ... وجعله بمثابة الابن الأثير ... واحتفظ بتذكاراته حريصا عليها حفيا بها .

وقد كان مبارك في ذلك الحين يعمل في مصلحة السكة الحديد بعطبرة ... ولكنه

كان بيننا دائما ولم أصغ قط لحديث أشهى من هذه الأحاديث التي كنت أسمعها عن مبارك حتى لكنت أتمثله قبل أن تقع عليه عيني كأنه صديق لصيق بي ، لم أفترق عنه لحظة .

يحي الفضلي

وعن طريق الشيخ الخاتم عرفت يحي الفضلي وسمعت عن محمود الفضلي ... فقد كتب إلى أخيه يشكو من ضيقه بالعمل في السكة الحديد وصعوبة الحياة بمرتب لا يتجاوز الأربعة جنيهات ونصف الجنيه وتبادلنا الرأي في قصائد من شعره كان يتلوها محمد عثمان .

وتوثقت بيني وبين يحي صلة ... ورغم أن هذه الصلة لم تبلغ درجة الصداقة الجانب الخصب أعني جانب يحي ، إلا أنها دفعته لكي يدعوني أنا وابن عمتي عبد القادر مشعال (الدكتور) لقضاء (الويك اند) في داره مرارا .

حيث كنا نستمتع بهذه المائدة الغنية وبخاصة في الإفطار ، والواقع أن يحي الفضلي كان شديد الحفاوة بي في البداية .

مادة من طين

فقد كانت كتاباتي تدل على أنني مادة خام ربما استخرجت منها اليد الصناع عملا يفاد منه في المستقبل ... ولعله رغب في أن يصطفيني ويجعلني كوكبا أدور في فلكه ... فإن وقدة الطموح التي تنبعث في أعماقه أشبه بنار فارس لم يكن ليطفئها إلا حدث عظيم .

ولكنه ما كاد يتعرف عليّ عن قرب ، ويختبرني في دقة حتى تنازل ، وبهتت رغبته ، وأصبحتُ لديه مادة من طين .

لقد كنت فتى لا يحسن الكلام ، ولا يحسن المجاملة ، ولا يحسن السمر في المجالس ... ولا يحسن التوسل إلى جلب الأصدقاء ، ولا القدرة على دفع الخصوم .

كنت جلفا خشنا ، عامي الفهم إلى حد مخيف ... كل بضاعتي ذخيرة من الألفاظ والمعاني اجترها من محفوظاتي اجترارا فلا تساير الأحداث ولا تعالج المشاكل .

وكنت أخرق أُسيء أحيانا حيث أريد أن أحسن . وأتصرف التصرف الذي لا ينتظره الناس .

وأرغب في فحص كل شيء يقع عليه بصري ، وآتي بحركات لا تتفق مع الأتيكيت . ومع ذلك كله لم أكن سلس العنان ولا قابلا للترويض وكان لديَّ عناد الضعفاء ... العناد الذي يولده الشعور بالقصور أو الكبرياء المهيضة التي لا تجد مجالا للظهور . وكنت أتظاهر بالطاعة ولكنني لا أطيع ....

ولم أكن قط أثق في كلمة يقولها يحي الفضلي فقد تحدد في ذهني لكثرة ما سمعته عن دهائه وذكائه المتفوق أن همه أن يستغلني ويتخذ مني صنيعة ولو كنت أقارب قامة يحي الفضلي يوم ذاك فتجاوبت معه ... ولو كنت أطوِّع نفسي على المسايرة ... وأملك القدرة على الاندماج في القطيع ، لتغير وجه تاريخي ولكنت شيئا آخر غير ما أصبحت عليه اليوم .... فإن يحي في اعتقادي أمهر مثال في مصنع الأصنام . وساعد على تعميق الهوة بيني وبين يحي الفضلي استمراري في جريدة النيل الناطقة باسم آل المهدي .... وانصراف يحي بوجهه عن هذه الكعبة .... ثم ما ترسب في نفسي بعد ذلك من عداوة لحزب الأشقاء بحكم عملي أولا ثم بحكم العادة أخيرا ... بحيث تركزت هذه العداوة واستقرت وأصبحت عقيدة إذا تحولت عنها شعرت باجتراح المعصية وتأنيب الضمير .

من هم ؟

يحي الفضلي أسس حزب الأشقاء ، وساهم مساهمة فعالة في الحركة الوطنية منذ بدايتها ، تولى عدة وزارات في عهد حكومات ما قبل ثورة ٢٥ مايو ١٩٦٩ ، آخرها وزارة المواصلات ، وكان يلقب بالدينمو .

ومبارك زروق كان زميل يحي في النضال الوطني وكان من منشئ حزب الأشقاء وتولى وكالة الحزب الوطني الاتحادي بعد دمج الأحزاب الاتحادية في هذا الحزب .

وكان آخر منصب تولاه هو منصب وزير المالية قبل ثورة مايو وتوفي قبل قيامها .

أما الشيخ الخاتم فقد كان أحد كبار رجال التعليم وكان أستاذا وصديقا لكلا الرجلين ، وقد لعب أدوارا في الحقل الوطني كما كان يعتبر حلقة الوصل بين رئاسة الختمية والجهاز السياسي لحزب الأشقاء ثم الحزب الوطني الاتحادي بعد دمج الأحزاب الاتحادية ،

لعلاقته الطيبة بالجانبين ، ومحمد عثمان محجوب شاعر .... ولم يسهم في العمل السياسي وظل مخلصا لوظيفته الحكومية إلى أن توفاه الله .

وانتقل محمود الفضلي من العمل السياسي الذي شاطر فيه مشاطرة فعالة فترة من الزمن إلى الوظيفة الحكومية ولم يحاول أن يقوم بعد ذلك بأي دور واضح في الميدان السياسي .

الشاعر التيجاني يوسف بشير

في أواخر عام ١٩٣٥ قدمت إلى الخرطوم من شندي وكنت ظاهر السذاجة لم يزل تراب القرية عالقاً بثيابي . وما لبثت أن عملت في جريدة النيل وارتديت (بدلة) خلعها عليّ الإمام عبد الرحمن المهدي عليه رضوان الله ورحمته وهي أول (بدلة) في حياتي .

وكانت صفتي الرسمية محرراً غير أن الرئاسة كانت تضيق بي فتدفعني إلى (الاشتراكات) حيناً فأكتب العناوين ، وإلى (التصحيح) حيناً فأقطع معظم وقتي بين (البروفات) ... وذات مساء وأنا أعكف على تصحيح الجريدة وعيناي تدمعان ، والملل يأخذ بخناقي وميعاد السينما (سلواي الوحيدة في الغربة) وشيك أن يأذن ، إذ أقبل شاب شديد السمرة نحيل ، ضامر العود متوسط الطول خفيف الحركة ، ساكن الريح ، يلبس جلباباً من الدبلان ، وعمامة من (الكرب) ونعلاً من صنع أم درمان ، وسلم ثم جلس وأراد أن يشقق الأحاديث ويعرفني بشخصه ... ولكني كنت في حالة لا تعين على الاستماع ، فمضيت أنهي ما أمامي من بروفات في سرعة محمومة أمر بنظري على سطر لأتجاوز أسطراً ... وسرعان ما وجدت نفسي في عرض الطريق ... ولم أذكر ذلك الشاب إلا وأنا داخل (سينما كلزيوم) ومضى أسبوع كامل وإذا بالشاب يعود مرة أخرى ، وأعرف أنني إزاء التيجاني يوسف بشير الشاعر ولم أعتذر عما فعلت ، فقد كنت أقل الناس رعاية للآداب لا لسوء طبيعي في خلقي وإنما لأن سلطان الخجل كان يلجم لساني ويحيلني إلى حمار لا يفقد غير الرسن كما كان يزعم الأستاذ أحمد يوسف هاشم ، وكثرت لقاءاتي بالتيجاني ونمت بيننا صلة وثيقة ، وكانت الظروف كلها مهيأة لكي نرتقي بهذه الصلة إلى ذروة الصداقة الملحة الحمية لولا حاجز رهيب وقف بيني وبينه وكان ذلك الحاجز ذا وجهين الأول إن التيجاني لم يكن يحترمني ككاتب ، وكثيراً ما استهان بما أكتب واعتبره مجرد ثرثرة تملأ فراغ الصحف وكثيراً ما يصدر من فمه أصواتاً منكرة يصور بها في سخرية عبارات كنت أكثر من تردادها ... ثم يقول : يا أخي ما تقيف ... وأقسى ما في الأمر

أنني كنت أصدقه بيني وبين نفسي فإن وجودي في وسط يضم محمد أحمد محجوب والدكتور حليم ويحي الفضلي ويوسف التني وعرفان ومحمد عشري الصديق أولئك العمالقة كان يجسم أمامي سطحيتي وتفاهة موضوعاتي وعدم تنظيم تفكيري ويشعرني بالضآلة والضياع في هذا الخضم العريض .

أما الوجه الثاني من ذلك الحاجز فهو عبقرية التيجاني فقد كنت أحس بأنني قزم أمام عملاق ، دون أن أحاول مجرد محاولة ، الاعتراف بهذه الحقيقة لقد كان في عرفي زميل وكان يعاملني بهذه الصفة ، وكان كلانا يمسك القلم ، وكنا في عمر متقارب ، وكنا نتبادل أسرار الشباب ، ونجري في مضماره ، غير أنه يحلق في سماء لا أملك لها أجنحة وكان الشعور بهذا النقص يفترسني في قسوة ، ولم يحدث قط أن مدحت إنتاج التيجاني في محضره أو مغيبه ولم أرض قط عمن يمدح هذا الإنتاج ، وما أكثرهم بل وكنت غالباً ما أبسط لساني فأعيب مقالاته التي كان ينشرها في (النيل) لأنها تعتمد على الفواصل ، كالشعر ، ولا تتصل بواقع الناس ، ولا تعالج مشاكلهم الحاضرة .

الغريزة الملعونة

وأذكر أن التيجاني دعاني لزيارته في أم درمان فذهبت حيث قابلت والده وهو شيخ مهيب يحسن الظن بي ، ووجدت نفسي في دار تكاد تتداعى وغرفة خالية من الأثاث ، وليس في الفقر من عار ، ولكنني خرجت وأنا أحمل لهذا التواضع في الحياة ما يشبه التشفي والشماتة .

محمد عبد الوهاب

وصحبني التيجاني إلى الأستاذ محمد عبد الوهاب القاضي وهو شاعر وكاتب كان قد اتسع له ذكر وتناولنا طعام الغذاء معاً ... وكان محمد واضح الأستاذية علينا وكنت ـ وأنا غير المحدث الماهر ـ أنزوي في مجلسي استخذاء ، وزميلاي يشتدان في الجدل ويغوصان في المعاني الدقاق . وكثرت اجتماعاتنا فيما بعد وكانا حفيين بي غير أن العجز عن مجاراتهما كان يبعدني عنهما كلما ازدادا اقتراباً .

نفثات اليراع

ووجدت التيجاني يوماً منهكاً ومنهمكاً في تصحيح كتاب (نفثات اليراع) المنسوب للأستاذ محمد عبد الرحيم فقال لي في حرارة أنني في الواقع مؤلف معظم فصول هذا الكتاب ، بل إن الفصول القليلة التي كتبها محمد عبد الرحيم اضطررت لإعادة صياغتها حتى تتمشى مع أسلوب الكتاب العام . ومضى فقال : وهذه القصيدة التي ذيلها محمد عبد الرحيم بتوقيعه ووجهها للسيد عبد الرحمن المهدي وجعلها في مقدمة الكتاب ، إنما هي من نظمي لقد كان يحق أن يحمل هذا الكتاب اسمي لا اسمه ... وأضاف ولكن حرصي على الثلاثة جنيهات الشهرية التي يستخدمني بها محمد عبد الرحيم هي التي تقسرني على قبول هذا الضيم وكان التيجاني حزيناً ومنفعلاً وضيق الصدر ، وجلسنا أنا والتيجاني في الجانب الخلفي من مكتبه النهضة على أريكة خشبية حيث كانت توجد ماكينة طباعة تدار باليد ، وكان التيجاني يصلح ويوضب مجلة أم درمان التي يصدرها محمد عبد الرحيم ، وكان الوقت أصيلاً وكانت أضواء خافتة صفراء تتسلل داخل المكان شبه المعتم من منفذ ما ، وكانت الحمى تسري في بدن التيجاني ويده ترتعش ، وهو ممسك بالقلم وشفتاه جافتان وفي جبينه التماع ، وعمامته منسدلة على كتفيه ، وقد خلا رأسه من الطاقية وبدت وفرة من الشعر في مقدمة رأسه ... وقال لي كالمتهكم : إنني لا أستطيع أن أستريح رغم مرضي لأن عبء المجلة كله يقع على عاتقي حتى هذه القصائد التي ننشرها تحت توقيع أحمد ، هي من نظمي رغبة في التنويع ، إن محمد عبد الرحيم لا يحرر في هذه المجلة إلا تلفيقاته التاريخية ، وكلها أخطاء ولكن من يقول البغلة في الإبريق ؟

والظاهرة التي لاحظتها في التيجاني أنه كان حريصاً على الغض من أعمال الآخرين ، ولم أر التيجاني بعد ذلك إلا خلال محاضرة كان يلقيها مبشر مسيحي في مكتبة للتبشير بأم درمان كان يديرها الأستاذ (المبارك إبراهيم) قبل أن يعتنق الإسلام ، وقد شدهت حين لاحظت أن التيجاني أصبح مجموعة من العظام لشدة ضعفه وهزاله ... وأخذت أسأله عن حاله فانصرف بوجهه ، كأنه كان غاضباً على إهمالي له . ومضيت لسبيلي دون أن أصافحه وقال لي (المبارك إبراهيم) أنه كان يتجنب الحديث لبحة أصابت صوته لقد كان يخشى من سوء ظن أصدقائه بصحته .

المبارك يضحك

وفيا كنت أزاول عملي في جريدة النيل في الصباح إذا بالتليفون يطلبني وكان المتكلم هو المبارك إبراهيم وقال لي المبارك وهو يضحك (التيجاني جاء الاستبالية وقد وجد مصاباً بداء الصدر في درجاته الأخيرة) وقال أنه وصّى به الطبيب ... ولكن ما فيش فائدة وكان المبارك يعمل كاتباً في مستشفى الإرسالية الإنجليزية ... وكان واجبي أن أذهب فأزور التيجاني ولكني لم أفعل فقد كان داء الصدر في ذلك الحين غولاً مخيفاً عند الناس ، فهل كان امتناعي إشفاقاً من العدوى ... لا أدري ... وشكا لي المبارك أن كثيرين كانوا يضيقون بالتيجاني عندما يحضر مجتمعاتهم وإن التيجاني نفسه كان يحس بهذا الضيق ولا يبالي بل كان يبالغ في التصاقه بالناس ووصفه بأنه أصبح يحسد أصدقاءه الأصحاء على صحتهم ويتمنى أن يصيبهم ما أصابه ... وعاب هذه الخصلة في التيجاني في صراحة مما جعلني أحار في الدافع من وراء هذه الحملة ؟ لقد كنت أعرف في التيجاني الرغبة في الانعزال عن الناس فهل غيّره المرض ؟ وأخيراً علمت أن التيجاني قد أخلد إلى داره ولم يعد يزايلها إلى أن لحق بالرفيق الأعلى مبكياً على شبابه وعبقريته .

السبب

وقد علمت فيما بعد أن السبب في استشراء الداء بصدر التيجاني يرجع إلى عزوفه عن الذهاب إلى الطبيب في البداية استهانة بالمرض الذي لم يعرف عنه شيئاً وبالتالي لم يعرف خطورته ، وعندما تطور المرض كان يخشى من اكتشاف الحقيقة فيسوف ويماطل في الذهاب إلى الطبيب رغم نصح النصحاء ، وعندما اضطر للذهاب كان السيف قد سبق العزل ، ولم يبق الكثير لكي يعمل .

وما كاد خبر وفاته ينتشر بين الناس حتى بدا الأسى على وجوه عامة المثقفين ، وحتى أخذت الصحف تذكر محاسن شعره وما امتاز به من جودة وإبداع .

وجرد الأدباء أقلامهم ونظم الشعراء قوافيهم .

وكتبت يوم ذاك في جريدة النيل نقداً لاذعاً وأكدت في هذه المقالة بأن هذا الشاعر المبدع لو لقي من كل هؤلاء المتباكين المتفجعين ما يعينه على العيش الكريم لكان وضعه

يختلف عما آل إليه الحـال إن داء الصـدر الـذي أصـاب التيجـاني كان نتيجـة مبـاشرة لسوء التغذية وعدم توفر العناية الطبية .

وقد عبر التيجاني عن الطور الأخير من موضعه كما عبر عن مأساة أصدقائه في قصيـدة تعد من عيون الشعر العربي بعث بها إلى الصـديق الوحيـد الـذي وفى لـه خلال محنتـه وهو الشاعر محمود أنيس وكان موظفاً في تلغراف السكة الحديـد في الخرطوم . قـال التيجـاني من هذه القصيدة يشير إلى أصدقائه .

غمرتني نعمى يـــديـــك على حين	تجنت على هـــواي الرفـــــاق
خرجـوا ســالمين منـــه بحمـــد الله	في زروة عـــلاهـــــا النفـــــاق
مـــــــا على القلب منهم وبحسبي	صـــاحب مـلء روحـــه الإشفـــاق
فـاحتفظهـا ذكرى فـإن مت فـاقرأ	بينهـــا الـود مـــا عليـــه مـــذاق
أو حيينـــا فســوف نقرأ فيهـــا فترة	لا أعـــــادهـــــــا الخـــــلاق

ومسألـة يهمني أن أنوه بهـا وهي أن الـذين كتبوا عن الشـاعر لم يكونوا يعرفونـه ... معظمهم حـاولـوا استنطـاق شعره لكي يتعرفـوا على دقـائـق حيـاتـه وأسرارهـا وسلـوكـه الشخصي ... وهو أمر لم يكونوا فيه على صواب .

إن شعر التيجاني لا يصور حياته تصويراً أميناً .

إن واجب دارسي هذا الشاعر الفذ الـذي لم يتلق غير تعليم ديني محـدود ، وخرج من المعهـد الـديني متهماً بـالإلحـاد دون أن يستـوفي دراستـه ، ثم سطـع كما تسطـع الجـوهرة بين الأدران ... واجب دارسي هـذا الشـاعر ـ وهو ظـاهرة إنسـانيـة فريـدة ـ أن يتعمقوا حتى يصلوا إلى الحقائق ... والحقائق المجردة ولا تشغلهم عن هذا التعمق المثـاليـات التي يبـدعهـا شعره .

أحمد عثمان القاضي

الصلة التي كانت تربطني بالصحفي الكبير المرحوم أحمد عثمان القاضي رئيس تحرير حضارة السودان في الثلاثينات جد وثيقة فقد كان من أبناء منطقتنا (شندي) .. وكان زميلاً لوالدي في كلية غردون وصديقاً حميماً له .. وقد قابلته للمرة الأولى في عام ١٩٣٣ عندما نزل ضيفاً على المرحوم عبد الله حسن حسين .. وهو جار لنا ، ولاحظت يوم ذاك أنه ظل مسيطراً سيطرة كاملة على المجلس ... وقد كان معظم الحديث يدور حول شخصه وأعماله وما قدمه من خدمات وصلته بالأمير عمر طوسون الخ ... واذكر من حديثه أن قال عن أحد الذين كانوا من أصدقائه ثم خانوه إنه لم يفعل شيئاً غير أن أطال له الحبل ليشنق نفسه ، وكان حريصاً على الحديث باللغة العربية الفصحى إلا (فلتات) وكان جيداً في نطقها واختيار ألفاظها ...

قادراً على تركيز ذهنه وربط معانيه ... وكانت روح السخرية تتخلل أقواله ... ، وكان غمّازة نقّادة ... يجرح حتى تسيل الدماء ... لا يرحم خصومه شديد الوطأة عليهم .. يبالغ في التنديد بكل تصرف من تصرفاتهم ... حتى لكأنهم والصواب نقيضان لا يلتقيان ...

وقد لاحظت أنه يرتاح للثناء والتمجيد كأنه (يقتات به) بل إنه كان ينتظره ، فإذا لم يجده دفع إليه ، فإذا لم يجده أيضاً بان الاستياء على وجهه واضحاً لاخفاء فيه .

وخرجت من لدن أحمد عثمان القاضي وأنا مضطرب النفس ... فغروره البالغ وحرمانه جلساءه من المشاركة في الحديث ، وتطاوله المفرط على غيره من الناس ... كل ذلك نزع من خاطري في عنف ، الصور التي زينتها مخيلتي عنه في الماضي ، وصدمني صدمة شديدة هزت كياني ، وزعزعت ثقتي في القيم التي تقوم عليها الشهرة ؟ وطيلة أيام لم أفرغ

من النقاش مع الآخرين عما شهدته وسمعته في مجلس أحمد عثمان القاضي .. لقد أحدث في الماء الراكد هزة ولدت أمواجاً مرتفعة في تلك القرية الهادئة (شندي) .

وكان الشيخ القاضي وهو رئيس تحرير جريدة حضارة السودان الناطقة باسم حكومة السودان والسيدين الجليلين يتمتع بنفوذ رسمي وغير رسمي ، واسع النطاق ، ولم يكن يستغل جل هذا النفوذ (وكدت أقول كله) إلا في شيء واحد وهو أن يظفر بالمزيد من الوقود لشعلة الغرور التي تضطرم بها نفسه ....

وشجعني أحمد عثمان القاضي خلال الأعوام ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ لكي أكتب في الحضارة ، ولم أتوقف عن الكتابة إلا في أواخر عام ١٩٣٥ حينما وفدت إلى الخرطوم واشتركت في تحرير جريدة النيل ، غير أن علاقتي بالشيخ أحمد ظلت نامية ، فكنت أزوره يومياً في مكتبه الذي يشغله الآن الأستاذ علي محمد إبراهيم المحامي في عمارة وقف عبد المنعم محمد لكي استمع إلى هذا السيل الذي لا ينقطع من أحاديثه ولكي أشرب القهوة ...

ومما ذكره لي في ذلك الحين أنه لا يعرف عد أحذيته ، ولا قطع ملابسه ... وإن خادماً ما سرق حذاء له فلم يفتقده إلى أن قبض عليه البوليس صدفة واعترف بما اقترف .

ولم أكن أشبع من مجلسه ، أستطيع أن أقول من غير تحفظ إنه أبرع محدث قابلته في حياتي ... وإن لسانه الذرب القاطع واستعاراته الرائعة الدالة على منتهى الفطنة والذكاء وألفاظه المشرقة التي يتناولها طيعة من معين لا ينضب وتلمسه النواحي التي تهم كل الناس ...وإذا كنت أقول ما تقدم فإن هذا الوصف لا ينطبق على كتاباته اطلاقاً فهي طويلة مملة ... فاترة مملؤة بالاستطرادات لا عمق فيها ، ولا تسلسل ، ولا إشراق ولا أصالة ... وقل من يتحمل عبء قراءتها حتى النهاية وقد حمل الأستاذ أحمد يوسف هاشم في جريدة النيل على حضارة السودان ، ووصفها بأنها عبء على دافع الضرائب ، وإنها لا تخدم غرضاً لا تخدمه الصحف الأخرى .. وعنون المقال بصورة أصبح منذرة وقد أوعزت بكتابة هذا المقال أكثر من جهة .. ورد الشيخ أحمد عثمان القاضي في الصفحة الثانية العمود الثاني من الحضارة رداً باهتاً ضعيفاً مهتزا وجّه فيه جل الخطاب إلى صورة الأصبع .. وكان مقال النيل وبعض المقالات الأخرى سبباً في إيقاف هذه الجريدة الحكومية التي أحتلت مركز الصدارة ردحاً من الزمن ... وختم الشيخ أحمد عثمان القاضي

حياته العملية بالانضمام إلى مكتب الاتصام العام التابع لمصلحة السكرتير الإداري وكان هو وادوارد عطية وميشيل عيساوي يتولون الاشراف على شؤون الصحف ومسائل أخرى ... وقد فجع أحمد عثمان القاضي في أواخر حياته بمقتل ابنه الوحيد عندما انقلب به موتورسايكل في طريق الشجرة ـ الخرطوم مما هز كيانه وأثر عليه تأثيراً مروعاً .

رجل أم شخص ؟؟

وقد ألقى المرحوم الشيخ أحمد عثمان القاضي محاضرة عن الطرق الصوفية في نادي الخريجين في الخرطوم في أول الأربعينات وغضب الختمية لبعض الوخزات التي جاءت في تلك المحاضرة ضدهم وقد حملوا عليه حملات شعواء في مجالسهم وحلقاتهم ومحال أعمالهم وهددوه بالقتل والإيذاء ورشقوا السكاكين في باب داره بأم درمان .

وطلب إليه بعض أصدقائه أن ينتقل من منزله بأم درمان إلى منزل بالخرطوم كان يملكه .... فأبى ... وقال أن الجعليين لم يزالوا يتحملون عار فرار الملك نمر ، من شندي حتى أصبح يضرب به المثل ، فهل تريدونهم أن يتحملوا مرة أخرى عار فرار أحمد عثمان القاضي من أم درمان .. والله لا أوافق أبداً ... وذات مساء حينما كان الشيخ أحمد عثمان والشيخ أبو شامة عبد المحمود يخرجان من منزل الشيخ أحمد أبو دقن شيخ المعهد العلمي هجم رجل كان متربصاً في (الخور) على الشيخ أحمد عثمان واعتدى عليه بالضرب وقد قضيا وقتاً ... وهما يتدحرجان على الأرض ثم يسقطان في أخدود .. وقبض على الرجل .. وحوكم واحتفل به الختمية احتفالات كبيرة عند خروجه من السجن بوصفه بطلاً ورأيت بوصفي مراسلاً للأهرام أن أرسل الخبر للجريدة فكتبت « كمن رجل للشيخ أحمد عثمان الخ الخ » وذهبت بما كتبت إلى مكتب الاتصال العام لإجازته والختم عليه قبل الإبراق به للأهرام إذ كانت الحرب مشتعلة والرقابة مفروضة على الصحف والمكاتبات الخارجية .

وكان يشرف على أعمال الصحافة الثالوث أحمد عثمان القاضي وادوارد عطية وميشيل عيساوي ... وكان الأخير هو المسئول عن الرقابة على الصحف ... فلما تسلم صورة برقية الأهرام رأى من باب اللياقة أن يطلع الشيخ أحمد عثمان على ما كتبت عن الحادث وذهبنا إليه في مكتبه وثار الشيخ ثورة مضرية عندما وقع نظره على ما جاء بالبرقية وقال : ـ

يجب أن تحذف أولاً كلمة رجل من هذه البرقيـة لأن المعتـدي عليّ لم يتصرف تصرف الرجال ، لقد هاجمني بطريقة غادرة وكمن في الظلام كما يكمن اللصوص .... وحاول ميشيل عيساوي كما حاولت اقناعـه بـأنـه لا يملـك لا هو ولا مكتب الاتصـال أن يغيرًا من ألفـاظ البرقية ، مادام ليس فيها ما يمس الحرب ... ولا السياسة الداخلية ، وأصر الشيخ وبـالغ في الإصرار حتى كاد هو وميشيل يتعـاركان وقـد تبـادلا فعـلاً بعض العبـارات الجـافـة وأخيراً اهتدى الشيخ إلى مخرج فطلب إلينا أن نغيّر كلمة رجل بشخص ففعلنا ومرت البرقية ؟؟

ادوارد عطية

ادوارد عطية اسم كان لـه رنين خـاص في السودان خلال الثلاثينيـات والأربعينيـات كان يعمـل مسـاعـدا للمستر بني مـدير المخـابرات صـاحب النفـوذ المعلن والخفي ، وكان الكثيرون يتقربون إلى مستر ادوارد رغبة أو رهبة .

فقد كانت لكلمته في مصائر الأشخاص رفعا وخفضا أثر كبير .

غير أن مستر ادوارد لم يكن بـالرجل الرديء الخلق الـذي يستغل مركـزه في الإسـاءة إلى الآخرين أو النيل منهم ، أو جلب منفعة شخصية أو تحقيق غرض خاص ولذلـك لم تحم حوله كراهية سوداء كالتي كانت تحوم حول أصحاب أمثال منصبه عادة .

سياسته :

وكان مخلصا للبريطانيين ينفذ سياستهم في دقة وأمانة .

وكان يفعل ذلك بوصفه رجلا منهم ، فهو يحمل الجنسيـة الانجليزيـة بـالإضـافـة إلى ثقافته الانجليزية وزوجته الانجليزية وبيئته الانجليزية .....

وكانت هـذه السيـاسـة تقتضي إيجـاد جو من التفـاهم بين المثقفين السـودانيين والحكام والبريطانيين .

صلات :

وقـد عقـد صلات صـادقـة وثيقـة مع بعض (الشـلـل) وأخـذ يـواصـل الاجتماع بها وتغذيتها بالآراء وقـد امتـدت صلاتـه إلى بعض المبرزين من طلبـة المـدارس العـاليـة وكان يتيح لأولئـك الـذين حسن اتجـاههم وتفكيرهم في نظره مقـابلات دوريـة مع سيردوجلاس نيوبولد السكرتير الإداري آنـذاك وقـد وفقت خطتـه في ربـط عـدد من السودانيين الـذين

لعبوا دورا خطيرا في تاريخ السودان بالبريطانيين وكان مع استقلال السودان بكل جوارحه وأذكر عند زيارة رفعت على ماهر باشا خلال الحرب للسودان كيف كان يلهث في المطار وهو يطوف والعرق يتصبب من جميع جسمه ، وقد لبس برنيطة بيضاء وكان يعمل بالتعاون مع سلطات الأمن على تضييق نطاق الاستقبال ومنع الجماهير من التسرب إليه ، وأذكر اشتداد غضبه حينما اخترق أحد تجار أم درمان وهو الشيخ عمر دفع الله ، النطاق ومضى ليصافح (الباشا) وكيف أنه (أي ادوارد) فقد أعصابه ورمى بالبرنيطة إلى الأرض ... لقد كان الرجل صبورا ولكن الضغط عليه على ما يبدو كان شديدا ، فلم يستطع الاحتمال .

حنين :

وإقامة ادوارد عطية وأبيه من قبله في السودان وامتداد صداقاته إلى أعماق بعيدة أثرت على نفسه ، فظل وثيق الصلة بهذه البلاد عند إحالته للمعاش واستيطانه انجلترا ... كما ظل دائم الحنين إليها ، ولا يفرط في لقاء أحد من معارفه إذا زار انجلترا أو مر بها ... وقد زار الخرطوم مرارا ، وكان ينزل في ضيافة السيد محمد الخليفة شريف .

الإنتاج :

وقد قال لي المرحوم السيد عبد الله ميرغني أن الشيء الذي عجبت له أن إنتاج ادوارد عطية عن السودان لم يكن غزيرا ولا جيدا .....

وقد كانت في يديه أسرار الدولة وأسرار الأفراد وغيرها من الحقائق التاريخية في فترة من أهم وأخطر فترات السودان فما هو السبب يا ترى ؟ وهو كاتب مجيد .

لعل مرجع ذلك إلى دقة شعوره بمسؤوليته كموظف فإن الأسرار والحقائق التي وقف عليها لم تصل إليه إلا بحكم مركزه ، سواء ما كان منها رسميا أو غير رسمي .

اللغة الفرنسية :

وكان ادوارد عطية فوق إلمامه بالعربية وإجادته للانجليزية يتقن الفرنسية وقد تولى الترجمة بين الصحفيين والامبراطور هيلاسلاسي قبل تحركه نحو الحدود السودانية لقيادة القوات الأثيوبية ضد الإيطاليين في أواخر الحرب الماضية .

وقد لاحظت أثناء المؤتمر الصحفي الذي حضرته بوصفي مندوبا عن النيل والأهرام ، أنه كان يمنع الامبراطور من الإدلاء ببعض التصريحات لأنها لا تتفق مع سرية التحركات العسكرية كما كان يمنع بعض الصحفيين من توجيه بعض الأسئلة لأنها تحرج الامبراطور أو لا تناسب الظروف .

اللغة العربية :

ولم يكن ادوارد عطية رغم معرفته باللغة العربية كتابة وحديثا (وهو الرجل اللبناني أبا عن جد) طلقا في هذه اللغة ولذلك هو يفكر كما كان يقول باللغة الانجليزية ثم يترجم تفكيره إلى العربية إذا أراد أن يتحدث أو يكتب بهذه اللغة .

وقد شهدته يحاضر بالعربية في نادي الخريجين عن فن الحياة ..... فلم أعرف فيه عربيا يتكلم العربية وإن كان لم يبلغ حدا يقال فيه أنه أشبه بالانجليزي الذي يتكلم العربية .

لقد كانت عاميته العربية جيدة ولكن فصحاه العربية لم تكن جيدة وإن كانت مقبولة إذا عُني بها وصقلها وأعطاها بعض وقته .

وكان سلوك ادوارد الشخصي سلوكا ممتازا فلم تعلق به شائبة أو يخدش سمعته أذى .

وكان والدا عطوفا بأولاده وقد خصص نصف دخله ودخل زوجته لتعليمهم في انجلترا .....

ترى هل ترك ادوارد عطية في مخلفاته الكتابية أثرا عن السودان يرد به للسودان بعض حقوقه إن صح أن للسودان عليه حقوقا ؟؟ .



كان والد ادوارد طبيبا يعمل في أم درمان وكان يسمى الدكتور سليمان عطية ، وكان من بين المهتمين بالرياضة وكون فريقا للكرة أسمي فريق الصياع .

وقد ولد ادوارد في لبنان عام ١٩٠٣ وتلقى العلم في كلية فكتوريا بالاسكندرية

وهي مدرسة (انجليزية) ثانوية عليا تخرج فيها بعض كبار الزعماء العرب وانتقل منها إلى كلية براسينوز بجامعة اكسفورد حيث تخصص في التاريخ وقد عمل عند تخرجه محاضراً في كلية غردون التذكارية ، ثم عين بعد ذلك في مكتب الاتصال العام بمصلحة السكرتير الإداري وغادر السودان في عام ١٩٤٥ بعد أن أحيل إلى المعاش وكان عم ادوارد وهو المستر صمويل عطية ضابطا للمخابرات في السودان ثم في مصر .

وقد افتتح ادوارد مكتب في لندن سمي بالمكتب العربي لتزويد الرأي العام البريطاني بالحقائق عن البلاد العربية وعرض وجهة نظر العرب وخاصة في مسألة فلسطين . وأغلق المكتب في عام ١٩٤٩ واتجه ادوارد للتأليف وقد أصدر كتابا باسم (العرب) ترجمه للعربية محمد قنديل البقلي وراجعه محمد مأمون بحر .

وقد انتقد الكتاب لأن المؤلف جعل العرب واليهود ينحدرون من أصل واحد .

المنتقم

لأول مرة :

عرفت الأستاذ (............) ـ شخصيا ـ لأول مرة في عام ١٩٢٨ حينما كنت أتردد على قسم التجارب في مدني ـ وكان هو موظفا صغيرا به ...... يلبس نظارات كبيرة لا تتلاءم مع جسمه النحيل وكان يشجعني بإقراضي بعض الكتب ، وكان ظاهر الأستاذية عليّ وعلى بعض من يتصلون به من صغار الموظفين والطلبة .

وضرب الدهر ضرباته ..... وتركت مدني ...... ولم أعد أعرف عن (.............) شيئا إلى أن كان عام ١٩٤٤ حيث كنت أقرأ بين الحين والحين صحيفة يسارية تصدر في القاهرة يشرف على تحريرها (.............) ولم أصل بين هذا الإسم والشخص الذي كنت أعرفه في الماضي إلا مؤخرا واذكر عن تلك الصحيفة إنها لم تكن عملا صحفيا جيدا بغض النظر عن المبادئ التي تدعو لها .

واحة

وفي عام ١٩٤٥ قصدت ذات مساء إلى مكتبي في جريدة النيل وكانت الجريدة تشغل الطابق الأعلى من عمارة (مدني يحي) التي بنيت على أرضها (دار الصحف الاستقلالية الحالية) وعرجت ومعي آخرون قبل صعودي السلم على غرفة كان يسكنها في الطابق الأرضي (........) وكان قد وفد من القاهرة إلى الخرطوم يلتمس من السيد عبد الله الفاضل المهدي عملا كان موعودا به ...... وكان (......) أشبه بالواحة نتزود من فكاهاته الحلوة ودعاباته اللطيفة ..... بما يعيننا على تحمل جفاف العمل في الجريدة .

المرة الثانية

ولاحظت عندما دخلت الغرفة أن الكرسيين اللذين كانا بها قد تلاصقا ... وإن شخصا قد استعملها كسرير وهو مستغرق في نوم عميق .

وتعجبت من أن يجد النوم سبيله إلى عيني شخص ، وهو في هذا الوضع غير المريح وأبديت هذه الملاحظة لـ (.........) بصوت خافت .... فقال لي وهو ينهض من سريره : ـ (يا سيدي ده من السودانيين اللي عاشوا في مصر ... مش ينوم على كرسيين .. ده ممكن ينوم على حبل ... يا أخي ده كنا بنلجأ للجوامع ـ عشان ننوم في أرضيتها ويطردونا منها) .

وعرفت من (.......) إن الشخص النائم هو (......) ... وإنه استطاع التسلل من القطر المصري إلى السودان خفية ، بعد أن صدر أمر من حكومة صدقي بالقبض عليه لاتهامه بالشيوعية ......

اندماج

وقال إنه استطاع الهرب بارتداء ملابس الخدم النوبيين وأنه اندمج بينهم فلم يشك أحد في أنه أحدهم .

واستيقظ (.......) فصافحته ... وكان واضح الضيق والسأم .

وكان (.......) الضيف بعد ذلك واضح التحامل على مصر والحياة في مصر ... ولعله كان يريد بذلك أن تصل هذه الانتقادات آنذاك إلى جماعة حزب الأمة فيبلغ من أنفسهم مبلغ الرضى ويظفر بما كان يود من منصب وجاه .

نفاق

وبعد بضعة أيام قابلته مرة أخرى في مأدبة غذاء أقامها السيد عبد الله الفاضل المهدي وكان (....) يتحدث عن مذكرة قدمها للأحزاب بغية التوفيق بينها وقد نشرتها جريدة النيل . وقد لاحظت أنه كان يحاول جهد طاقته التقرب إلى السيد عبد الله الفاضل ... والوصول إلى مرضاته وكانت وسيلته للتقرب جديدة على الوسط السوداني .. إذ كان يبدي نفاقا كثيرا متلاحقا .. يكاد يكتم الأنفاس ولا شك أن السيد عبد الله على سعة صدره وفرط مجاملته قد ضاق به وعافه .....

مرمطة

وانقضت فترة غير قصيرة لم أر فيها (.......) وذات مساء ذهبت لكي أقابل السيد

عبـد الرحمن المهـدي في سرايـة في الخرطـوم ... فـوجـدت (.........) يجلس إلى مكتب الأستاذ زين العابدين إبراهيم بلال سكرتير السيد .. وكان جامـد الأسـارير كثير الصمت .. وتحرك (......) كأنه يريد الخروج ثم عـاد ..... مترددا ثم لم يلبث بعـد هنيهـة أن انطلق منصرفا في حركة ثورية دون أن يودع زين فتبعته وسرنـا راجلين واتخـذنـا شـارع غردون (الجامعة الآن) ومضينا دون أن يدور بيننا حديث يذكر ....

انتقام

وعندما اقتربنا من البوسته وقفنا فبدأ (......) الحديث قائلا :

تصـور منـذ أيـام أحـاول مقـابلـة السيـد عبـد الرحمن ولا أستطيـع ..... دي مرمطة .... إنهم يريدون إذلالي ..... ولكنني رجل قوي ما خلق من يذلني .

ودفع يده في حركة مسرحية وأنفاسه تتصاعد ونفسه جيـاشـة بـالانفعـالات وجسمـه ينتفض وقال بصوت أجش مفعم تقطر منه المرارة :

سأنتقم من حزب الأمة ورجاله . وسوف يدفعون ثمنا غاليـا ... وحـاولت أن أذكره بأن السيد عبد الرحمن رجل نبيل ذو مروءة وإنه لو صبر على أذى الأتبـاع قليلا لظفر من سيادته بالعون الذي يحتاجه .. ولكنه لم يتراجع وتركني ومضى في خطى سريعة لعلـه أراد بها تهدئة الثورة التي تجتاح كيـانـه .. وكان لـ (........) مـا أراد ، فـانضم بعـد ذلـك إلى الكتلة المناوئة لحزب الأمـة ، وكان من أعنف خصومهم .... وذهب إلى السجن وأطلق على نفسه لقب المجاهد الكبير .... كان يكتب هذا اللقب بخطه على رأس مقالاته وبذل وضحى غير أنه لم يلاقي ما يستحق من تقـدير في الـداخل ، وقـد عـاد (.......) أخيرا (للمهنـة) التي عزف عنها في عهد الإستعمار .. وخيرا فعل بالالتجاء إلى الشعب السوداني ...

زعيم

مصر الفتاة

في عام ١٩٤٠ كان هتلر وموسليني يملآن الأرض بدعاويهما الطويلة العريضة ، ويهزانها بجيوشهما الضخمة المكتملة التسليح ، وكان أحمد حسين زعيم مصر الفتاة يتشبه بالرجلين في كل أعمالهما (والقياس هنا مع الفارق طبعا) .

كان له حزب شبه عسكري يسمى مصر الفتاة على طراز النازي في ألمانيا والفاشية في إيطاليا يقلدهما في تدريباته وقمصانه الملونة واليد المرفوعة وتهويلاته روعة أو ترويعا .

ورغم أن أحمد حسين لم يكن يساوي من الناحية الشعبية في مصر كثيرا إلا أن تشبهه بهتلر وموسليني (قدس الزمن) جعل له بعض المهابة وبعض الاعتبار .

ولم تنحصر المهابة والاعتبار في مصر وحدها بل انتقلت كالعادة إلى السودان أيضا .

ولذلك لم يكد أحمد حسين يعلن أنه يريد زيارة السودان ثم يقرن قوله بعد حين بالنفاذ حتى جرت استعدادات شعبية لاستقباله والحفاوة به واستعدادات رسمية لمراقبته وإحصاء حركاته وسكناته .

الفتنة :

ووصل الخرطوم فاستقبل استقبال الفاتحين وأفسح له المجال لكي يلقي في مختلف الأندية خطبا نارية بصوته الأجش غير المثير .

وبحثت بيني وبين نفسي وبحث آخرون عن الفتنة والتأثير في حديثه فلم أجد ولم يجدوا لقد كان شخصا عاديا أوتي القدرة على التهريج .....

زميل :

وكان المرحوم أحمد يوسف هاشم على صلة سابقة به في مصر . فلازمه منذ اللحظة

الأولى التي وضع قدمه فيها في الخرطوم أو بالأصح منذ اللحظة التي وصل فيها القطار إلى الخرطوم بحري إذ استقبله هناك وظل لاصقا به حتى عودته إلى بلاده .

النادي النوبي :

ودعت الأندية الزعيم المصري الشاب لإلقاء محاضرات في دورها ومن بين الأندية التي دعته النادي النوبي في الخرطوم وقد قبل دعوة لكل الأندية بما في ذلك دعوة النادي النوبي وحدد ميعادا . وكان النادي النوبي يوم ذاك حديث النشأة وكان بعض النوبيين الذين لم يجدوا بين أعضائه رواجا أو كان لهم رواج في نادي الخريجين بالخرطوم يضيقون به ، ويتهمون أعضائه بالعنصرية ويصلون بينه وبين الإنجليز ، ويرون فيه إحدى وسائل التفرقة بين أبناء البلد الواحد ، وكان بعض غير النوبيين يضيقون به كذلك زاعمين أن في وجوده تشتيتا لوحدة الخريجين .

ويبدو أن أشخاصا معينين عرفناهم بأسمائهم مؤخرا ـ لم يعجبهم أن يقبل أحمد حسين دعوة النادي النوبي ـ سعوا لديه حتى أقنعوه بعدم تلبيتها ، مستعينين في ذلك بالمعاني الكبيرة التي يؤمن بها الرجل ، مستعملين كلمات الاستعمار وأذناب الاستعمار وحركات الاستعمار التخريبية ، وسياسة فرق تسد الإنجليزية الخ .....

ولم يكن أعضاء النادي النوبي وأصدقاؤهم على علم بهذه التطورات فاحتشدوا قبل الساعة الثامنة مساء ، وظلوا ينتظرون ولكن الضيف لم يأت . وتفرق الناس ساخطين في وقت متأخر من الليل .

وفي الصباح جاءني الأستاذ محمد علي عباس سكرتير النادي وطلب إلي أن أرافقه إلى أحمد حسين لنتحدث معه في موضوع تخلفه ... وكانت صلة الصداقة الوثيقة التي تربطني بمحمد علي عباس منذ أن كان يعمل في مكتب بريد شندي جعلتني أتخذ من جريدة النيل منبرا أنشر فيها آراء النادي النوبي كما جعلتني أهتم بمشاكل النادي وأشارك في حلها وذهبنا إلى أحمد حسين وكان ينزل في لوكندة صغيرة تسمى لوكندة رمسيس ، يديرها مصري ، وكانت تشغل المكان الذي يشغله الآن مكتب ومنزل الأستاذ أميل قرنفلي المحامي في الطابق الأعلى . ورغم علم أحمد حسين بوجودنا فإنه لم يخرج من الغرفة لمقابلتنا إلا بعد

وقت طويل ممل . وجاء خلفه المرحوم الأستاذ أحمد يوسف هاشم واستهل محمد علي عباس الحديث والابتسامة الواسعة تعلو شفتيه قائلا : (في رقة) يا أستاذ نحن امبارح انتظرناك في النادي لغاية الساعة ١١ ليلا ، ولكنك لم تحضر ولم تعتذر ، رغم أنك حددت الميعاد بنفسك ؟

وتوقف ليستمع إجابة أحمد حسين فلما لم يفعل أضاف : ولذلك فنحن نأمل أن نتمكن من استقبالكم والاستماع إلى حديثكم ...... اليوم .....

نطق أحمد حسين أخيرا بعد طول صمت وقال في خشونة : (لن أحضر إن هذا النادي لا يعجبني ، أنتم إنجليز ، أنا مش مرتبط ، أنا مش عايز كلام ـ وتفوه بعبارات أخرى مسيئة .) ومحمد علي عباس رجل رقيق وديع وطيب ، ولكنه إذا أغضب وأثير لا يملك زمام نفسه فصاح : أستاذ أنت كذاب وتفوه في ثورة الغضب بعبارات مست وترا حساسا من الزعيم المصري الشاب فزمجر وقفز إلى نصف القاعة وأخذ يضرب الأرض برجليه كأنه وحش حانق ، وهجم على محمد علي وتدافعا وتضاربا في عنف وغلظة . وأحمد حسين قصير ممتلئ ، ومحمد علي قوي البنية ، مكتمل الجسم صلب العود ولذلك فقد كان واضحا منذ البداية لولا الحماقة أن أحمد حسين لا يمكن أن يصمد أمام غريمه رغم حركاته العسكرية وتظاهره بالقوة .

وقمنا بدور (الحجاز) أنا وأحمد يوسف ، أحمد أمسك بالزعيم المصري الشاب ، وأنا أمسكت بمحمد علي ولم أستطع أن أهدئ من الأخير إلا بعد أن درت به كل السطح . وكانت نصف المباني القائمة عليه الآن ، لم تشيد بعد . وقال المرحوم يوسف للزعيم : عيب أنت زعيم أمة تضارب وتعارك الأفراد العاديين . فأجاب الزعيم وهو يضرب الأرض برجليه ، وقامته الصغيرة لا تعطي الرهبة المطلوبة ، لا ده مش عراك دا تأديب . أنا عايز أأدب واحد أخطأ ، تأديب بس ؟ واستمر يقول : والآن بعد أن انتهيت من التأديب ، ليس هناك شيء في قلبي ويمكن أن أصافحه وإننا إخوة . وحملنا محمد علي وقد أسلس قياده ولان جانبه أن يمد يده فالتقت بيد الزعيم ، ثم انصرفت أنا ومحمد علي عباس في سلام .

العقاد في الخرطوم

كانت قوات المحور (الألماني والإيطالي) قد وصلت في زحفها عام ١٩٤٢ إلى العلمين وكانت طائراتها تقذف بقنابلها في إصرار ، الاسكندرية وقنال السويس والقاهرة .

وكان ثمة خوف في مصر والسودان من أن ينهزم الحلفاء وأن تسقط مصر في أيدي الغزاة ، وكان الفريق عزيز المصري باشا قد طار قبل ذلك بتفاهم مع بعض الجهات المسؤولة في الدولة المصرية ، بقصد الاتصال بالغزاة وتنظيم العلاقات بينهم وبين حكام مصر والمصريين ، غير أن طائرة الفريق عزيز المصري ما لبثت أن سقطت في الفيوم ونجا راكباها وهما الفريق عزيز وقائد الجناح حسين ذو الفقار صبري دون أن يبلغا غايتها ، وكان الكتاب المصريون والصحفيون المصريون الذين تعاونوا مع الحلفاء عن عقيدة أو طلباً للتكسب قد سيطر عليهم رعب شديد كما سيطر على الكثيرين من الأغنياء والأثرياء ذوي الميول الانجليزية فاندفعوا نحو السودان منفذ الهرب الوحيد الأمين المفتوح أمامهم . بعضهم واصل سيره إلى جنوب أفريقيا ، والبعض أقام في الخرطوم .

العقاد

وقابلنا في منتصف نهار أحد الأيام ، القطار في محطة الخرطوم فإذا به يحمل الأستاذ عباس محمود العقاد الكاتب المصري الكبير وادجار جلاد صاحب الجورنال ديجبت وعدداً كبيراً من أعيان مصر وسياسييها وفي مقدمتهم فؤاد باشا أباظة .

وقد كانت العناية وافرة بالأستاذ العقاد فقد خصص له سير دوجلاس نيوبولد السكرتير الإداري والمفكر الانجليزي العظيم داراً تقع إلى جوار (مطبعة التمدن) الحالية كما خصص له هبة مالية منظمة كان السيد ادوارد عطية يجيء بنفسه فيسلمها له . وقد شهدته بنفسي يفعل .

أما الأستاذ ادجار جلاد فقد نزل في الجراند أوتيل ولم يكن ادجار جلاد محتاجاً إلى مال فعنده منه الكثير كما لم يكن محتاجاً إلى الدور فحياته المتحررة التي تهيمن عليها العاطفة الخاصة تحبب إليه العيش المنطلق غير المقيد وغير المحدد وغير المراقب .

تيار الهواء :

وكان العقاد يزورنا في جريدة النيل بانتظام ... وقد فرض علينا أن نحميه من تيارات الهواء ... فإذا فتحنا الباب وكان يقع إلى الشمال ، يجب أن نغلق بالنافذة وهي تقع إلى الجنوب .

وكان المبارك إبراهيم يضع برامج نشاط العقاد أحياناً ... وكنت أنا أتولى تقديم قصاصات من الصحف السودانية والمصرية وخاصة التي تنوه عنه وبعض المعلومات المكتوبة .

يحسن الارتجال :

وكنا نجلس إليه في داره فيحدثنا ويطيل الحديث ... وقد لاحظت أنه كان دائم الاستئثار بالمجلس ... كما أنه كان يؤثر اللغة العربية الفصحى على العامية ... وكانت لغته في الحديث سهلة طيعة فصيحة ومعانيه جيدة متسلسلة .

بكى :

وحضرت حفلة تكريم أقيمت له في أم درمان أنشد فيها الأستاذ محمود الفضلي بصوته الحنون إحدى قصائد العقاد الغزلية وهي (ليلة الوداع) ومطلعها :

أبعداً نرجي أم نرجي تلاقيا كلا البعد والقربى يهيج ما بيا

فبكى العقاد حتى بللت دموعه خديه ... وقال في تعليل هذا الضعف أنه الآن غريب مطارد ، وقد علت به السن والتقى فجأة والقصيدة تنشد بصباه المورق المتفتح حيث كانت الحياة صافية آمنة راضية غير ذات تبعات فاهتاج وتأثر ... ثم بكى ...

أحب مصر أكثر :

وحين احتفل به نادي الخريجين في الخرطوم وصف الاحتفال بأنه أشبه بحفل تأبين

وقد تحدث الأستاذ صلاح الدين عتباني في الحفلة فقال : إني كنت في القاهرة ... وكنا نعبد العقاد الكاتب الأول كما كنا نعتنق مبادئ الوفد .

وأضاف : ولكن العقاد انشق على الوفد فتبدلت عبادتي له إلى كراهية ... وحملت مدية ... وكدت أبطش به ... لقد كان العقاد عندي عزيزاً ولكن الوفد كان أعز .

وهنا وثب العقاد من مجلسه صارخاً لقد كان الوفد لدي عزيزاً ... ولكن مصر كانت لديّ أعز .

ردود :

ومضى بعد ذلك يرد على كل الخطباء ارتجالاً ، رداً رصيناً قوياً مدعماً ..... حتى لكأنه أعد وحضر .

ومضت ساعتان وهو يتكلم ... لم يتلعثم خلالها ... أو يتردد أو يضطرب أو يغير لفظة مكان لفظة أو معنى مكان معنى واحسبني كنت أعتقد يوم ذاك أنه كان في ارتجاله خيراً منه في تحضيره ... ولعلي كتبت هذا .

موجة واسعة :

وأحدث وجود العقاد في الخرطوم موجة واسعة رغم أنه كان يؤثر العزلة لينجز باقي كتابه (عبقرية عمر) .

العودة الفجائية :

وقد عاد إلى مصر فجأة رغم أن خطر غزو المحور على مصر كان لم يزل قائماً وقد كان السبب في هذه العودة الفجائية هي حشرة (الزرناخة) ..... ذلك أن العقاد قضى ليلة ساهرة في القراءة والكتابة ... دون أن يهتم بالحشرة ويطلق عليها السودانيون اسم (الفساية) ، وهي تتساقط حوله وعندما أصبح الصباح وجد جسده كله متورماً فحسب أنه قد تسمم وذهب إلى المستشفى الملكي بالخرطوم فلم يجد العناية التي كان ينتظرها ، ولعله ظن أنه أهمل أو أهين فاحتسبها على السودانيين أجمعين وغضب غضبة شديدة .

وعاد وهو يزمجر ... ثم قرر السفر إلى القاهرة في الحال ... وقال لي أنه ما دام قدر

لي أن أموت فخير لي أن أموت في بلدي .

وقال : إن الموت على أيدي الألمان والموت بالسم لا يختلف ... بل أن الأخير أبشع وكان يزداد غضبه حينما يهوّن عليه أحد الأمر ، ويقول له إنها (فساية) وأن أورامها لا تلبث أن تذهب ... وقد بلغ من إصراره على السفر في نفس اليوم أنه حمل أحد المسافرين على التخلف ليحل محله .

هرب العقاد ـ هل يمثل قضية أخلاقية ؟

كان معظم الشعب في السودان كما كانت معظم الشعوب التي جثم على صدرها الاستعمار الانجليزي عام ١٩٤٢ ... تحب لقوات الألمان أن تتقدم ولقوات الحلفاء أن تنهزم .

وكان هذا هو السبب الذي دفع بجماهير المتظاهرين في القاهرة إلى الهتاف (إلى الأمام يا روميل) حينما اقتربت قوات المحور من الحدود المصرية .

الألمان :

وقلنا الألمان ولم نقل الإيطاليون رغم أن قوات المحور المحاربة كانت تضم الفئتين ... ذلك أن الإيطاليين كانوا مكروهين في أفريقيا والشرق الأوسط منذ حرب الغدر الحبشية ... بينما كان الألمان محبوبين لشجاعتهم وتفوقهم ، وصناعاتهم البارعة ، وما أوتوا من حذق في ميادين العلم ، وما كان لزعيمهم هتلر في ذلك الوقت من بطش رادع ، وخطب نارية وأسلوب مملوء بالتحدي والقوة . وما اقترن باسمه من انتصارات معجزة .

هتلر في الميزان :

وقد كان إصدار العقاد لكتاب (هتلر في الميزان) ... وهو كتاب امتلأ بالفحش ضد زعيم ألمانيا الرهيب ... وضد النازية ... ثم كانت محاضرات العقاد في الإذاعات العربية ضد الألمان خاصة والمحور عامة ... وفي الدعاية للحلفاء ومبادئهم ... كل ذلك جعل الشعب في مصر ، والشعب في السودان وكلاهما كان يعطف على الغزاة ينظر إلى العقاد السياسي نظرة غير كريمة رغم احترام بعض القطاعات له كأديب كبير .

كما أن عداءه للوفد المصري وله في السودان أنصار كثيرون سمم الجو حوله .

علي نور :

وأذكر أن الشاعر علي نور وكنا نسميه شاعر المؤتمر ، لم يكن راضياً قط عن منهج العقاد السياسي ، وكان كثيراً ما يشن عليه هجوماً في المجالس ، ومع ذلك فقد رحب به في حفلة نادي الخريجين بالخرطوم كضيف وأديب عربي كبير ، وألقى قصيدة أعتبرت من عيون الشعر العربي وصف فيها العقاد بأنه جوهرة يجب أن تصان فصور بذلك هروبه تصويراً مهذباً قال :

تبقى الحصاة على الغبراء آمنة   والدر يحفظ في حرز ويدخر

وقال أيضاً من هذه القصيدة :

قالوا جبنت عن الجلى وما علموا   مكان من خطبوا الجلى ومن مهروا
أيجبن العلم ؟ إن العلم مزدهر   أم يجبن الحق ؟ إن الحق منتصر
أم يجبن العقل في إبان سطوته   الله يعلم لا جبن ولا خور

السر :

وقد أخذ الدفاع عن الهرب إلى السودان من العقاد جزءاً من وقته سواء في أحاديثه الخاصة أم في خطاباته أم في كتاباته .

ولم يكن انتقاد الهرب مرجعه إلى أن الناس هنا كانوا يعجبون من خروج رجل من وطنه وهو مهدد بالغزو من قبل قوات عسكرية أجنبية ... أو بالأصح لم يكن ازدراء الناس لمثل هذا المسلك مرتكزاً على هذا المبدأ فحسب بل كان مرجعه كذلك في رأيي إلى قصد (التريقة) على الرجل ومحاولة تجريحه ومضايقته .

وقد قال العقاد في معرض الدفاع عن نفسه أكثر من مرة : ـ بأنه ليس برجل القتال الذي يجدي وجوده في دفاع أو هجوم أو حراسة داخلية .

إذ هو شيخ يحتاج إلى حماية ولا يحمي ... بينما هو مطلوب من قبل النازيين والفاشستيين حيث ذكر اسمه في إذاعاتهم ، وبأنه أول من يحاسب ويعاقب في مصر .

وكنت أتوقـع أن يكتب العقـاد عن هـذه المرحلـة من حيـاتـه لما اشتملت عليـه من متناقضـات وحسـاسيـات ... وقـد كان يمكن أن تكون كتـابتـه في هـذا الصـدد من أروع ما صدره ذلك الكاتب الجبار ، ولكنـه لم يفعل ... إن العقـاد رجل من صعيـد مصر حيث تقتضي الرجولة أسلوباً في الحياة لا يتواءم مع ما حدث لـه عنـدمـا زار السودان ... فطمر ذكر هذه المرحلة ودفعها إلى زاوية النسيان .

حسن نجيله وعبد اللاه أبو سن وحسن أحمد الكد

عرفت حسن نجيله في عام ١٩٣٨ عندما رجعت إلى شندي في إجازة ..... وكان يعمل آنذاك مدرسا في أحد الكتاتيب ، وكان شابا في عقده الثالث ، قسيما وسيما خفيف الحركة ، خفيف الجسم ، متحررا من هموم العيش وأشغاله ، محبوبا إلى درجة التفاني يحذق فن المجاملة وله قدرة خارقة على مسايرة المجتمع والتوصل إلى مرضاته .

اسم نجيله

وكان أهم ما لفت نظري أن اسم نجيله يتردد في السوق بنفس القوة والنضارة التي يتردد بها في مكاتب الحكومة ... وان زوار داره ـ وكان يشبه النادي لكثرة من يؤمه ـ خليط من لابسي الجلباب والبدلة وآخرين .

عبد اللاه

وقد عرفت بمعرفتي نجيله عبد اللاه أبو سن وكان ينزل لديه أحيانا ... وكان عبد اللاه رجلا مرحا أريحيا ، ضحوك السن ، تجري النكتة في حديثه مجرى الدماء في الأوصال ... ويعرف كيف يستهوي سامعيه ، ويجتذب انتباههم ورغم أنه كان يعمل في سلك القضاء الشرعي إلا أنه كان متحررا ، لا يعترف بكثير من القيود وكان نجيله وعبد اللاه يتلقيان الاشعار من اصدقائهما وخاصة توفيق صالح جبريل ويترغنان بها وبغيرها من عيون الشعر العربي ، وكانا يفضلان من أبواب الشعر ، الغزل والتشبيب .

وكان نجيله يقول الشعر في هذا الباب وله فيه البدائع والروائع .... والفرق بين نجيله وعبد اللاه أن كليهما كان قادرا على تحمل (الدخيل) في مجالسهما دون أن يشعراه بهذا الضيق الذي يعتمل في نفسيهما ولكن نجيله كان أطول نفسا .

تأثر

وقد تأثرت بنجيله رغم تقارب السن بيننا ، وكان يمثل لدّي صورة من أروع صور

الاشراق الذهني والنفسي في عالم كان حافلا بـالظلام ولا أزيـد ... وكان عبـد اللاه أبو سن لاذع اللسـان ، سريـع البـادرة ، كثير الانتقـاد لمن يكره ، كثير الثنـاء والعطف على من يحب ... وكانت له جولات في عالم الحب والمجتمع لفتت إليه الأنظـار ولم يكن كثير المـداراة في هذا المضمار ....

الكد

وعرفت بمعرفتي نجيلة (حسن أحمد الكد) وكان جاره ، واستمعت إلى آرائه الناضجـة المدروسة .

ولا بـأس من أن أنقل (قطيعـة) قـالهـا نجيلـة يوم ذاك عن (الكـد) ومضى الزمن الطويل قد يحول دون حدوث أثر لها .

قال نجيلـة : ان (الكـد) يملـك أكبر مكتبـة عرفتهـا .. (حتى ذلـك الوقت) وهي تشتمل على عيون الأدب العربي والغربي .

وأنا لا أشك في أن (الكد) قـد استوعب هـذه الكتب ، وكان يمكن أن يفيـد منهـا الناس كاتبـا أو محـاضرا ، ولكنـه لا يفعل لأنـه يجبن أن يواجـه المجتمع .. بل كان يمكن أن يفيد منها الناس بالاعارة ، ولكنه لا يفعل مكتفيا لبخله بدور حارس الكنز .

حذق

وقـد أمضى نجيلـة في شنـدي مـا أمضى من وقت ، دون أن يخلف وراءه الا الكلمـة الطيبة ... وهي دلالة على حذق وخلق ... فليس الخلق وحده كافيا لإرضاء كل الناس .. ومن بين ما أعني بالحذق هنا المدارة لا النفاق .

في الخرطوم

وأذكر أنني قابلت نجيلة في عام ١٩٤٢ في الخرطوم بـالقرب من المحطـة الوسطى وكان معي الأستاذ محمد عشري الصديق رئيس تحرير الصوت .. فعرفت كلا منهما بالآخر ..

وأذكر أنني جئت بكلمة (ممتع) في تعريفي بنجيلـة لم يرض عنهـا ولعل عـذري أنني رجل لا يحسن الحديث بل ولا يحسن التعريـف ....

مكي شبيكة

لقاء مثير

في أول نوفمبر من عام ١٩٤٦ كنت استقل - طراحة - ومعي عدد من التجار الاشقاء - قادمين من الخرطوم بحري إلى الخرطوم للإشتراك في مظاهرة جبهة الكفاح التي نظمتها احتجاجاً على اتفاقية صدقي - بيفن - رداً على مظاهرة الجبهة الاستقلالية التي سيرت في ٣٠ أكتوبر وكان - الأنصار - يوم ذاك قد عبأوا جماهيرهم ، ومنعوا المرور بشارعي غردون والسردار ، وطلبت إلى السائق وهو شقيق متطرف ، ألا يمر بهذين الشارعين خوفاً من الاصطدام بجماهير (الأنصار) ونحن لم نكن نحمل من أدوات الهجوم أو الدفاع إلا أيديا رهيفة قد علاها الصدأ من عدم الاستعمال ، ولكن السائق الشقيق والتجار (الأشقاء) رفضوا هذا الالتماس ، ورفعوا عقائرهم بالصياح زاعمين أنهم مستطيعون لو واجهوا (الأنصار) أن يحطموهم كا تحطم أنت قشرة البيض بأطراف أناملك ، ومضى السائق قدما في طريقه ، سالكاً شارع غردون ولم نكد نوازي سراي السيد **عبد الرحمن المهدي** حتى فوجئنا بمنظر اقشعرت له أبداننا : رجل في هيئة المتربض ينتعل شبطاً ويلبس بنطلوناً وقميصاً ويحمل عكازاً يتوكأ عليه - قد أحاط به رجلان من الأنصار وأخذا ينهالان على رأسه بهراوتين ضخمتين وهو لا يحاول أن يفر ، ولا يحاول أن يدافع .. وكان وجهه يصور الغضب الجارف أكثر مما يصور الألم أو الخوف ... وصحت بالسائق - الشقيق - لكي يقف حتى ننقذ الرجل من أيدي جلاديه غير أن السائق - الشقيق - لم يكن ليسمع وغير أن التجار - الأشقاء - لم يكونوا ليسمعون فقد ركز السائق اهتمامه في - الضغط على البنزين - لكي تنطلق السيارة ملء أوفاضها وركز التجار اهتمامهم في حث السائق لكي يلهب ظهر السيارة لتسرع بكل ما تستطيع من قوة . إنهم كانوا في حالة مستطيرة من الخوف دفعتهم إلى ما يشبه الجنون ... لقد اتسعت عيونهم ، وشحبت وجوههم وأخذ العرق البارد يتصبب من جباههم واعتور تصرفاتهم اضطراب غريب .. ومرقت السيارة على

ميدان المعركة كا يمرق السهم من الرمية ونظرنا إلى الخلف فإذا ببريطاني يقبل بسيارته ويدفع بالرجلين المعتديين جانباً وكانت إحدى الهراوتين قد تحطمت ثم يحمل الرجل المعتدى عليه وينقله إلى المستشفى ... واستدارت أعيننا من الخجل ومضى السائق - الشجاع ومضى التجار - الشجعان - ينتحلون الأعذار لما فعلوا ... وشعرنا بوطأة خزي أليم ...

أما الرجل المعتدى عليه فقد كان الأستاذ مكي شبيكة وكانت هذه هي - المقابلة الأولى - التي تمت بيننا وكان جوها مثيراً مشحوناً بالكهرباء وكانت صورته لهذا السبب دائماً مطبوعة في ذهني ولعلها مطبوعة في ضميري أيضاً ، ولقد شهد الحادث معي علي هلال التاجر الشقيق المعروف في الخرطوم بحري .

اعتذار

وقد اعتذر عن الحادث بعد ذلك السيد الصديق المهدي عند زيارته للدكتور مكي في داره .

ولم يكن هذا الحادث سوى حلقة في سلسلة متصلة من الحوادث بين دعاة الاستقلال بقيادة السيد عبد الرحمن المهدي ودعاة الاتحاد بقيادة السيد إسماعيل الأزهري .

طرد

وأذكر أنني أرسلت للاهرام وصفاً مسهباً لهذه المظاهرة ، وزعمت أن عدد الذين ساروا فيها بلغوا المائة ألف متظاهر ، وأن أحدهم مات من جراء اصطدام وقع بين الاستقلاليين والاتحاديين وكان الخبر في جزئه الأخير غير صحيح ... إذ أن الرجل مات حتف أنفه أثناء هتافه في الميكرفون .

ومررت بمطبعة الطبع والنشر فوجدت هناك الأستاذين عبد الله عبد الرحمن نقد الله ويوسف مصطفى التنى وثار في وجهي الأول وطردني من المكان ، وأخذ الأخير يهدئ من عنفوان غضب نقد الله بعبارات ملطفة ، وخرجت من المطبعة وأنا أشعر بوطأة الإهانة دون أن أفكر في مقابلتها بالمثل فإنك قد تكون مستعداً لتحمل العقاب من غيرك على

بعض أخطائك في غير تذمر بل أحياناً في رضى كأنك راهب يلتذ بالتعذيب مكفراً عن خطاياه .

الجيش المصري

وذهبت في مساء أول نوفمبر إلى دار محمد صبري الكردي بك كبير المصريين في السودان ومفتش عام الري المصري ، وكان مجلسه عامراً باقطاب الأشقاء وآخرين ودار الحديث حول مظاهرة الأنصار والتصدي لمظاهرة دعاة الاتحاد ، وقال السيد محمد نور الدين أنه علم من داؤود عبد اللطيف ـ وكان يعمل يوم ذاك مساعداً لنائب السكرتير الاداري لشئوون الأمن أن القوات المسلحة السودانية في أم درمان كانت كلها من الحوازمة وهم أنصار وصمت الحاضرون رهبة ، ولعلهم قدروا ما في ذلك من خطورة غير أن الكردي ارتفع صوته في صرامة قائلاً : أن كتيبة واحدة من الجيش المصري المرابطة في الخرطوم كفيلة برد الأمر إلى نصابه ، إذا دعا الحال ، فليفرخ روعكم ولتعلموا إننا غير نائمين ـ وكان عدد أفراد الجيش المصري يوم ذاك في الخرطوم ٧٠٠ جندي فقط لا غير ؟؟

عبد الله ميرغني

قابلته قبل شهر واحد فقط من وفاتـه ... وكان يهم بركوب سيـارتـه أمـام عمـارة درسس حيث توجد مكاتب مشروع بركة العجب الذي يعمل مديراً له .

وقد توقف حين رآني والابتسامـة تملأ حفـافي فـمه ، ووجهـه مشرق الصفحـة منبسـط الأسارير ثم قال : إزي أحوالك ؟ وانطلقنا في حديث طويل فهمت منه أنه يريـد تقييـد مـذكراتـه تقييـداً نهـائيـاً ، ويرى أن يكل إليّ ، أمر مراجعتهـا وطبعهـا في المستقبـل ... ولاحظت وأنا أخاطبه أن عبد الله ميرغني الذي عرفته منذ عشرين عاماً لم يتغير منـه شيء في مظهره العام ، فالأعوام الخمسة والخمسون التي يحملها لم تمزق حلة الشباب الزاهية الضافيـة التي طال ارتداؤه لها حتى لتحسبه دون الأربعين ...

وافترقنـا على ميعـاد ... ولكننـا لم نلتق حتى سمعت نبـأ موتـه الفـاجع ... وأنكرت أذني مـا سمعت ... رغم إيمـاني وعلمي بـأن الموت حتم على كل الرقـاب ، وكان عبـد الله قـد سافر إلى يوغسلافيـا ليزور ابنـه الـذي يتلقى العلم هنـاك في يوليو من عـام ١٩٦٤ ، وقـد أصيب فجأة بارتفاع في الضغط وبذلت جهود طبية ولكنها لم تفلح في إنقاذ حياته .

لقد زاملت الأستاذ عبد الله في جريدة صوت السودان سنة ١٩٤٦ لفترة قصيرة عندما كان رئيساً للتحرير كما ازدادت صلتي به وأنا أطبع في مطبعته (المطبعة الوطنية) المستقبل الأسبوعية سنة ١٩٤٩ ، والسوداني اليوميـة أعوام ٥٠ ـ ٥١ والصفـة البـارزة في عبـد الله هي الاتزان ـ الاتزان في التفكير والاتزان في العاطفة والاتزان بعد ذلك في كل مـا يصـدر عنـه من تصرفات .

وتساند هـذه الصفـة طبيعـة معتـدلـة ، ونضوج ذهني ، وثقـافـة متعـددة الجوانب ، ونظرة عمليـة ... ودقـة ، وبعـد نظر واستقـامـة ... وقـد لاحظت عنـدمـا كنت أعمل في

تحرير الصوت أن عبد الله ميرغني كان يحضر في ساعة معينة من الصباح ويخرج في ساعة معينة من الظهر حتى لتكاد تضبط عليه الساعة .

ولاحظت كذلك أنه كان يفكر في المقال طويلاً فلا يكتبه قبل أن يجمع عناصره ويستوثق منها ، فإذا أتم كتابته أعاد النظر في كل لفظة ، ودقق في كل معنى ، وعرضه على بعض من يثق به ، فلا ينشر بعد ذلك إلا إذا كان محكماً مستوفياً منظوراً فيه لكل الزوايا والاعتبارات ...

ومع ذلك فإن عبد الله لم يكن كاتباً جيداً وإن كان مفكراً جيداً .

وأسلوب عبد الله السياسي كأسلوبه الكتابي ذلك أنه أكره ما يكون لكل تصرف غير مدروس ، ولوجهة نظر لم تراع فيها كل الاحتمالات .. وكان عدواً للتهريج السياسي والشعارات البراقة التي يقصد بها إثارة عواطف الجماهير ... حريصاً على العمل على تنفيذ الخطط التي تهدف للمصلحة العليا وإن لم يكن لها ذلك البريق ...

وعندما كان سكرتير وفد السودان في عام ١٩٤٦ كان من أكبر العوامل في إيجاد توازن داخل الوفد ، ولم يشجر خلاف بين أعضائه إلا بعد عودته إلى الخرطوم .

ورغم اشتراكه في المعترك السياسي فترة تزيد على ثلاثين عاماً ، فقد خلت صفحة حياته من أية شائبة ، ومر بعهد المال المبذول والشعارات المبتذلة مرور الكرام ، وإن أخذ عليه شيء فواقعية لا تنافق أخيلة الشباب الجامح وأناة لا ترضي اندفاعاته المتحمسة .

وفي النطاق الاجتماعي كان عبد الله ميرغني يمثل مدرسة تقف بين الطفرة والجمود ، فهي إذ تسير مع ركب التجديد تحتفظ بالقديم النافع ، وفي حياة عبد الله ميرغني حقيقتان كبيرتان تدلان على استقلال شخصيته وقوتها .

الحقيقة الأولى أنه وهو الأنصاري العريق انضم إلى حزب الاتحاديين رغم وجود حزب الأمة دون أن يؤثر ذلك الانضمام على علاقاته الشخصية مع المرحوم الإمام عبد الرحمن المهدي وآل بيته وغيره من كبار الأنصار ...

وظل في حزب الاتحاديين إلى أن اعتزله هو وثمانية من أقطاب الحزب للخلاف حول

لجنة الدستور التي كونها الإنجليز عام ١٩٥٢ ... وانضم لحزب الاستقلال ثم تعاون أخيراً مع طائفته في النطاق الواسع ...

والحقيقة الثانية ، أنه حينما اختير رئيساً لتحرير جريدة صوت السودان لسان حال الختمية ، بوصفه رجلاً موالياً للمبدأ السياسي الذي تعتنقه تلك الطائفة ، لم ينحرف فيساير وسطه الجديد في اندفاعاته الطائفية ... وظل أميناً على مبدأ الحياد الطائفي ... فعمل مع الختمية بروح قومية خالصة ...

وعندما وقعت المجازر الأخلاقية والحملات الطائفية في الجريدة خلال غيبته في القاهرة عاد وآثر الاستقالة ... حتى لا تلصق به أوضار مثل هذه الأعمال غير المسؤولة ... كما كان يعبر عنها بأسلوبه الذي يحاول فيه تجريد الألفاظ من أية إشارة قد يعتقد شخص ما أنها موجهة إليه ...

ونخرج من هاتين الحقيقتين السالفتين بأن أنصاريته في الأولى وعمله تحت لواء الختمية في الثانية لم يستطيعا أن يضعفا منه فيجعلاه يعمل للتجزئة في النطاق الصغير وينزعا عن شخصيته ما تميزت به من الحيدة والاستقلال في النطاق الكبير ...

وهنا وفي هاتين الحقيقتين يكمن مفتاح شخصية عبد الله ميرغني ...

(٥ يوليو ١٩٦٤)

السواحلي

لم أواجه في بداية إصداري جريدة أنباء السودان في طورها الثاني عام ١٩٥٦ صعوبات الطبع وأزمات المرتبات فحسب ، بل ان مكتب الجريدة أخذ يخلق أمامي ركاما من القلاقل لم تكن في الحسبان .

السواحلي

كان مكتب الأنباء يشغل الجناح الغربي من الطابق العلوي في عمارة السواحلي بالسوق العربي ، ورغم أن الشيخ محمد الحسن السواحلي صاحب العمارة كان قد تجاوز السبعين أي بلغ ذروة الشيخوخة وكنا نتمنى أن يخلد إلى الراحة وقد امتعه الله بدخل وفير لا يكاد ينضب معينه ...

رغم ذلك فانه على ما يبدو لم يجعل للسن سلطانا عليه إذ كان دؤوبا جادا يراقب كل صغيرة وكبيرة بعين النسر ، وخاصة حالة الأملاك وساكنيها ، كما كان يحرص حرصا أكيدا على تحصيل الإيجارات في مواعيدها ، لا يفلت يوما إلا بعد حساب عسير .

السيئات :

وقد بدأ الشيخ منذ أن انتقلنا إلى العمارة يحصي علينا سيئاتنا ... فقد شكا من أن السلالم تلفت من كثرة هبوط المحررين والموظفين والعمال وصعودهم ، ولعل أصل الشكوى كانت من الجلبة التي يحدثها الهابطون والصاعدون سواء أكانوا من العاملين في الجريدة أو المطبعة أو الزوار .

ولعل أشد ما كان يضيق به قرع الأرجل لبلاط السلالم ومكتبه كان تحتها مباشرة ، إذ يخيل له أن هذا القرع يكاد يقتلع البلاط اقتلاعا ...

نقاش

ودعاني الشيخ ذات صباح إلى مكتبه فحضرت سريعا وأومأ إلى طعام أمامه ولما كان لا مجال اذ لم يكن هناك غير بيضتين ورغيف واحد فقد شكرته ، وحسبت في ذلك براعة استهلال ، وبعد ان دار نقاش حول شؤون عالمية ، والسواحلي شغوف بتتبع الأحداث ، قال في نبرات هادئة وعبارات مختارة : كنت أود أن يكون ما بيني وبينك قائماً دائماً على وفاق إلا أن أحوال مكتبك لم تدع سبيلا لهذا الوفاق ، واستطرد فأشار إلى أن عدد المحررين والموظفين في المكتب أصبح أكثر من (احتماله) وأضاف : ولذلك فإنني أنذرك بأن يكون العدد الموجود في المكتب دائما متكافئا مع (طاقته) وإلا فإنني مضطر لمطالبتك بإخلائه .

وراح الشيخ يسهب في الحديث مدللا على وجهة نظره وأنا صامت وقد ارتفع حاجباي دهشة واستغرابا فإن من بين آدابنا المأثورة ان نحترم كبار السن ولم أجد بدا من أن أبدي للشيخ هذا الاحترام حتى ولو قذفني بالحجارة ..

قلق :

وخرجت وفي نفسي قلق مبهم فهذا باب جديد من المتاعب فتح أمامي فجأة ؟؟

حل عبقري

وكان السواحلي دقيقا لا يعرف الإهمال أو النسيئة في اقتضاء الأجر وظللنا نتجاذب ، أنا بهذه الوعود التي لا تعتمد إلا على قاعدة من الآمال الخائبة والاحتمالات العرجاء ، وهو بالانذارات المتوالية واللسان الذرب والكلام القارص ، وأخيراً اهتدى السواحلي إلى حل من حلوله العبقرية ذلك بأن يترك ماله قبل الجريدة من ديون تبرعا للأدب والثقافة وان يتكرم الأدب والثقافة ممثلين في شخصي ومحرري وموظفي وعمال الجريدة ومتاعها ، باخلاء المكتب غير مطرودين وكفى المؤمنين القتال ونفذنا الاتفاق وكلانا هاربٌ من أخيه ، وتركنا الطابق العلوي من العمارة خالياً إلا من مكتبين كانت في أحدهما وكالة الأنباء العربية .. وأقمنا في عمارة غطاس جوار (أخبار رحمي) وما هو إلا شهر وبعض شهر ، حتى علمنا ان عيسى وكيل عمارة غطاس قد تخلى عن العمل وتولى الزعيم عثمان المشلي مكانه ولذلك حديث قد يطول ...

عبد المنعم حسب الله

مات الصديق والزميل وابن المنطقة عبد المنعم حسب الله . واختطف القدر أحد أولئك الذين أعد فقدهم فقداً لي - (بالقطاعي) .

لقد انقطع عني عبر الطريق الطويل ، الرفاق الواحد بعد الآخر .. وها أنا في فترة الانتظار .. وعناصر الفناء في جسمي تكاد تقوى على عناصر البقاء ..

ان الناعي الذي نغى عبد المنعم وآخرين يكاد يكون قد نعى إلي نفسي .

سنة ١٩٣٨

عرفني محمد الحسن محمد سعيد (والد الصحفي محمد سعيد محمد الحسن) بالشيخ حسب الله والد عبد المنعم وكان من أقربائه الأدنين ، في عام ١٩٣٨ ووصفه لي بالمنطق واللسن ، والاهتمام بالصحافة والصحفيين ، وظللت أتردد عليه حيث كان يسكن في السوق العربي ويزاول التجارة ، غير أنني عندما تعرفت به كان في زمن التحاريق .

وكان يصحبني أحيانا عبد القادر مشعال . وهو طالب ثانوي وكان عبد المنعم فتى دون العشرين وكان يبدي لي احتراما بوصفي صديقا لوالده ، رغم أنني من حيث السن كنت أقرب إليه .

ولعل هذا هو السبب الذي جعل عبد المنعم يصادق مشعال وزميله سيد عبد الله السيد ، دوني .. وقد انتهز فرصة هذه الصداقة فتعلم منها الانجليزية ، مما أفاده بعد ذلك عندما عمل خلال الحرب في حسابات قوة الدفاع .

مقال :

وذات يوم عقب مغادرتي لمجلس الشيخ حسب الله سمعت صوت من خلفي وقائل

يقول (يا عمي يحي) فلما التفت ، رأيت عبد المنعم يقبل علي حافي القدمين وهو يلبس جلبابا قصيرا ، وسلمني أوراقا قائلا : مقال للنشر في جريدة النيل ..

القصير :

وكان الشيخ حسب الله يشير إلى عبد المنعم ويصيح القصير إما حكمة أو فتنة .. وكان ابنه الآخر ويدعى عبد الباسط طويلا ...

عودة الشيخ :

وعاد الشيخ حسب الله إلى الكتاب بما تبقى له من مال .. وترك عبد المنعم يجاهد في سبيل الرزق ويجاهد في سبيل الوطن وكان جهادا موصولا أضنى فيه صحته فمات قبل الأوان .

في الصحافة :

وعند انتهاء الحرب اشترك عبد المنعم في جريدة الشباب التي يصدرها عفان أحمد عمر وهي عنيفة متوثبة ، حارة الاسلوب ، وكانت تقف ضد الانجليز في وضوح .. وأذكر أن السبب في تركه للشباب هو أن السيد محمد عبد الحليم العتباني صاحب مطبعة الطابع السوداني اشترط لكي يواصل طبع الشباب فصل عبد المنعم بسبب خلاف شخصي حدث بينهما . وقد استجيب لطلبه دون توقف لأن استمرار الجريدة في الصدور وليس ثمة مطابع تقبل طبع الشباب أهم من وجود عبد المنعم وأصدر عبد المنعم جريدة أسبوعية باسم الجهاد وقد حررها الشيوعيون حينا .. ولكن لم يساهم معهم فيها مساهمة جادة اذ انه غير يساري قطعا ... وكانت ميوله نحو مصر والنظام الحاكم فيها تساير منهج التعاطف والالتقاء في غير امحاء للشخصية السودانية .

السياسة :

وقد عمل في السياسة وهو الختمي العريق بروح غير طائفية .... فقد وقف إلى جانب السيد إسماعيل الأزهري عند خلافه مع رئاسة الختمية . ثم انضم إلى حزب الشعب بعد عودته من معتقله في جوبا خلال الحكم العسكري ... ثم أصبح من أقطاب الاتحادي

الديمقراطي عند دمج حزب الشعب بحزب الأشقاء وكان عبد المنعم من الخطباء المؤثرين وكان قادرا على التغلغل بين أفراد الشعب ونشر الأفكار الجريئة .. وكان قادرا على تنفيذ الخطط ، شجاعا في مواجهة الصعاب ، صبورا على تحمل المشاق .

وكان دوره وإن لم يصل إلى طور القيادة يقترب منها وكانت كتاباته الصحفية ، تلتزم بالمبادئ الحزبية المقررة ، وتسير وفقها .. ولم يكن يتجاوز هذا المحيط .. ولم يكن راضيا عن سياسة الحزب قبل الاندماج ولكنه كان يدافع عنها .. ولم يكن راضيا عن بعض كبار الشخصيات في الحزب ولكنه كان يداريهم ... وكان يكتفي بالجلسات الخاصة التي كان يطلق فيها لأحاسيسه وآرائه العنان ...

وكان لعبد المنعم خصوم غير أن هذه الخصومة لم تصل يوما إلى درجة العنف . وكان لا يحب أن يواجه أحد بما يكره .

يتهموننا :

وقابلني عبد المنعم قبل أشهر من وفاته ـ صدفة وهو يجلس داخل سيارته في الطرف الجنوبي من عمارة الجامع العتيق ، وبعد أن تبادلنا التحية قال لي : انظر إلى حسابي في البنك ومد إلى ورقة كان يحملها في يده .

وأضاف : ان هذا الحساب لا يتجاوز الخمسين مليما ، ومع ذلك فان بعض الناس يتهموننا .

أجبت : ان الناس يتهموكم ولكن لا يتهمونك ؟؟ فضحك ضحكا عريضا .. وتوقف فجأة وقال : تمم انت الضحك نيابة عني فان صدرك أوسع ... وكان عبد المنعم يشكو من ارتفاع الضغط وتصلب الشرايين .

لعبة القدر :

وقد عين عبد المنعم عضوا في مجلس الشيوخ في عهد الاستقلال وكان من المرشحين لدخول الوزارة وذاق مرارة الاخفاق في الانتخابات الأخيرة مقرونا بوعد قاطع بدخول الوزارة ، غير أن القدر كان له بالمرصاد .

ذكريات :

وروى عبـد المنعم ان الـزعمـاء السيـاسين المعتقلين في جـوبـا في عهــد عبـود كانـوا ، يختلفون على أقل القليل رغم الظرف الذي كانوا يعانونه .

وكان هو كثيرا ما يقوم بدور حمامة السلام بينهم ، وقد عـاد من المعتقل وهو مريض بضغط الدم ومريض باليأس من صلاح الأمور .

مكي عباس

عرفت الأستاذ مكي عباس للمرة الأولى في عام ١٩٤٥ عندما عين عضوا في المجلس الاستشاري عن إحدى مناطق الجزيرة .

وكان أول ما لفت نظري إليه مناقشاته المنطقية الرصينة وأسلوبه الخالي من العاطفة وبحوثه الضافية المركزة المدعمة بالأرقام والنظريات ... وكان رأينا فيه نحن العاملين في الحقل الصحفي يوم ذاك أنه رجل أثير لدى البريطانيين وأنه تخطى زملاءه في مصلحة المعارف بسبب هذا الإيثار .

غير أن مخالفته للسياسة البريطانية المحلية في خطاباته التي كان يلقيها في المجلس لم تجعل لهذا الرأي قيمة كبيرة .

ثم ازدادت معرفتي بمكي يوم أصدر مجلة (الرائد) في عام ١٩٤٧ وأصبح زميلا تجمعنا به ظروف المهنة .

ولم يصل ما بيني وبينه إلى حدود الصداقة رغم أنني درجت على زيارته في مكتبه أغلب أيام الأسبوع وكثيرا ما التقيت به في ردهات مكتب السكرتير الإداري أو لدى ادوارد عطية ..... أو المرحوم حسن عثمان إسحاق .. فإن مكي كان شديد الكبرياء ينظر إلينا نحن الصحفيين الذين لم يتلقوا تعليما أكاديميا نظره إلى هذه الطفيليات التي تتسلق جذوع الأشجار المثمرة ، وتعمل على امتصاص معين حياتها ، وكان يحس بأن ممارستنا لتقلبات الظروف والأحوال وعدم تشربنا بالمثل والمبادئ العليا وقوالب الأفكار التي صنعت خصيصا لطائفة معينة من رصيدنا المثقف ، جعلتنا في مستوى خلقي هابط ؟؟ .

فالحياة في رأيه يجب أن تكون نسخة لهذه الألفاظ البراقة عن السلوك التي دونت في الكتب .

وقد زاد من سوء رأيه في شخصي أنني نشرت في الأهرام عقب استقالته هو والسيد محمد أحمد محجوب من وظيفتيهما الحكوميتين وكان الأول يشغل منصب مفتش تعليم الكبار والثاني يعمل قاضيا .

إن الحكومة البريطانية هي التي أوعزت إليهما بالاستقالة والعمل في الحقل العام توطئة لاشتراكهما في التطورات الدستورية المقبلة ولم يكد مكي يقابلني في مكتب الاتصال العام حتى ثار في وجهي ثورة عنيفة وقال لي وقد شمخ بأنفه ورفع رأسه نحو السماء كأنه يتعالى أن ينظر إلي : إذا كانت الدرجة (اس) التي تركتها توازي شيئا لدى أمثالكم فإنها في نظري لا تستحق هذا الاعتبار .. لقد استقلت لشعوري بأن هذا المركز الذي أشغله في الحكومة غير متكافىء مع مواهبي .

واستطرد فقال : إنني لا يمكن أن أنسى هذه الإهانة التي وجهتها إليّ لأن سمعة الرجل كبكارة العذراء إذا خدشت يستحيل إصلاحها .. وحدث بعد ذلك أن كون مكي وآخرون من بينهم الأستاذ عبد الفتاح المغربي لجنة مهمتها السعي للائتلاف بين الأحزاب ، تردد أنها ذات صلة بالبريطانيين وكتبت في الأهرام عن هذه اللجنة ولفت النظر إلى أن الأستاذ المغربي متزوج من انجليزية وكانت غمزة غير كريمة ، وغير مهذبة ولكنها نزوات الشباب .. وزرت (مكي) في مكتبه ذات صباح وكان إلى جانبه الأستاذ المغربي وكان عدد الأهرام الذي نشر فيه الخبر بين أيديهما ، وكان قد وصل لسوء الحظ في نفس ذلك اليوم ؟؟

ولعلهما كانا يعلقان على الخبر ، ويتناولاني بالتجريح ، وكان الريفي يعمل مصححا في مجلة الرائد ، وقد رآني قبلهما فأشار إلى إشارات لم أفهم المقصود منها ، إذ كنت قد نسيت (الخبر) ورفع مكي رأسه فشاهدني وقال لي وهو يشير إلى الأهرام : ما هذا العبث الذي تنشره ؟ .

وشتمني في قسوة ، ثم هجم عليّ يريد أن يضربني .

ولكن الأستاذ عبد الفتاح تصدى له وردّه إلى الوراء وقال عبارات مخففة ملطّفة ، عن أساليب الصحفيين في تناول الأخبار .. وصاح بي مكي :

اخرج من هنا ، يا .... وتفوهت بكلمات خافتة أعتذر فيها للأستاذ عبد الفتاح ثم خطوت إلى الخارج متمهلا ، وقد تبعني صوت مكي وأنا أنزل السلالم مدويا قويا ، وقد شهدت بعض موظفي شركة عبد المنعم ـ وكان مكي يشغل مكتبا في الدور العلوي من بناية الشركة ـ يتطلعون برؤوسهم متعجبين .

وطول هذه الفترة لم يفتح الله على الريفي ... الذي كان منزويا في جانب من مكتب المجلة ـ بكلمة واحدة ولعله آثر السلامة إذ لو كان قد ساندني ـ وهو صديقي ـ لما أمن العاقبة . وظل مكي مغاضبا لي ، وإذا التقيت به انصرف عني بوجهه .

وقد حدث أن أرسلت طلبا زكاه الأستاذ محمد عامر بشير (فوراوي) كاتب الجمعية التشريعية ، لإدارة الجزيرة عندما خلا منصب رئيس تحرير جريدة الجزيرة في الخمسينيات وقيل أن مكي عندما عرض عليه طلبي ضمن الطلبات الأخرى أمسك به ومزقه !! .

ورغم أنني واثق من أن مكي لا يحبني بل وربما كان يكرهني إلا أنني لم أصدق هذا النبأ .

أولا : لأن هذا الأسلوب أشبه بأساليب الأطفال ...
ثانيا : أن مكي تعود النظم المكتبية ...

غير أن هناك حقيقة كان مصدرها السهو على ما أعتقد فإن كل الصحفيين الذين قدموا طلبات ردّت إدارة مشروع الجزيرة عليهم (بالأسف) بعد أن اختارت الشخص الذي راق لها ، إلا طلبي فإنه لم يحظ برد ..

فوق مستوى الشبهات :

وعندما ثار سير جيمس روبرتسون السكرتير الإداري على الصحفيين خلال مؤتمر عقد من أجل الجنوب ثم رمى بالقلم في وجوههم وانصرف .. تولى الأستاذ مكي عباس كتابة بيان نشرته كل الصحف وكان النص الانجليزي من صنعه مائة بالمائة .. وقد هاجم البيان سير

جيمس هجوما عنيفا .. ولم يكن مستغربا أن يقود مكي هجوما ضد البريطانيين فقد كانت وطنية مكي دائما فوق مستوى الشبهات ...

ومما يجب أن يذكر أن مكي كان في المؤتمر أكثر الصحفيين حدة ضد سير جيمس روبرتسون ولعل مسلكه كان من الأسباب التي أدت بالرجل إلى الثورة - وهو معروف بالحماقة -

محمد عامر بشــير

أشرت فيا سبق من هذه الذكريات إلى الاتهام الذي وجهه حزب الأشقاء إليّ من أنني ضالع مع الانفصاليين ، وقد تأثرت جريدة الأهرام التي كنت أراسلها بهـذا الاتهـام فطلبت إلي الاستقالة من جريدة النيل (لسان حال آل المهدي) توفيرا لطابع الحيدة في شخصي .

وقـد فعلت بعـد أن رفـع مرتبي إلى الحـد الـذي يمكنني من العيش دون الاستعـانـة بدخل إضافي .

مع فوراوي :

وكنت على اتفـاق سـابق مع الأستـاذ محمـد عـامر بشير (فوراوي) على العمل محررا بجريدته الأسبوعية (الأخبار) عندما أستقيل . ورغم الحماسة التي قابلني بهـا (فوراوي) في البداية ، إلا أنني لاحظت أن مقامي في الجريدة لم يكن موضع اعتبار جاد ... فلم يخصص لي مكتب ولم تحدد لي مسؤولية .

وظللت أتردد على الجريـدة أسبـوعـا أو أكثر أشبــه بـالضيف تطلب لي المرطبـات والمسخنات ويحتفى بي - ثم لا شيء غير ذلك على الإطلاق وإذا كتبت ، نشرت كتـابتي في غير ترحاب وإذا امتنعت لم أُسأل ...

وكانت (الأخبار) تجتاز يوم ذاك ظرفا ماديا عصيبا ، وطالما حاولت أن أفهم لمـاذا طلب (فوراوي) إليّ العمل معـه وهـو لا يحتـاج فعـلا إلى جهـودي ؟ أو قـل لم يرغب في الاستفادة منها ؟ فضلا عن أن حالته المالية لا تسمح باحتمال عبء جديد .

السـبب :

وبعـد لأي خيل إلي أني وقفت على السبب وربمـا كنت مخطئـا في هـذا التخيل لقـد كان فوراوي يراسل وكالة الأنباء العربية وقد عاونه على الظفر بهذه الوظيفة المستر مورسن

ضابط الاستعلامات وكان يفضله على كل الصحفيين .

وكان الأستاذ عبد الرحمن نصر مدير الوكالة في القاهرة يشدد عليه النكير ، في خطابات حادة اللهجة .. نظرا لأن أخباره ليست في المستوى المطلوب ..... وكان مركزه لذلك مهددا وكنت - أنا - مشهودا لي بين المراسلين بالسبق والتبريز ولم يحدث قط أن فاتني خبر هام وكيف يفوتني ؟ وكنت أحصر جل نشاطي من أجل الأهرام مواصلا ليلي بنهاري - لا أكاد أعرف للراحة طعما أو للهدوء سبيلا -

الإمام المهدي :

... وحدث أن اعتزم المرحوم الإمام عبد الرحمن المهدي في نوفمبر من عام ١٩٤٦ السفر إلى لندن لمقابلة المستر بيفن وزير خارجية انجلترا وكبار المسؤولين البريطانيين لكي يعرض عليهم وجهة النظر السودانية الاستقلالية ويحتج على اتفاقية صدقي بيفن التي اعترفت بالسودان في نطاق الوحدة مع مصر ...

وقد مهد لهذه الرحلة بمظاهرة صاخبة في نهاية أكتوبر سنة ١٩٤٦ وقد رأى الإمام قبيل سفره أن يزور سيادة السيد علي الميرغني في داره بحلة خوجلي ، وكانت مصر حكومة وشعبا مهتمة بهذه الزيارة لأن مساعي الإمام عبد الرحمن ، كانت ضد الأماني القومية في شمال الوادي وعرفت من المرحوم الشيخ أحمد عبد الله وكيل السيد علي وابن خالته وصديقي وجاري في الخرطوم بميعاد المقابلة .

وتم الاتفاق بيننا على أن أتصل به أثناء الزيارة تلفونيا فيختلس فترة بعد أخرى ليفضي إلي بما يدور فيها حتى أتمكن من موافاة الأهرام تلغرافيا في نفس المساء بجلية هذا الحديث الهام .. وقد فعل الشيخ أحمد عبد الله ومكنني من موافاة الأهرام بدقائق المقابلة خطوة خطوة في مساء نفس يوم وقوعها . بل في نفس ساعة وقوعها ، حيث أبرقت بها للأهرام مع تصريح من الشيخ بحسبانه ممثلاً لرئاسة الختمية .

طعنتني من الخلف

وفي صباح الغد ذهبت إلى شجرة غردون لأودع السيد عبد الرحمن حيث تقرر أن

يسافر على طائرة مائية ، وهناك وجدت (فوراوي) يقف في مكان مشرف على المرفأ بجسمه الديناصوري الضخم كأنه تمثال الحرية المقام في جزيرة مانهاتن في مشارف نيويورك . ولم يكد يراني حتى واجهني بضحكة عريضة ثم قال لي وقد انبسطت أساريره ، روح النهار ده الأهرام راح ترفدك ! ولما سألته عن السبب قال : تصور أنا من الصباح المبكر أرسلت وصفا دقيقا وافيا عن مقابلة الزعيمين والآن نشرة وكالة الأنباء العربية تكون بين يدي رئيس تحرير الأهرام ، وسوف يتهمك بالتقصير ... أجبته على ضحكته بضحكة عصماء من ضحكاتي المأثورة وقلت له : الحقيقة وكالة الأنباء العربية هي اللي راح ترفدك لأن الأهرام في صباح هذا اليوم قد نشرت تفاصيل هذه المقابلة بدقة لا يصل إليها صحفي غيري .... ولن تكون لبرقيتك بعد نشر الأهرام للخبر وحواشيه أية قيمة حقيقية .... وقصصت على فوراوي واقعة الأمس ، وكيف أن الشيخ أحمد عبد الله مدني بكل دقيقة وجليلة عن المقابلة وقت حدوثها ، رغم ما اتسمت به من سرية .

وصمت فوراوي فجأة وتلاشت من وجهه مظاهر الانشراح وانتفخ شيئا فشيئا ثم ظهر عليه غضب جامح وصاح في انفعال : تطعنني من الخلف ؟ اسمع تاني ما تجيش الجريدة أنت مرفوت ..

ثم استدار ومضى نحو النهر وحسبته من شدة الانفعال والاندفاع موشك أن ينحدر إلى القاع . وأذكر حتى هذه الساعة أن رجليه أثارتا بعض الغبار وهو يهبط التل كالقدر .

اهتزاز صلة

وانقطعت صلتي بجريدة فوراوي منذ ذلك الحين .. وقد هز هذا الحادث صداقتي بالزميل ولكنه لم يقض عليها .. وقد عرفت في فوراوي الطيبة البالغة ولا عبره بما يقع منه أحيانا عند الغضب فإنها سحابة صيف مؤقتة سرعان ما تنقشع ...

زحف غير مقدس

عندما تولى السيد إسماعيل الأزهري الحكم في عام ١٩٤٤ ، زحف خريجو الجامعات المصرية وعلى رأسهم (.... و ....) يطالبون بنصيبهم من المغنم ....

وبعد جهاد مرير أعلنت جريدة الرأي العام أن النيه اتجهت إلى تعيين (....) و (.....) في منصبين كبيرين .

وكان (....) كدأبه متئدا مترفقا فقرر أن ينتظر الخطاب الرسمي بالتعيين أما (...) فكان كدأبه متعجلا ملحاحا فأسرع إلى وزارة (....) وشغل مكتبا خالياً .

لقد بدأ وكأنه يحاصر الوزارة خوفا من أن يفلت المنصب من بين يديه ..... وظل أشهرا يذهب في الصباح للوزارة ولا يغادرها إلا بخروج آخر مراسله .

وتركه الوزير حيث أراد لنفسه ؟ ؟

وأخيرا بعد أن تمت مرمطة (....) تماما ، دعى في بساطة وقيل له بعبارات تنضح سما أن ترشيحه لمنصب الوكيل قد سحب ، وإن الوزارة في حاجة إلى المكتب الذي يستعمله ؟

وتحدث الناس عن هذا المقلب طويلا بل وضحك بعضهم كثيرا ..

وذات يوم أراد الأستاذ محمد عبد الجواد بمأثور سخريته أن يكشف (....) وكان (....) في ذلك الحين قد تولى رئاسة تحرير صوت السودان بالإنابة لغياب شاغلها الأصيل .

ورفع محمد سماعة التلفون في جريدة التلغراف واتصل (....) بينما كان بعض الزملاء ينصتون من فرع آخر للتليفون داخل الجريدة .... قال الأستاذ محمد وهو يقلد صوت الوزير السالف الذكر .... فين الأيام دي .... أنا مشتاق جدا .. فأجاب (....) في

صوت يرتجف من الانفعال ـ أهلا بمعـالي الوزير نحن تحت النظر يظهر إنكم انشغلتم عنـا ، قـال الأستـاذ محمـد وهو يقلـد صوت الوزير : (أنت دائمـا في ذاكرتنـا وكفـاءتـك مـوضـع تقديرنا) أجاب (....) وهو يمعن خضوعا : (يـا معـالي الوزير مـا تعرفش قـد إيـه أنـا متشكر أنا دائما في الخدمة)

ومضى (....) يتحدث إلى من اعتقد أنـه الوزير وألفـاظـه ومعـانيـه تقطر ضراعـه وانقطعت المحادثة وسط ضجة من ضحك الزملاء المتواصل .

ومن الغريب أن الذي تريث واحتفظ بكرامته قد عين في المنصب الموعود ، في حين أن (.....) قـد سحب البسـاط من تحت رجليـه وسـط الشماتـه من خصـومـه والرثـاء من أصدقائه ...

مبدأ قانوني

« في حياتي الصحفيـة طرائف صغيرة لا تكتمل الصورة دون تسجيلهـا .. وقد تركت نفسي على سجيتها فلم أتقيد بتسلسل تاريخي في سردها »

فاقد الشيء

نشرت في جريـدة النيـل عـام ١٩٣٦ خبرا مفـاده أن السيـد ميرغني حمـزه المهنـدس بمصلحة الأشغال سوف يوفد إلى لندن لفترة تدريبيه في الهندسة وميرغني كما هو معروف من أقطاب الختمية .

وكان النشر بحسن نية إذ لم أكن ملما في أول عهدي بالعاصمة بالخلافات الطائفية ومـا كاد الخبر يظهر في الجريدة حتى تلقيت مكالمات تلفونيه عـديـدة تلومني على هـذا النشر كما أخذ بعض العاملين في الجريدة يوجهون إليّ قارص الكلم ، ويتهمونني بالتحيز ـ للختمية ـ

وزار الجريدة السيد محمد صـالح الشنقيطي وتعرف بي ، ثم استنكر نشر الخبر ، وذكر أنه مكذوب من أساسه وقال : إن هناك مبـدأ قـانوني يقول : فـاقـد الشيء لا يعطيـه . ثم أضاف إن الشخص الذي تقرر إيفـاده إلى انجلترا هو السيـد إبراهيم أحمـد . وللآن لم أستطع أن أربط بين المبدأ القانوني الذي تمثل بـه السيـد الشنقيطي ومـا نشرتـه عن ترشيح السيـد ميرغني حمزه للسفر في بعثة إلى لندن ؟ ؟ إذ أن كلا الرجلين كان مهنـدسـا مرموقـا ، ومهما يكن من شيء فقد أوفد إبراهيم أحمد .

أحمد خير

تلقيت في عـام ١٩٣٧ من عثمان شبيكـه الملاحـظ بمكتب صحـة مـدني ، وكان يراسل جريدة النيل من هناك خطابا أرفق بـه مقـالا للنشر ... ذكر أن كاتبـه هو أحمـد خير من خيار المثقفين واحد قادة الرأي في المدينة ، وسـألني التوسـط في نشر المقـال ، وقـد فعلت ،

ونشر المقال ورغم أن هذه لم تكن المرة الأولى التي أسمع فيها باسم أحمد إلا أنها كانت المرة الأولى التي قامت فيها بيني وبين اسمه صلة مباشرة على نحو ما .

إسماعيل العتباني

وأقبل على المكتب ذات صباح في عام ١٩٣٦ الأستاذ أحمد يوسف هاشم وهو يضحك .. فلما سألته عن السبب .. قال إن بعض الناس ـ كثيرا ما دوشوه باسم إسماعيل العتباني الموظف بتجارب مدني ، وقد جاءني منه هذا المقال وأومأ إلى ورق في يده عليه خطوط حمراء ـ وقال : إن هذا المقال لايصلح للنشر على الإطلاق .. إنه عبث أطفال وأورد المثل العربي ـ تسمع جعجعة ولا ترى طحنا ـ ثم استطرد قائلا ـ ديل قايلين الصحافة لعب ـ ومع ذلك فإن مقال عتباني نشر في جريدة النيل ...

المقال الغالي

وأغلا أجر دفعته جريدة النيل عن مقال في أول الأربعينات كان مبلغ خمسة جنيهات دفع للأستاذ محمد أحمد محجوب ـ القاضي ـ بأمر من السيد عبد الله الفاضل المهدي مدير شركة الطبع والنشر يوم ذاك .... وكان عن العلاقات بين مصر والسودان .

مرتب ومماطلة :

في عام ١٩٤٤ عملت في السودان الجديد الأسبوعية أثناء غيبة الأستاذ أحمد يوسف هاشم في رحلة دعائية إلى البلاد العربية مع السيدين أحمد عثمان القاضي وحسن محجوب وكان يتولى الإدارة في هذه الفترة السيد عبد القادر يوسف هاشم .

وهو رجل صارم صعب المراس يبدو عليه التجهم في أغلب الأحيان .. ولم أحاول مطالبته بمالي على الجريدة من مال ، خشية منه ... وآثرت أن أنتظر أحمد غير أن أحمد عندما وصل ماطلني ثم رفض الدفع بحجة أن عملي كان تطوعيا .

وكتبت مقالة في مسامرات ، وصفت فيها أحمد بأنه حرباء ، وإنجليزي الخ . وصفوة القول هاجمته في عنف وقسوة وذهبت إلى حفلة أقيمت في سراي الحاكم العام وانضممت إلى مائدة كان يجلس إليها الدكتور أبو شمة والدكتور منصور علي حسيب والأستاذ أحمد يوسف هاشم وآخرون لاأذكر أسماءهم الآن .. وقدم الدكتور حليم علي إثري

وجلس على مقعد خال .. ثم اتجه بالحديث إلى أحمد يوسف هاشم .. وقال : ألم أقل لـك أن يحي لا يستحق منك أي خدمة وإنك دائما مخدوعا فيه ...

لقـد قرأت في البوستـه المصريـة قبـل نصف سـاعـة مقـالا نشرتـه مسـامرات الحبيب ليحي ، لم أقرأ مثله من قبل بذاءة وقذارة وامتهانا للزمالة ... مقالا ينضح بالحقد ...

وعندئذ نظر إليّ أحمـد نظرة نـاريـة كادت تحرقني وشعرت بحرج عظيم ، واعتـذرت بأنني كنت غاضبا حين كتبت المقال ، وإنني لم أكن أعني كل ما جاء به ، وصبرت على هذا المجلس الشائك ، إلى أن فرغنا من تناول الشاي ثم زغت بين المـدعوين وتسللت خـارجـا ، وفي غداة ذلك اليوم نشرت جريدة السودان الجديد إعلانا ورد فيه ما يلي :

إلى يحي عبد القادر

نسيتم في دار جريدة السودان الجديد برنيطتكم والمطلوب منكم الحضور لاستلامها ...

وظل هذا الإعلان ينشر عدة مرات دون أن يجـد استجـابـة مني ... وقـد علمت يوم ذاك أن أحمـد أعـد رجلين لضربي إذا جئت إلى الـدار ... وقـد قـابلت أحمـد بعـد ذلـك وتذاكرنا هذا الموضوع ، فأكد لي هذه الواقعة وأخيرا اهتدى أحمد إلى وسيلة للانتقـام مني ، فأعاد نشر مقالات بإمضائي كنت قد كتبتها ضد المصريين في السودان ، بإمضاء مستعـار ، ورغم أن نشر هذه المقالات قـد أغضب محمـد صبري الكردي مفتش عـام الري المصري وكبير المصريين في ذلـك الحين إلا أنـه لم يكف لفصلي من الأهرام لأن الجميل رئيس التحرير ظل حريصـا على الاحتفـاظ بي ... بل لأن الجميل رئيس التحرير كان يقـدر حريـة الرأي ... ولا يهمـه إلا أن تكون أخبـاري صحيحـة بعيـدة عن التحيز والأغراض ... إن الأهرام التي كان صاحبها جبرائيل تقلا ورئيس تحريرهـا الجميل كانت مثـاليـة تترفع عن التوافـه وتسمو بنفسها عن الحزبيات والعاطفيات والسياسات الضيقة ...

فنانة سودانية

كان (ج . غ .) موظفاً في جمارك بورتسودان عام ١٩٤٣ ولم يكن قد تجاوز عامه الثاني والعشرين ، وكان فتى قوياً وسياً ، ناضر الوجه ، مهذب الخلق سليم التكوين ، يؤثر الحياة الطليقة ، ويملأ كل أوقات فراغه بأسباب المتعة الحية والمرح المجنون ...

وأقبلت الفنانة (ع . أ .) إلى المدينة وكانت آنذاك في حدود الثلاثين ممشوقة القوام ، عذبة الحديث ... إن لم تصل إلى ذروة من الجمال الباذخ ... فقد ظفرت بأنوثة صارخة آسرة ... فيها دل وميوعة واسترخاء وتفتح وتجاوب ، وزاد في تأثير هذه الأنوثة الطاغية صوت حنون أشبه بتغريد البلابل كان - ولم يزل - فتنة للأسماع والقلوب معاً ... وجمعت الليالي الساهرة بين الفتى والشابة .

وتكرر اللقاء وائتلف القلبان وعادت الفنانة إلى الخرطوم بعد أن تركت وراءها قطعة من نفسها ...

وتعددت زيارتها لبورتسودان ... إنها لم تكن تستطيع الانقطاع عنها قط . وألّفت في حبه الأغاني واتخذت من الحرفين الأولين من اسمه واسم أبيه (جي جي) مطلعاً وكسرة في معظم ما تغني ، وأولئك الذين أعطوا الحرية في الحب ، إذا علقت قلوبهم ، تعذر عليهم الفكاك ... كالطائر المتعب آوى إلى عش أمين بعد طول تنقل وتجوال ... ولم يتح لهذه السعادة أن تدوم فقد عاد الفتى لذويه في الخرطوم بحري حيث رتب له الزواج من قريبه قريبه ... ولم يكن ثمة مفر من هذا الزواج فالفتى لم يقدر للصلة بالفنانة أن تمتد إلى حدها الأقصى ، والشابة الفنانة نفسها لم تقدر لهذه الصلة ذلك الامتداد ...

فطريق حياتيهما جد مختلف ، والنضوج الصحيح يركز الفهم ويسدد الإدراك .

لقد آن لكتاب حبهما أن يغلق ، بعد أن قرآه من الغلاف إلى (الغلاف) ولعلهما

أعادا قراءته مراراً ، ولعل صفحاته بليت من كثرة التقليب ، وأحيت الفنانة الشابة ليالي العرس بنفسها ، أحيتها بكل مشاعرها ومن كل قلبها ...

لقد كانت (رياضية) في حبها إن صح هذا التعبير .

وكان صوتها الصادح الرنان ينبعث فتحسبه الأنين ، وكانت رقصاتها البارعة السريعة الرشيقة في بهرة الأنوار الساطعة أشبه بتلوي قديسة تتعذب في وسط النيران ...

كانت تغني وعيناها تشرق بالدموع ... وكانت ترقص وقلبها ينزف دماً ... ولكنها أطاعت القدر فلم تخالف أو تعترض ... لقد رضيت بمصيرها بل لعلها ارتاحت لهذا المصير .

ومن يهرب من مواجهة الحقيقة غير طياش أخرق أو خيالي مأفون ، ولم يطل بها الزمن بعد ذلك ، حتى وجدت من مسح دموعها ، ودمل جروحها ، ومنحها واحة وارفة من الصبر والعزاء وبذلك كانت أقوى من القدر نفسه ...

عبد الكريم قاسم .. هل كان شيوعياً ؟

كان السؤال الكبير الذي حاولنا الإجابة عليه نحن الصحفيين السودانيين خلال زيارتنا للعراق عام ١٩٥٩ هل قاسم شيوعي ؟ وقد اتضح لنا بعد بحث وتحريات أنه ليس شيوعياً ولكنه أيضاً ليس ضد الشيوعيين لقد كان يريد أن يلتقي عنده الجميع وأن ينبثق من بين الكره المريع القاتل الذي يسود الحياة في العراق ويملأ عليها أقطارها وكره القوميين العرب للشيوعيين وكره الشيوعيين للقوميين العرب وكره أنصار القديم لكل أولئك أن ينبثق من هذا الكره حباً يحيطه هو وحده باعتباره رسول السلام والمنقذ الأوحد والقوة التي تحول دون اصطدام العراقيين بعضهم بعضاً .

وكتبت يوم ذاك مقالاً نشرته في أنباء السودان عقب عودتي من العراق جاء فيه ما يلي : لذلك فإن الخوف من أن يتسيطر الشيوعيون على الجيش العراقي لا محل له من الواقع الراهن أو المستقبل القريب ولا يقول بإمكان هذه السيطرة أو حتى باحتمالها المتطرفون في التفاؤل من الشيوعيين أنفسهم .

بل أن هناك حركة عادية داخل الجيش يكبحها اللواء عبد الكريم قاسم تهدف للقضاء على الشيوعيين وربما لو استمر في كبحها لخشي على النظام نفسه من (التصدع) .

وقد قابلت وقابل زملائي أعضاء الوفد الصحفي السوداني العديد من الضباط وتحدثنا معهم في صراحة تامة وكانوا ما عدا واحداً يحملون على الشيوعيين في غير حرص ولا حذر ولا تحوط منهم يرمونهم بشتى التهم ويرون ضرورة تطهير الجيش منهم ، وجل الشيوعيين في الجيش من الأكراد وهم أقلية حانقة وربما ضاق قاسم بفظاظة الشيوعيين وجرائمهم ... واستهتارهم وإرهابهم الناس واستمرارهم في تعبئة أنفسهم حربياً أو طموحهم إلى الاستيلاء على الحكم ، ولكنه لم يعادهم ، يعاقب المسيء منهم ، ولكنه لا ينال من البريء أو الذي يصطنع البراءة ، ولم يغير الوجه الذي استقبلهم به منذ أول يوم .

وصفي طاهر الشيوعي الكبير كان ياوره الوحيد أو مرافقه الوحيد أو مرافقه في كل آن .

إبراهيم كبه وعوني يوسف الوزيران الشيوعيان القديمان ظلا يشغلان منصبيهما وقد زاد عليهما وزيرة شيوعية معتدلة هي نزيهة الدليمي .

وإلى جانب عدم عداء قاسم للشيوعيين فهو أيضاً لا يعادي الرأسماليين ولا يعادي الفئات الأخرى المناوئة للشيوعيين ...

وحسبنا أن نذكر احتضانه للمليونير الرأسمالي الكبير محمد حديد وزير المالية وأن نذكر الصلة الوثيقة والتعاون الكامل القائم بينهما وهذا مثل واحد من أمثلة عديدة ... لقد أراد قاسم أن يكون لكل الشعب ولكنه في النهاية أصبح عدواً لكل الشعب .

قاسم والصحافة المرتشية

تحدث اللواء عبد الكريم قاسم في المؤتمر الصحفي الذي حضرناه عام ١٩٥٩ في مكتبه بوزارة الدفاع ببغداد عن الصحافة المرتشية وقال إنها حاولت أن تجره للدعاية لشخصه ولنظامه لكي تكسب مالاً .

.وأضاف : غير أنني رفضت أولاً لأن كل فلس من أموال الشعب العراقي يجب أن يذهب لتحقيق مصلحته وثانياً لأن مثل هذه الصحف تقف في مزاد ، فتخدم دائماً من يدفع أكثر ولن أدخل في مثل هذا المزاد .

وكان واضحاً من مغزى الحديث أنه يقصد بالصحافة المرتشية الصحافة اللبنانية التي حضر منها عدد من المندوبين ، وفي مقدمتهم الأستاذ عفيف الطيبي نقيب الصحافة اللبنانية .

وقدم اللواء عبد الكريم قاسم مجلدات من الصحف اللبنانية وشن حملة على دعوة الوفد اللبناني في المؤتمر إلى الوفاق بين الدول العربية ... وقال كيف تدعون للوفاق وأنتم موغلون في شتمي والاساءة إليّ ؟؟

أبدأوا أنتم بسياسة الوفاق في صحفكم ، اتركوا ممالأة فريق على فريق من الدول العربية ، ثم حاولوا التوفيق ، تكونون منطقيين مع أنفسكم ومفهومين بين الآخرين أما الآن فكيف أصدقكم ؟؟

وعرض نماذج من الصحف اللبنانية التي يوجد منها مندبون في المؤتمر - وكانت هذه الصحف تحمل عليه في عنف واصرار ...

وشعرت بأن في نفس الرجل مرارة ، وانه يشكو من عدم العدالة ... وكأنه كان يريد عالماً متجرداً من الأطماع والأغراض ، عالماً يحق الحق لأنه حق ، ويبطل الباطل لأنه باطل .

وكان في ذلك واهماً دون شك ، فالعالم المثالي الذي يتخيله لا يوجد ولم يوجد ولن يوجد ، وكان ينبغي أن يبيع بسعر السوق ولقد استنتجت من وجهات نظر قاسم المتفرقة التي أدلى بها أنه لم يكن يؤمن بالصحافة على الوجه الذي يؤمن بها رجال الحكم العصريين وأنه أخرجها من كونها أداة ذات أثر في تثبيت نظامه ، أو توطيد أقدامه أو نشر مبادئه أو الدعاية لأعماله أو خدمة أمته ولعله كان يكرهها لعقدة في نفسه في حين أن خصومه كانوا على العكس يؤمنون بها وقد استطاعوا عن طريقها في الداخل والخارج أن يقلبوا حسناته سيئات ، ويطبعوا كل عمل من أعماله بطابع الارتجال وعدم المسؤولة ، ويصموه بالجنون والغفلة ، وينشروا عنه شتى الإشاعات الكواذب .

وربما أضفنا إلى الأسباب التي أدت إلى انهيار نظامه غير ما تقدم ، إن قاسماً كان يركز كل السلطات في شخصه وإنه لم يكن كثير الثقة بالناس وإنه حتى إنهاء حياته هذا الإنهاء الفاجع المروع ، لم يعين الرجل الثاني بعده ، وإنه لم يكن يتصرف وفق نصائح الفنيين ومن يعتمد عليهم في الشؤون الخارجية والداخلية ، إنه ظل يواصل سياسة التحدي دون حذر أو تحوط رغم تكاثر خصومه وتغلغلهم .

ولعله من المستحسن أن نقرر أيضاً أن من بين ما أضعف مركزه ودفع به إلى المضيق الذي أودى به ، إن الرجل رغم إخلاصه كان عسكرياً محدود الثقافة محدود التجارب محدود الأفق ساذجاً في دنيا الحكم ، سطحياً في فهمه لشئوون الحياة وشؤون الشعوب ، وإنه كان أسيراً للشعارات البراقة والدعوات الطنانة ، وإنه كان عدواً لعبقري في فن التحطيم والتخريب ، وافساد الذمم والضمائر والعقول .

حكايتي مع خليل مطران

الصحفيون قد يكونون أداة بناء وتفاهم وتوحيد

وقد يكونون العكس تماماً

الشعر يتحول بتحول العصور . وهذا التحول

ينبع من عوامل الحضارة

لقد ذهبت إلى المدنية والبدائية على السواء بكثير من الخصائص الكريمة التي تبنى بها الأمم . الأولى نشرت الانحلال والتفسخ ...والأخرى أبقت الوحش في الإنسان .

منذ ٣٣ عام .. وبالتحديد في أول يناير ١٩٤٥ قام شاعر القطرين خليل مطران بزيارة الخرطوم . وكانت إقامته في الفندق الكبير .

ما أن سمعت بخبر وصوله حتى شخصت إلى الفندق ، حيث أتيحت لي فرصة الجلوس إليه ساعة من الزمان .

وقد راعني من الشاعر نحول غير عادي ، وتقوس في الظهر يكاد أن يكتمل واهتزاز في المشية ، واختلاج في البدن وصوت بالغ الخفوت .

وحسبتني ازاء رجل ـ وهو في العقد الثامن ـ قد أوشك على النهاية . وصافحته وأنا راحم له ، متأثر بمظهره .

ومضينا إلى فناء الفندق وكنا في فصل الشتاء ، ثم أخذت مقعدي إلى جانبه ، وأدنيت رأسي من رأسه لكي أسمعه بوضوح .

وانطلق يتحدث إلي في سهولة ويسر وكان حديثه مفاجأة لي ، فقد كان مطران ناضج العقل إلى درجة لم أعهدها في أحد من قبل .

كان واضحاً في أرائه ، جريئاً في أبدائها ، مستكملاً لعناصر موضوعاته ، متعمقاً فيها ، محتفظاً بالتسلسل الفكري كأنه كان يقرأ عن كتاب مفتوح ؟؟

أبناء مهنة واحدة

بدأ الحديث بإشارة إلى أنه صحفي قديم ، وقد عمل في جريدة الأهرام كما أصدر مجلة أدبية ، وكتب في صحف اللواء والمؤيد . ثم أضاف رافعاً رأسه : اذن فنحن أبناء مهنة واحدة .

ووصف الصحفيين بأنهم قد يكونون أداة بناء وصفاء وتفاهم وتوحيد ، ولكنهم أيضاً قد يكونون رسل هدم وفساد وتخريب وشقاق .

دولة الشعر :

وعن اضمحلال الشعر في ذاك الوقت أجاب وقد برقت عيناه : إن الشعر يتحول بتحول العصور ، وهذا التحول ينبع من عوامل الحضارة ، وما تتأثر به النفوس من عوامل خاصة ، والنفس واسعة كالدنيا لا حدود لها ، وطوارئ التحسينات المادية من مخترعات متنوعة ومن هنا يأتي التجدد في الشعر العربي وكذلك الطور الحديث الذي هو أثر من آثار الاتصال القوى بين المدنيتين الشرقية والغربية .

وفي هذا العهد وهو عهد انتقال ، قد يبدو لنا الشعر ضعيفاً لأنه إذا قيس إلى مقولات الأزمنة السابقة لا يضارعها إجادة وحسن أداء ، ولكنه بما أحدث من أفكار وأخيلة مستمدة من العصر الراهن وأحواله لا بد أن يفضي إلى ازدهار كبير في نواحي التفكير والخيال .

فإذا بدا لنا استنكار شيء من الجديد فلأن الجديد بالذات ليس - في الواقع - غاية ادركناها ، وإنما هو تمهيد لأدب لم تستقر عواطف الجماهير ، وأحاسيسها وأفكارها على قبوله واستحسانه بعد .

عالمية الأدب العربي

وتحول إلى الحديث عن أدبنا العربي بين الآداب العالمية ، قال :

في الواقع أن مصدر ضعفنا الأول هو أن الكثيرين من كتابنا لا يملكون القدرة على الإحاطة بالموضوع قبل الكتابة عنه . فنحن إذا وصفنا أو تحدثنا جئنا في كل ذلك بمظهر الشيء لا بجبره واستعنا بالخيال قبل الاستعانة بالواقع ... فقل أن يجد القارئ في كتابتنا ، الكائن الحي الذي يعرفه في نفسه ، وفيمن حوله وبواعثه المختلفة .

ولعل أداة كتابنا وشعرائنا اللغوية في مقدمة دواعي عجزنا ؟؟؟

ولذلك يجب أن نتمكن من لغتنا التمكن الكافي لاداء الأغراض ـ كبيرة وصغيرة ـ وأن يعمل الكاتب أو الشاعر على أن يخلق الشخصية الحقيقية القائمة لمن يكتب عنهم ، أو لما يكتب عنه ، والقول فيه ، بالتدقيق والتسلسل ، وتبين العلل والمعلومات ، لا تفوته أجزاء في الظاهر ، ولا دقيقة في الباطن .

ومن هنا ترتسم شخصية الكاتب أو الشاعر وتنطبع في النفوس ، أما أن يكون فقط جامعاً لم يأت بشيء من عنده فهذا لن يدخل بين أصحاب العبقريات والعبقرية كما عرفوها هي الصبر الجميل . من أين خلقت عبقرية شكسبير وراسين وكورنيل وغيرهم ؟ إنهم عرفوا ما يريدون وثابروا في صبر وأناة حتى حققوا ما يريدون .

قلت : هل بين أدبائنا وشعرائنا في بلاد الضاد من يصلح أن يكون كاتباً أو شاعراً عالميا ؟

ـ لا ... مع الأسف ، أن بعض الكتب والقصائد التي أستحسنت بين أبناء العربية حين ترجمت لم يبلغ أثرها في الأقطار الأجنبية أدنى ما بلغه بيننا أننا حتى الآن في طور التجارب .

الطقس والفنان :

قلت : هل للجو تأثير على الإنتاج ؟ وماذا ترى في جو السودان من هذه الناحية ؟

أجاب : إن للجو تأثيراً على الإنتاج حقيقة ولذلك فالبلاد الشمالية دائماً أخصب إنتاجاً من البلاد الجنوبية .. على أن عوامل الجو يمكن أن تحارب بالتربية الخاصة .

ولعلك تلاحظ الدلالة على فعل الجو بأن نشاطك خلال البرد يدفعك إلى أعمال لا تستطيعها في الحر إلا وأنت متكلف متعب ، كما أن لجو الجبال أثراً لا يكون لجو الأودية . وهكذا .

ولقد اتضح كثيراً أن رياضة النفس بالتدريب والتوجيه في هذه الناحية تأتي بالمعجزة كما هو الحال في التدريب العضلي .

بعد العودة :

وعندما عاد الشاعر إلى مصر بعث إلي بقصيدة حاولت نشرها في جريدة النيل فاستعصى علي الأمر لأسباب ؟ ؟ وذهبت للصديق الأستاذ محمد عامر بشير فوراوي فنشرها في جريدة الأخبار الأسبوعية التي كان يصدرها يوم ذاك وقد عبر فيها الشاعر عن قصوره عن الرد على ما ألقي في حفلات تكريمه من شعر ونثر . قال :

إذا ما الداء أقعد جسم حي — أتنشط روحه وبها عقال ؟
علي لصفوة نجب ، حقوق — أنوء بها وأعباء ثقال
شمائل حلوة طابت وروداً — على مر الزمان وما تزال
وإقدام على الجلي وعزم — له إن مسه الضيم اشتعال
بني السودان حاجة كل قوم — ليعلو شأنهم ، علم ومال
لكم في مصر إخوان ثقات — هواهم لا تغير منه حال

مع صحيفة الأهرام :

وعندما اشتد الضغط علي في عام ١٩٤٦ وخيرت بين عملي في جريدة النيل وعملي في جريدة الأهرام ، فزعت إلى خليل مطران في رسالة ملأتها بالانفعالات ... وقد جاء رد مطران :

« لقد ذهبت إلى الصديق أنطون الجميل (رئيس تحرير الأهرام) فرأى أن تخرج من جريدة النيل إزالة لكل لبس ، على أن يعوضك برفع مرتبك من ٩ جنيهات إلى ثلاثة وعشرين جنيهاً .

وأن يرسل إليك في الحال عشرين جنيهاً بالتلغراف لإعانتك على مصاعبك المالية التي تواجهها في موقفك الراهن » .

وفي نفس يوم وصول الحوالة التلغرافية أسرعت فاشتريت حذاء جديداً وقبعة جديدة واستبقيت قدراً من المال لمطالبي الأخرى .

الذهب المصري :

وقابلني بعد أيام الصديق السيد عبد الله عبد الرحمن نقد الله قطب حزب الأمة المعروف وأنا بادي الأناقة ، أتلاعب بسلسلة مفاتيح في يدي كالعادة وقال لي ضاحكاً :

ما أكثر ما يلمع الذهب المصري على أصحابه ؟ .

واقعة :

وأثرت مساعي الشاعر الكبير خليل بك مطران على الأستاذ أنطون الجميل باشا رئيس تحرير الأهرام فلم يكن يسمع قط ما يقال ضدي .

وقد روى لي الصديق السيد يحي الفضلي بصراحته المأثورة ، الواقعة التالية :

ذهبت أنا وخضر عمر ومحمد نور الدين وعلي البرير وآخرون إلى جريدة الأهرام لكي نسأل الجميل باشا فصلك من الأهرام ، واختيار آخر نثق به ويتجاوب مع الحركة الوطنية (الأحزاب الاتحادية) واقترحنا اسم الأستاذ محمود الفضلي كبديل ، وقلنا : إن يحي عبد القادر يتعاون مع حزب الأمة وهو ضد مصر . فكيف يصح أن يكون ممثل كبرى صحف مصر في السودان عدواً لمصر ؟ .

واستطرد يحي الفضلي فقال : وجلسنا إلى الجميل وأخذنا نعدد مساوئك الواحدة بعد الأخرى في تفصيل دقيق .

واستمع إلينا الجميل وهو يتناوم حتى إذا أكملنا الحديث ، وأردنا أن نطالبه باتخاذ القرار ، وجدنا الجميل باشا ، قد سبح في عالم الأحلام ... كان قد نام تماماً .

وانصرفنا ونحن نشعر بأننا لا نستطيع أن نفعل شيئاً ضدك في الأهرام وهذا الرجل موجود على رأس تلك الجريدة الكبرى ذات التقاليد .

محمد زكي عبد القادر

عرفت الأستاذ محمد زكي عبد القادر الكاتب المصري الكبير من كتاباته ، وتتبعت نشاطه منذ أوائل الثلاثينيات .

ثم ازدادت هذه المعرفة عندما أصبحت مراسلا للأهرام في الخرطوم ...... فقد كان يتولى منصب نائب رئيس التحرير ، وكنت أتصل به تليفونيا بين الحين والحين . ثم تعرفت به شخصيا عندما زار السودان مع رفعة علي ماهر باشا رئيس وزراء مصر خلال الحرب العظمى الثانية .

وقد مهدت للأستاذ محمد زكي لكي يلتقي بكبار السودانيين ، ويستمع الى آرائهم ... وقد اجتمع به في منزل الأستاذ أحمد يوسف هاشم ، السيد محمد الخليفة شريف ، وابراهيم أحمد ، والدكتور عبد الحليم محمد ، حيث أعطوه فكرة عن قضية الاستقلال وتحركات الاستقلاليين وأهدافهم .

وعندما أقيم احتفال ضخم في نادي الخريجين بأم درمان تكريما لعلي ماهر باشا ، وألقيت خطب ، تحدثت الى السيد اسماعيل الأزهري رئيس النادي ورئيس مؤتمر الخريجين ليفسح المجال للأستاذ زكي لكي يلقي كلمة ... وقد فعل ... وكانت كلمة جيدة قوية رصينة أثارت الاعجاب .

وظلت علاقتي به متصلة بعد تخليه عن الأهرام ، وعمله رئيسا لتحرير الأخبار القاهرية . فقد كنت أزوره في مكتبه بشارع شريف كلما وفدت إلى القاهرة في مهمة ..... وكثيرا ما دعاني إلى الغداء في منزله بشارع مسبيرو أو العشاء في أحد المطاعم ، أو الشاي في كازينو النور .

ورغم أن الأستاذ زكي لم يكن متجاوبا معي في أفكاري بل كان يرفضها مقدماً بغير تحقيق ، شأنه شأن كل مصري يؤمن بوحدة وادي النيل ، ويسيء الظن بكل استقلالي ،

مهما خلصت نواياه وسمت آراؤه ، .. رغم ذلك كله فقد كتب مقدمة كتابي (شخصيات من السودان ـ الجزء الأول) وكانت مقدمة بارعة أكد فيها عدم التقائه بآرائي في معظم الأحيان ....

وحدث عندما زرت القاهرة في عام ١٩٤٩ ضمن أول وفد صحفي سوداني تتاح له زيارة القطر المصري أن التقينا أنا واسماعيل العتباني صاحب جريدة الرأي العام بالاستاذ زكي في مأدبة عشاء أقامها السيد فؤاد سراج الدين سكرتير الوفد المصري للوفد الصحفي السوداني .

وجرى بيننا حديث أشار فيه زكي الى أنني ذو نعرة استقلالية ، وقد تعجبت وتعجب زميلي من هذا التعبير .

غير أنني علمت بعد ذلك أن الأستاذ زكي يعتبر الوحدة بين مصر والسودان قاعدة أما الاستقلال فشذوذ على القاعدة .

وإن كان إيمانه بحرية الرأي يجعله يتسامح في تقبل هذا الشذوذ ؟؟

وفي عام ١٩٥٣ طلبت الى الأستاذ زكي أن يعاونني على الاتفاق مع جريدة (القاهرة) المسائية لكي أصبح مراسلها في الخرطوم ، وكنت يوم ذاك قد أقصيت من جريدة الأهرام ، فاستجاب لرغبتي وقدم اسمي للجريدة وجئت اليه مرة أخرى ، وقلت متبرماً : ان تقديم اسمي لا يكفي بل يجب تزكيتي واقناع المسؤولين فيها بتعييني .

فأجاب في حزم قائلا : ـ لن أفعل .

وتعجبت من هذا الحسم في التعبير ، وعبرت له عن هذا التعجب .

فأجاب قائلاً في صراحة : ـ أن أصحاب الجريدة يحتاجون الى مراسل في الخرطوم ، وهذه حقيقة لا أشك فيها ، وبينهم من يعرفك شخصيا ، كما يعرفك بعض الصحفيين العاملين معهم ... ويكفي أن أقدم اسمك تعبيرا عن استعدادك لملء هذه الوظيفة .. إذ أن كفاءتك من هذه الناحية لا تحتاج الى نقاش ، ولك ماضيك في الأهرام ، أما ما بقي فمن شأنهم وحدهم ، ولا يصح أن أزج بنفسي فيما لا يخصني .

وأضاف : وهب أنني ألححت عليهم فقبلوك على مضض ، فهل يطول استمرارك في الوظيفة ؟؟؟

ان ترك الناس أحراراً في تكييف علاقاتهم المستديمة بالآخرين أجدى وأكرم .

وفيما كنت في القاهرة ، علمت أن جريدة (القاهرة) اقترحت على الأستاذ زكي تعيينه رئيسا لتحريرها بمرتب يبلغ ستمائة جنيه في الشهر .

وسألته عن حقيقة هذا النبأ .

فأجاب أن الخبر صحيح ولكنني رفضت العرض . ولمته على تصرفه ، فأجاب : انني أعمل في الأخبار بمرتب قدره ثلاثمائة جنيه منذ أمد ، ولم يحدث من أصحاب الجريدة ما يدفعني للتخلي عنهم فهل يصح أن يقال أن ثلاثمائة جنيه زيادة في الشهر أدارت رأسي . وحولتني من جانب الى آخر .

ان الصلة بين الناس لا ينبغي أن تقيّم بالماديات وحدها .

وتحدثت الى الأستاذ زكي عن اعتداله في كتاباته ، وكيف أنه لم تجر على لسانه قط حكمة يشتم فيها أحدا ، أو عهدا من العهود .

فأجاب : ـ أن الهدم لا يبنى .

والأستاذ زكي يواظب على الكتابة يوميا في بابيه (كلمة الأخبار) و (نحو النور) وأسبوعيا في يوميات الأخبار .

ولا ينقطع عن الكتابة خلال العطلات سواء قضاها في الخارج أو الداخل .

ويجمع الأستاذ زكي في حياته الخاصة والعامة بين الأدب الرفيع والخلق النبيل والعفة وروح الخير والاتزان .

وهو نبراس للكاتب الذي يوفق بين المعنى الجيد واللفظ الجيد مع صفاء في النفس وصدق في التعبير ، وتجرد عن الهوى .

ما أحوج العالم الذي انبهمت فيه السبل الى قلم كقلم زكي يمنح الناس ما يحتاجون اليه من نظر سديد ورأي رجيح ومحبة وسلام .

يونس بحري

الأستـاذ يونس بحري مـذيـع هتلر المشهـور ، أحـد الصحفيين والكتـاب المعروفين في العـالم العربي ، أصـدر كتـابـا في بيروت عقب السماح لـه أخيرا بمغـادرة العراق تحت عنوان (ستة أشهر في سجون العراق) والكتـاب يصف وصول يونس بحري الى بغـداد قبل نشوب ثورة ١٤ تموز بساعات قلائل فقط وكيف اعتقل بوصفه أحـد أبواق نوري السعيـد ثم كيف حوكم وكيف اطلق سراحه .

باسم المقاومة الشعبية :

وقد كان أكثر فصول الكتاب تأثيراً على نفسي حديثه عن موقف ابنه سعد منه .

قال « ان إبني سعد قد رفع عريضة ضدي فور اطلاق سراحي يقول فيها :

« باسم المقاومة الشعبية احتج على اطلاق سراح والدي يونس بحري فهذا الرجل كان جاسوسـا للبريطـانيين في برلين ، ثم لمـا انتقل الى بـاريس صـار جـاسوسـا للفرنسيين ، ان والدي مزواج وهو يستحق السجن الى الأبـد ... أو الموت ، وزعم يونس بحري أن ابنـه قـد أصبح شيوعيا وهذا هو السبب الذي دفعه للنكاية به .

وشاية صديق :

قـال ان الـذي دل السلطـات على مكان وجوده عنـد نشوب الثورة صـديـق يـدعى صلحي الطرابلسي وأضـاف أن مخبـأه وهـو في منزل ابن أخيـه العقيـد أركان حرب صـادق الجبوري نائب رئيس الاستخبارات ، ولم يكن ليعرف ولو بقي السنين الطوال لولا وشايـة ذلك الصديق به .

يونس بحري في الخرطوم :

وقد قابل كاتب هذه السطور لأول مرة الاستاذ يونس بحري في الخرطوم في أوائل عام ١٩٥٨ وهو يصحب امرأتين ، قيل ان أحداهما كانت زوجته .

وقد اختلفت الأقاويل حول الأسباب التي دعته للحضور ، غير أنها في جملتها تلتقي في سبب واحد هو الرغبة في التكسب . وقد نزل يونس في الجراند أوتيل مدة أسبوع ، ثم انتقل الى منزل جنوب كلية الأقباط ، كان يسكنه السيد الدرديري أحمد اسماعيل ، وزرته في هذا المنزل ظهر يوم قائظ ، وكان المنزل عاريا رغم كثرة غرفه إلا من ثلاثة أسرة وكرسي واحد ، ومنضدة وبعض أواني الطعام والشراب ، ويغلب أن يكون يونس قد استعار هذه الأشياء من صديق ، وقد استقبلتني المرأتان الواحدة بعد الأخرى ، ثم جاءني يونس وكان لا يرتدي إلا ملابس داخلية لا تكاد تستر عورته .. ودعاني الى الداخل فذهبت معه ... وجلست على السرير وانصرف عني ليطبخ الطعام وقال لي : وهو منهمك في تقليب اللحم : انني طباخ ماهر ، ولا التذّ الا من صنع يدي ، وكان يضع على الأرض بالقرب منه زجاجة من الخمر (جن) وكان يشرب من فم الزجاجة بين الحين والحين ودعاني دعوة (مراكبية) لكي أشرب كأسا .. ودون أن أرى كأساً بجانبه ... ولكنني اعتذرت وقلت إنني لا أشرب الخمر ، فنظر إلي نظر غير المصدق (لا أدري لماذا ؟) ورغم ذلك ظهرت عليه علائم الارتياح ولعلها كانت الزجاجة الأخيرة ، وكان يخشى أن يشاركه فيها أحد ، وقد لاحظت خلال جلوسي أن المرأتين لم تكونا على وفاق .

ولاحظت أيضا أن يونس كان شديد العصبية كثير التلفت لغير ما داع ، وتصدر من بين شفتيه لفظة (ايه) باستمرار ، وكانت عظامه بارزة وذات زوايا بعضها حاد تشاهد عادة في الرجل البدين اذا نحف بسبب المرض . وكان أغلب حديثه يتجه نحو شخصه وأعماله وعبقريته وآثاره الكتابية ، إنه يشعرك في كل لحظة بأنك صغير إلى جانبه .

وخرجت من لدن يونس بحري دون أن تشيعني المرأتان ، ولم أرتح لما شهدت ، فانني كرب أسرة ذات تقاليد ، أكره أن أجد رجلا من رجال الأدب والصحافة ـ كنت أحترم اسمه ، في وضع عائلي لا يتناسب مع ما كنت أقدر له من مكانة .

مقابلات أخرى .

وقابلت يونس بحري بعد ذلك عدة مرات لأستلم المقالات السياسية التي كان يكتبها ضد (ج . ع . م .) وكان قد عاد للفندق الكبير مع المرأتين وقال لي : أن الحر في البيت الذي كنت اسكنه شديد ، ولم تكن في البيت مراوح ، غير أن هذا العذر لم يكن مقبولا لدي يوم ذاك (لا أدري لماذا ؟) وانقطعت علاقتي بيونس بحري ، وهو في الخرطوم عندما طالبني بأجر عن المقالات التي كنت انشرها له . ولما ذكرت له أنني لا أملك ما أدفعه للمحررين وإنني أعاني من (الفلس) وإنني لا أكاد أجد أجر الطبع إلا في عسر ... بل لا أكاد أجد قوتي وقوت أسرتي الا في عسر أيضا زام بحنجرته .. ثم ضحك .. وصاح بصوته المبحوح ، وهو لا يكاد يتماسك أنت مغفل ؟ ليه ؟ ولم أراجعه في رأيه عن شخصي ولافي تساؤله ، ثم انصرفت ودعاني ذات يوم الى الفندق الكبير ... وحسبت أن أمرا هاما قد حدث فأسرعت اليه وهناك قال لي : وهو يتلطف ويكثر من التلفت أيضا سوف أسافر غدا - ثم أضاف : أن جهة أجنبية قد اتصلت بي بواسطة شخص معين ذكر أسمه ، وأشار الى كرسيين في مكان منزو وقال : كنا جالسين هناك . وقد عرضت عليّ هذه الجهة السفر من السودان مع معاونتي على تكاليف السفر .. وقد قبلت ودفعت لي تلك الجهة خمسمائة جنيه ، وغمز بعينيه غمزات غريبة لم أستسغها ثم قال : أن صلتي بتلك الجهة قد تحسنت وربما عملت للدعاية لها في بيروت .

جراب الحاوي .

وقدم لي مقالا للنشر ، وعندما قرأته راعني الاختلاف الكبير بين يومه والأمس لقد كان يعادي فأصبح يوالي ... وقد اعتذرت عن نشر المقال في الحال دون مجاملة وقلت له : أن هذا المقال سوف يظهرك لدى جمهور قرائك بمظهر غير كريم . فقال باستهتار استفزني : بالعكس أنهم سوف يحطونني على الأعناق واستطرد قائلا : على أي حال لو انتظرت رأى الجمهور فيما أكتبه ، لكنت منذ زمن طويل ميتا من الجوع ، وحاول (لا أدري لماذا ؟) في إلحاح مقيت أن يساومني على النشر وعرض علي بعض المال ولكنني أصررت على الرفض ، وشعرت نحو هذا الشخص ولا أقول الرجل - الواقف أمامي بنفور لم أشعر به نحو أحد قط في حياتي ، وقرأت بعد ذلك المقال منشورا في صحيفة صوت السودان على شكل حديث .

السفير العراقي .

ولم يسافر يونس بحري في اليوم الذي حدده ، وعلمت بنبأ تخلفه عن السفر ، وحاولت لحاجة في نفس يعقوب أن أعرف ما آل اليه أمره ... وأجريت اتصالات هنا وهناك ولكنني لم أعثر عليه ، واتصلت تليفونيا بالسيد هاشم خليل السفير العراقي أسأل عنه فأجابني غاضبا : وهل أنا مركز استخبارات يونس بحري ؟

ولما كان السيد هاشم صديقي فقد ساءني غضبه وقابلته مرة أخرى وسألته ، ولم غضب عندما سألته عن يونس بحري فقال : أن هذا الرجل لا مبدأ له ... والشعب العراقي يكرهه ، ولا يهمني أن كان يناصر نوري السعيد أولا يناصره ، فانه عمل غير صالح . وهو غير جدير بالانتساب الى العراق بل وغير جدير بالانتساب الى أي كائن في هذه الدنيا .. وهاشم خليل من الوطنيين العرب المخلصين واحد الذين عرفت فيهم استقامة الخلق ووضوح المنهج .

ضرب في بغداد .

وغادر يونس بحري الخرطوم ، وسمعت بنبأ اثلج صدري بعد شهر من ذلك التاريخ فقد اعتدى الجمهور على يونس في شوارع بغداد ، ونقل الى المستشفى ثم سمعت بنبأ آخر عقب الثورة العراقية لم أضق به وهو القبض على يونس بحري من بين من قبض عليهم في ذلك الحين .

وفي عام ١٩٥٩ زرت بغداد في وفد صحفي ومعي الزميلان أبو العزائم ومحمد الحسن أحمد وفي بهو فندق الخيام قابلنا يونس بحري عدة مرات ، وهو يرافق الوفد اللبناني وحاولنا أن نجلس إليه على انفراد ، لعله يفضي إلينا في ثرثرته العادية ببعض الأسرار وخاصة أمر اعتقاله ...

ولكنه ظل يتهرب ... ولعله كان مراقبا وكان هذا آخر عهدي به ومنذ حين تلقيت من بيروت كتابه (سبعة أشهر في سجون بغداد) هدية منه .. وتساءلت عن السر في هذه الهدية التي جاءت على غير انتظار .. من يدري ؟؟ لعله يعتزم القدوم إلى الخرطوم مرة أخرى .

صحافة

مقلب ـ علي حامد

عرفت الزميل الأستاذ علي حامد لأول مرة عام ١٩٣٦ في منزل السيد يحي الفضلي بام درمان ... وكان الزميل آنذاك طالباً في كلية غردون التذكارية وكان يحمل كتبه ، ويجلس في اعتدال على عنقريب وطّوح باحدى رجليه .

وقد قرأت أمامه محاضرة كنت أردت القاءها في سرادق المهدى بام درمان بعنوان (خصائص الاسلام) وأذكر أنه تحمس وقال أنها جيدة جداً .. وكان السيد الامام عبد الرحمن قد درج على استغلال ليالي المولد النبوي للتوعية العامة .

ولو كنت أعلم شيئاً عن أخلاق علي حامد يوم ذاك وهو الساخر أبدا لترجمت المعنى الى العكس ... ولاستفدت من هذا الفهم أما المحاضرة فقد كانت سيئة تماما ، وقد ورطني فيها الاستاذ محمود طاهر سكرتير تحرير النيل للتعريف بجهلي ـ اذ لم أكن قد درست عن خصائص الاسلام شيئاً ... كما أنني رجل لا أحسن الخطابة ومواجهة الجماهير ... وقد جئت بكلام عجيب كأي مقال أنشره في النيل جمعت عناصره في غير ترتيب ولا تحقيق ولا تدقيق وإنما هو دش والسلام ...

وزاد من سوء حظى أن الشيخ أحمد حسون أعطاني جبة لألبسها فوق (الجلابية) فجاءت الجبة قصيرة ... ضيقة لا تحمل على الاحترام كما أرادها وإنما تحمل على نقيضه ؟

ولم أزل أشعر بألم يعتصرني كلما تذكرت أن الصبي سعد أبو العلا إبن صديقي مصطفى أبو العلا قد استشرف في مجلسه لكي يستمع إلى المحاضرة ، فلما مضيت فيها ، وشهد ضعفي واضطرابي ، خبا بريق كان يسطع في عينيه ، ثم انصرف تظهر على وجهه علائم خيبة الأمل .

أحمد يوسف هاشم لأول مرة

في الأعوام ١٩٢٨ ـ ٢٩ ـ ٣٠ كنت أعمل مع والدي في الجزيرة وكان والـدي مهندساً ومقاولاً ... ثم قضيت بعد ذلـك فترة قصيرة مضطرباً بين جبل الأوليـاء حيث كان العمل يجري في الخزان ، والخرطوم .

وعدت الى شنـدي لأقضي المـدة بين عـام ٣٢ إلى ٣٥ عـاطلاً أقرأ وأكتب للصحف ... وكان لي في هذه الآونة صديقان حميان هما الريح الأمين ومحمد عثمان محجوب .. وفي نهـايـة عام ١٩٣٤ تركني كلاهما .

أحدهمـا تعين كاتبـاً في مخازن السكـة الحـديـد بعطبرة والثـاني تعين محـاسبـاً بمكتب الهندسة في الخرطوم . ولم تطب لي الحيـاة بعـدهمـا قـط في المـدينـة وأنـا رجل الوف تلعب العاطفة في حياتي دوراً هـامـا فقررت أن انتجع عملا ... وكنت أفضل أن يكون في عطبرة أو الخرطوم حيث يوجد الشخصان اللـذان لم أر دولاب الحيـاة يستطيع أن يسير بـدونهما - وخلال وجودي في شندي كنت أراسل جريدة روز اليوسف اليومية التي كان يشرف عليها الاستـاذ عبـاس محمود العقـاد ...... وقـد علقت مجلـة الفجر على هـذه المقـالات فقـالت ان معلوماتها من ركاب الدرجة الرابعة في قطار السكة الحديد .

وذات يوم قرأت في جريدة روز اليوسف أنهـا اختـارت الاستـاذ أحمـد يوسف هـاشم مشرفاً على صفحة السودان ... وكانت هذه المرة الأولى التي أسمع فيها بهذا الاسم .

وقد بدأ الاستاذ أحمد اشرافه على الصفحة بمقال يطالب فيه الزعيمين الـدينيين السيـد علي الميرغني والسيـد عبـد الرحمن المهـدي بـالوفـاق ... وأشـار إلى دعـوة السكرتير الاداري الانجليزي للزعيمين إلى مكتبه وتركهما منفردين بقصد تسوية خلافاتهما دون تدخل .

ووصف تصرف السكرتير الاداري الانجليزي بأنه ذر الرمـاد في العيون لأن الانجليز هم

الذين خلقوا هذه الخلافات ونموها حسب مبدأهم المأثور (فرق تسد) وسمعت من الاستاذ أحمد يوسف هاشم بعد ذلك بأنه لم يكن راضياً عما أكتب في روز اليوسف وقد حاول

التخلص مني ... ولكن السيدة روز اليوسف رفضت نصيحة أحمد وظلت متمسكة بي لأنني أمثل وجهة نظر شعب السودان ... وأخيراً فصلت السيدة أحمد نفسه عقب تخلي الاستاذ محمود عزمي حامي أحمد يوسف عن جريدة روز اليوسف ولم ألبث أن غادرت شندي الى الخرطوم ....

وشجعني على السفر البكباشي ـ اللواء الآن ـ حامد صالح (أركان حرب السواري يوم ذاك) وكتب رسالة يزكيني فيها إلى الامام عبد الرحمن المهدي .

وحامد صالح رجل خير يعمل لمساعدة الآخرين ما وسعه ....

وقد كان في ذلك الحين مصدر حركة وحياة في شندي بقي أثرهما حتى هذه اللحظة ... وعمله على انشاء النادي يعتبر نقطة تحول .....

كما شجعني الدكتور زكي مصطفى حكيمباشي مستشفى شندي ، وكان جاراً لنا ... وقد كان لي بمثابة نافذة على العالم الكبير ان صح هذا التعبير ، بما كان يمتاز به من فهم لشؤون السودان والعالم وسعة في الثقافة وعمق في الادراك وطيبة واشراق نفسي وحب للخير .

وقد حاول تقويم ذهني ، وايصالي الى تفكير الآخرين ... ولا يغض منه أنه كان يؤذيني عند اتصاله بجماعة الفجر في الخرطوم بما يذيعه لسانه السليط من سخريات صغيرة .

أحمد يوسف هاشم أيضاً

عرفت اسم الاستاذ أحمد يوسف هـاشم كما أسلفت في عـام ١٩٣٤ عنـدمـا كنت أراسل جريـدة روز اليوسف اليوميـة من شنـدي ، وكان يتولى الاشراف على صفحـة السـودان في هذه الجريدة من القاهرة إبان لجوئه اليها ، وقـد قـابلتـه لأول مرة شخصياً في أواخر عـام ١٩٣٥ ، عندمـا عينـا محررين في جريـدة النيل حين استغنى عن خـدمـات الاستـاذ حسن صبحي ، وكان تأثير الاستاذ أحمـد منـذ اللحظـة الأولى على شئون الجريـدة كبيراً .. وكان مرجع هذا التأثير في الدرجـة الأولى الى التجـاوب الكامل بينـه وبين مـدير الادارة ورئيس التحرير الشيخ الحاج الأمين عبد القادر وهو قريبه ... وكان مرجعه في الدرجة الثانية إلى حـذق عرف بـه أحمـد طـوال حيـاتـه ومرونـة ونضـوج وقـدرة بـالغـة على طيّ النـاس ومسايرتهم ، وقد تولدت بيني وبينه عاطفتـان تكادان تكونـان متنـاقضتين ... حب ونفور ولا أقول بغض ..

حب تغلغل في صميم قلبي ونفور بسـط ظلـه على بعض تصرفـاتي ، ودفعني إلى ألـوان من التخبـط أخجـل الآن حين أذكرهـا . وإذا كان مصـدر عـاطفـة الحب هـو الانسجـام الروحي بين شخصينا فان مصدر النفور هو القصور الذي أحس به ازاء ما أمتـاز بـه أحمـد من استعلاء وبراعة وتفوق وتقدير ، يجده في المحيط العام .. وقـد كنت دائماً ضحيـة نفس ذات طموح مهيض الجناح .

نفس أعطتها الأقدار الرغبة ، ولم تعطهـا الاستعـداد ، وقـدمت لهـا الأمنيـة دون أن تعد لها الوسيلة . وبدأ الاستاذ أحمد منذ استهلال عمله في الجريدة يضع نفسـه موضع رئيس التحرير ويكتب مـا جـاءت منـاسبـة اسمـه مقروناً بلقب محرر النيـل ، ولفتني الى هـذه الظاهرة ، الشيخ اسماعيل السراج - وكان يعمل مصححا - فأخذت عنـد التصحيح أستبـدل

كلمة محرر النيل بكلمة محرر بالنيل وكان أحمد يقرأ الجريدة في الصباح فيلاحظ التغيير ....

وأراه يسرع وهو منفعل الى الحاج الأمين ، حيث يهدئ الرجل الوديع الطيب المسالم من ثورته ، وكان أحمد قديراً حتى على تبرير أخطائه وكنت أنا قديرا على تسويء حسناتي ، اللباقة ، والسن الى جانب الرعونة والعيّ الى جانب آخر . وكان الصراع بيننا غير متكافئ والأسلحة غير متماثلة ..... وقد بدأت المعركة على غير أهبة ولا استعداد .

الأهرام :

وتلقت (النيل) ذات يوم من عام ١٩٣٦ من الأستاذ عبد الله حسين المحرر بالأهرام ومراسل النيل في القاهرة برقية يطالب فيها الجريدة بأن ترسل برقيات يومية عن أخبار السودان بمناسبة ارسال حكومة مصر الفريق ابراهيم خيري باشا ليفاوض حكومة السودان في الترتيبات الخاصة بعودة القوات المصرية الى السودان ، ورد الأستاذ أحمد يوسف هاشم على البرقية يقترح أن تعين الأهرام مراسلا لها من بين محرري النيل بالأجر .

واستجابت الأهرام لهذا الاقتراح فدعت المحررين الى تقديم طلبات لها لتختار من بينهم من يصلح لهذه المهمة وقدم المحررون جميعاً وهم أحمد يوسف والشيخ اسماعيل السراج ويحي عبد القادر ومحمود طاهر - طلبات في هذا الخصوص ولم يكتف أحمد بالطلب بل وسط عبد الرحيم سماحة التاجر المعروف في مصر ولم أكتف أنا بالطلب بل وسطت عبد الله حسين وكان كلانا قد تعرف بصاحبه خلال مجيء البعثة الاقتصادية المصرية إلى السودان وكانا عضوين بها .. ورد سماحة على أحمد بأنه اتصل برئيس تحرير الأهرام وزكاه لديه ، ودعاه لمواصلة الكتابة فورا . غير أن هذه الرسالة لم تصل لأحمد وذهبت ظهر أحد الأيام لاستقبال اكسبريس الشمال وعندما فاجأني الأستاذ اسماعيل ابراهيم رئيس الحسابات بالتهنئة وقال رسالة الأهرام وصلتك للتو وانها موضوعة ضمن خطابات على مكتبك - وكان فرحاً لأنها أخطأت أحمد - واندفعت نحو المكتب وقد طارت في ذهني أخيلة مجنحة عن هذه النافذة التي فتحت أمامي إلى عالم أوسع ، وبحثت في لهفة عن الرسالة دون أن أعثر عليها ... وسألت كل موظفي المكتب فأكدوا أنهم رأوها دون أن يعرفوا مصيرها ، غير أنني لاحظت ابتسامة ذات معنى على فم محمود طاهر ؟؟ وكان محمود كعادته دائماً يقرأ

ما وراء الألفاظ والحوادث ، وأهملت موضوع الأهرام وان ترك في نفسي غصة ، وبعد شهر تقريباً وكنت أصحح البروفات في المساء أمسكني اسماعيل إبراهيم من يدي ثم قادني الى مكتب (..........) وعلى ظهر الخزانة داخل حقيبته عثرنا على الرسالة المفقودة . لقد كان (.....) يتهمني بأنني صادرت رسالة عبد الرحيم سماحة التي وصلت باسمه ولا بأس من أن يصادر هو رسالة الأهرام التي وردت باسمي في مقابلها ، ودقة والبادئ أظلم ... وكانت تلك الرسالة بداية لعلاقة مع تلك الجريدة استمرت سبعة عشر عاما .. صحبت فيها الأحداث خطوة ، خطوة ، فقد أبرقت ذلك المساء للاستاذ عبد الله حسين أقول فيها ، لقد استلمت رسالة الأهرام اليوم ، فهل اعتبر نفسي مراسلا لكم .. فأجاب بكلمة واحدة هي « نعم » بل كانت تلك الرسالة بداية نضال خفي ومعلن بيني وبين (......) ، نضال كان سلاحي فيه احتجاج تومض به عيناي دون أن يترجمه لساني ، وتصرفات خلفية أسرق فيها (الباك) بين الحين والحين كما يعبر الرياضيون ... ولا أنسى ذات صباح وقد أثار أحمد غضبي عنيفاً بعبارات محقرة كيف اندفعت نحوه قائلا : (وحسبتني أصيح ولم أكن) أنت قايلني شنو ؟ فأجاب في برود دون أن تختلج في وجهه جارحة : قايلك حمار ... وكان ذلك غاية ما استطعت من أعمال العنف فعدت متخاذلا متهافتا لا أكاد أطيق نفسي .

وكان أحمد لا يخفى تبرما وضيقا بي وكان دائم الشكوى مني الى اسبيرو مجلفيراس مدير شركة الطبع والنشر التي تصدر جريدة النيل ، وكان يحرض الشيخ الحاج الأمين على الشكوى أيضا . وقد فصلت في شهر واحد ثلاث مرات وأعادني في المرة الأولى السيد عبد الرحمن المهدى وأعادني في المرتين التاليتين ، الشريف يوسف الهندي أما في المرة الرابعة وقد حدثت بعد ذلك بأشهر فلم أحاول العودة فقد كان شعوري نحو الجريدة والعاملين فيها قد بلغ درجة من الحنق أنستني حتى مصلحتي الشخصية . والواقعة الأخيرة لفصلي تقدم مثالا للمعاملة التي كنت ألقاها في الجريدة يوم ذاك : ـ

لقد أعطيت في سنة ١٩٣٨ اجازة وسلفية للزواج وعند عودتي ... ولم أكد أجلس على مكتبي بضع دقائق حتى دخل على الزين هاشم مشرق الوجه (وكان يعمل محاسبا بالجريدة) وحسبته جاء يهنئني ، فإذا به يناولني خطابا ـ فلما فتحته وجدت فيه اخطارا من المستر اسبيرو بفصلي من الجريدة بتاريخ نفس اليوم ولم أثر ولم أبد امتعاضا . بل

سايرت الزين في ابتسامته وقلت : أما كان في طاقة (.....) ان يصبر أسبوعا واحدا ؟ فأجاب الزين ـ قلت ليهم ، لكنهم ما سمعوا وأضاف : وقد عينت محررا مكانك وأذكر أنني مازحته فقلت : حاج الأمين مديرا وأحمد محررا أول والزين هاشم ـ محررا ثانيا ، وهاشم الكمالي مترجما ، ومحمد عبد الله أبو القاسم كاتب اشتراكات ومرجان خادم أبو القاسم فراشا ماذا بعد ذلك ... الدور على اسبيرو وضحكت وضحك ـ وانصرفت دون أن أفكر حتى في المطالبة بما لدي من حساب ، فان بعض المواقف تجعل المرء يشعر بأنه لم يزل يعيش في عهد الغابة حيث تنازع البقاء يحيل الكائنات البشرية الى وحوش لا تفقد غير المخالب ..

زملاء غير مخلصين

كان الأستاذ أمين بابكر ـ الموظف بمصلحة المالية في عام ١٩٤٤ عضوا في مؤتمر الخريجين وكان اسمه يطفو على السطح لنشاطه بين المعسكرات المختلفة وسلاطة لسانه واستعداده الدائم لخوض المعارك ، ومشاغباته التي لا تنقطع وقوة عارضته في السعي الخفي لكسب الأنصار . أو دفع الخصوم : وكان مركزه في مصلحة المالية غير مرموق المكانة اذ كان في عداد غير المرضي عنهم ، وقد أهمل ، وفاته الأقران . ولعله لهذا السبب أو لرغبته في التحرر من القيد الحكومي أو لكليهما معا ، قد قبل عرضا تقدم به المرحوم السيد محمد الخليفة شريف للعمل مساعدا لرئيس تحرير جريدة النيل بنفس مرتبه في الحكومة ... وهو ثمانية عشر جنيها وخمسمائة مليم في الشهر وقد رفع هذا المرتب فيما بعد اثنين وعشرون جنيها . واعتبر المرحوم السيد محمد تعيين أمين كسبا لمعسكره في المؤتمر كما سمعت كلاما في هذا المعنى من السيد عبد الله عبد الرحمن نقدالله ، ولكن كليهما لم يظل على هذا الرأي طويلا وكنت أنا (سكرتير التحرير) والمرحوم أحمد يوسف هاشم (رئيس التحرير) غير راضيين عن هذا التعيين في حقيقة الأمر أولا : لأن أحمد كان يعتبر التعيين بمثابة محاولة (لتحضير) خلف له . ثانيا : لأنني كنت أعتقد أن أميناً شغل منصباً كنت أحق به وبمرتبه . وجاء أمين وفي نفسه وعند كثيرين ، أنه طاقة صحفية جبارة ذلك أن اسمه كان يقرن الى أسماء أصدقائه محمد أحمد محجوب ويوسف التني ومحمد عشري الصديق والدكتور عبد الحليم محمد والواقع أن أميناً لم يكن يعرف نفسه في نطاق التحرير الصحفي على الأقل ، وكذلك لم يكن يعرفه الآخرون وقد أخذوا بسمعة أصدقائه ووضح جهل أمين بنفسه منذ اليوم الأول فقد أخذ يكتب المقال دون تحضير لعناصره ، وفي عجلة محمومة ثم يرسله للمطبعة دون أن يعيد قراءته ، مثله في ذلك مثل كبار كبار المحررين والكتاب الذين سمع عنهم أو عرفهم ويخرج المقال فاذا به غير مفهوم ، لقد كان يكتب كثيرا دون أن يقول شيئا ، وأصبحت مقالات أمين (غير المفهومة) مثار الأحاديث هنا وهناك وموضع

تندر بعض الصحف وجريدة المؤتمر خاصة ، وكان علي حامد الساخر اللاذع يختار منها لقطات ويبرزها ثم يترك للقراء مهمة البحث عن المعنى الخفي .

وقد اجتار في هذه الظاهرة أصحاب الجريدة والقراء والدوائر الرسمية ولم يرتح لهذه الظاهرة غير المرحوم أحمد يوسف هاشم وغيري لقد كنا سعيدين بهذه النتيجة لأن فيها درسا قاسيا لبعض الناس . وشجعنا أمينا وافسحنا له المجال ، ولم يكتف أحمد بذلك بل سافر الى القاهرة وترك أمين الجريدة فقد اطمأن اليه تماما . وذهب أمين في رحلة الى النهود وجاء منها ثم كتب سلسلة من المقالات طلب سير دوجلاس نيو بولد السكرتير الاداري أن تترجم له ويرجع اهتمامه بما يكتب عن تلك المنطقة الى عمله في الغرب طويلا والى صلة أصحاب الجريدة بها انها منطقة أنصارية وطلبني المرحوم الاستاذ حسن عثمان اسحاق وكان يشغل منصب كبير المترجمين بمكتب الاتصال العام فذهبت اليه حيث وجدت معه المستر ادوارد عطية ومتولي عيد وكانت بين أيديهم مقالة لأمين بلبكر يحاولون حل ألغازها دون جدوى ، وسألوني عما يقصد ؟ فقلت : ولم كل هذا الازعاج وأمين نفسه موجود ويمكن الاتصال به تليفونياً لمعرفة أسرار المقالة فأجابوا بصوت يكاد يكون واحدا : سألناه ولكنه هو نفسه لايدري ماذا يقصده ؟ وضحكنا جميعا ....

ونصحتهم بأن يفكروا فيما كان يريد أن يقول أمين ، ثم يكتبونه بالانجليزية رأسا ويرسلونه مباشرة للسكرتير قطعا لدابر الازعاج ، وذكرت لهم أن أمين رجل محاسب وقد أدخلته السياسة والصداقات والطموح رواق الصحافة وهو غير متأهب لخوض هذا الغمار ، وقد فعل ما يستطيع وليس لأحد عليه بعد ذلك من سبيل ولم يحدث بعد ذلك بيني وبين أمين اصطدام ، لذا انعدم مجال التنافس بيننا ، ولكنني أذكر حادثتين الأولى : أنه رفض نشر قصيدة أرسل بها الي الاستاذ خليل مطران شاعر القطرين عقب عودته من السودان مجد فيها هذه البلاد وأهلها وكانت تعني سبقا صحفيا خطيرا في ذلك الحين لالسبب إلاّ لأن مطران أرسل القصيدة عن طريقي وقد اضطررت لاعطائها للسيد فوراوي حيث نشرها في صحيفة الأخبار الاسبوعية أما الحادثة الثانية : فقد وقعت حينما احتفلت جريدة النيل بعيدها العاشر في عام ١٩٤٥ فقد تقرر في البرنامج أن أقدم أنا المتكلمين ـ وفيما كنت أفعل جذبني أمين لأجلس كي يحل محلي ولم يكتف بذلك بل لاحق الصحف حتى لاتنشر اسمي

عند وصفها للاحتفال وقد فعلت كلها ما اراد ، ماعدا صحيفة واحدة هي « سودان استار » فان بشير محمد سعيد سجل الحقائق كما وقعت . وعسى أن يكون أمين قد حسب اختياري لتقديم المتكلمين مؤامرة بيني وبين أحمد يوسف هاشم للغض منه واغفاله فمضى يتصرف هذا التصرف المضطرب غير الحكيم وكان أمين يعاني في النيل حينئذ فترة احتضار ولم يطل به المقام حتى خرج ليعود للوظيفة من جديد .

سبق صحفي

في عام ١٩٤٣ كانت الحرب بين الحلفاء والمحور لم تزل عنيفة مروعة ... وكان البحر الأبيض المتوسط أشبه ما يكون بالاتون الملتهب لاشتداد المعارك بين أساطيل الكتلتين وجحافل طائراتها في شتى أرجائه .

وكان السفر عن طريق الجو والبحر بين انجلترا ومصر عبر البحر الأبيض المتوسط لهذا السبب غير مأمون العواقب . وكان لابد من دورة طويلة يتجنب فيها المسافر مناطق الخطر قبل الوصول الى غايته .

خبر كبير

وذات صباح زرت كعادتي السيد محمد علي سليم مدير مكتب مفتش عام الري المصري في الخرطوم أسأله أخباراً للأهرام بوصفي مراسلا لها .. وكان محمد على يبرني بكل ما عنده ... فهو لم ينس قط زمالته لوالدي بقسم الهندسة في كلية غردون . وما كان يربط بينهما من ود وثيق ... وخفت من صوته حين رآني أدنو منه ثم قال : لديَّ خبر كبير لك سوف يهز القطر المصري ووزارة النحاس باشا هزا ...

ومضى في حديثه دون أن ينتظر ردا فقال : اذا أعطيتك هذا الخبر - وهو على جانب كبير من السرية - فلا يجب أن تذكر اسمي ، ان هذا الرجل - وأشار الى مكتب السيد عبد القادر مفتش عام الري - لا يقبل مثل هذا التصرف .. وما أسهل ما يثور ؟ أجبت - لن أذكر اسمك بالطبع ....

أضاف : أكتب - وكان يفضل أن يصوغ الأخبار التي يرويها بأسلوبه ... وهو أسلوب بارع دقيق بليغ - وصل الى جنوب افريقيا قادما من لندن على متن الجو سعادة السيد حسن نشأت سفير مصر هناك في طريقه الى القاهرة وقد أعد له استقبال حافل في الخرطوم حيث ينتظر أن يقضي ليلة قبل أن يستأنف رحلته .

منطق

وكان الخبر كبيرا كما قال فقد تردد أن الملك فاروق ضاق ذرعا بالنحاس باشا ، لأنه جاء للوزارة محمولا على الدبابات البريطانية وأنه أي الملك بذل جهدا خارقا لكي يسترد ارادته في اقالته ويختار وجها جديدا يخلص له ووقر في النفوس أن نشأت باشا وهو من رجال القصر المقربين ربما كان ذلك الوجه الجديد .

وكان المنطق يرجِّح هذا التقدير فان ترك نشأت لمقر منصبه الهام في هذا الظرف العصيب ، ومغامرته ، في رحلة محفوفة بالأخطار ، لا يعنيان الا أن الملك استدعاه على وجه السرعة لأمر لا يحتمل الامهال أو التأجيل .

بين الأهرام والمقطم

وأبرقت للأهرام بالنبأ في الحال ... وقد نشرته غداة ذلك اليوم في مكان بارز ، بعد أن صاغته في هذا القالب البسيط : (غادر لندن في طريقه الى القاهرة سعادة حسن نشأت باشا) ـ ولم تشر الأهرام الى مصدر الخبر أو أين مقر حسن نشأت باشا في تلك اللحظة ولَعلَّ الرقابة هي التي منعت نشر هذه التفاصيل لسبب أو لآخر .

وحدثت الضجة التي كنا نتوقعها ، ونشرت المقطم وهي جريدة مسائية في اليوم نفسه تصريحا تنفى فيه خبر الأهرام ، وعزت النفي الى مصدر كبير في القصر الملكي .

وأبرقت أنا من الخرطوم للأهرام في نفس المساء بخبر وصول نشأت باشا للخرطوم ، واستقباله وزياراته وميعاد مغادرته للخرطوم وميعاد وصوله القاهرة ومجموعة من ـ التحبيشات ـ ...

ونشرت (الأهرام) في الغداة رسائلي كاملة واستهلت تلك الرسائل بالعبارة التالية التي جمعت الى أسلوب ـ الجميل ـ الهادئ الرصين المليء بالحكمة المثير للحفيظة وتهكم جبرائيل تقلا ـ الذي يلهب الظهور دون أن يجرح ـ قالت الأهرام :ـ

(تبرعت جريدة المقطم أمس دافعة أو مدفوعة بتكذيب الخبر الذي نشرناه عن مغادرة نشأت باشا لندن في طريقه إلى القاهرة مستنداً في ذلك الى مصدر زعمت أنه كبير ؟ وإنه في القصر الملكي ، وقد تجاوزت الحق والصحة في كل مزاعمها) .

(وفيما يلي التفاصيل التي وافانا بها مراسلنا الخاص في الخرطوم) وتلقيت من جبرائيل تقلا صاحب الجريدة هبة مالية ومن الجميل رئيس التحرير كلمة شكر وثناء ....

وقد كان للهبة والكلمة تأثير السحر في نفسي فكلا الرجلين كانا من الشخصيات الصحيفة الشهيرة النابضة بالحياة والقدرة في الشرق الأوسط ... وكان لآرائهما وزن عظيم .

وكنت يوم ذاك والشباب وثاب والآمال زاخرة والطموح متسع والمجال رحيب ، اثق في المستقبل وأومن بالحاضر وأشعر بقوة غلابة تجعل كل الصعاب أمامي يسيرا تخطيها ، وكل أسباب الضيق والحرج سهلا ازالتها .

ولقد كان يخيل الى يوم ذاك أنني ماضٍ في طريق ممهد مفروش بالورود والرياحين وأنني أخطو نحو القمة في سرعة وتركيز وثبات .. وأنني دائماً الأقوى ولم يخطر ببالي قط أن التجارب سوف تعطيني دروساً مريرة تعلمني أن الحياة ليست كما نخطط نحن وانما كما يخطط القدر واننا لسنا أكثر من حجارة شطرنج في يد لاعب ماهر يضعها حيث أراد لا حيث نريد .

أنباء السودان العدد ٨٤٨ بتاريخ ١٩٦٧/٥/٣٠

كذب رسمي

سمعت باسم الاستاذ صالح عرابي لأول مرة في عام ١٩٤٦ وكان يراسل جريدة الأمة من القاهرة ويذكر أنه سوداني استقلالي ؟

وجاء صالح الى الخرطوم بوصفه مندوبا عن مجلة « روز اليوسف » وقد نشرت له المجلة بضعة مقالات كانت مملوءة بالنفاق السياسي للحزب الذي وضع نفسه في خدمته ، ولم يلبث أن عين في جريدة الأمة محررا . لم يكن صالح كعادته حريصا على مواعيد العمل أو على الالتزام بمسؤولياته الكتابية مستعينا بصلاته الشخصية على استمرار المرتب .

خطط

وذات يوم بينما كان صالح منهمكا في الضحك و « التريقة » وشرب الشاي مع فوراوي في مكتب مجلة « الأخبار » اذا بالتلفون يرن والمرحوم يوسف التني رئيس تحرير الأمة يطلب صالحا لموافاته في الجريدة غير أن (صالحا) وهو مسترسل في هذه الجلسة الطريفة اعتذر عن الحضور فلما هدده يوسف باتخاذ اجراء صارم ، صاح (صالح) في التليفون منفعلاً (طظ) ورمى بالسماعة و (صالح) يجمع بين الشجاعة والحمق . وما هي إلا دقائق حتى تلقى أمراً بفصله من الجريدة .....

مخالفة

وعين (صالح) في جريدة النيل وكان السيد عبد الله الفاضل المهدي مديرا لشركة الطبع والنشر التي تصدر الجريدة وزار سيادته دار الشركة ذات نهار في رمضان ليتعرف على سير العمل وفوجئ بصالح يدخل عليه وهو مشعل سيجارته . ولم يقل السيد عبد الله شيئاً ولكنه رفض طلبا تقدم به صالح (بسلفية) ثم فصله بعد ذلك لأول مخالفة وما أكثر مخالفات صالح ؟

ارتباط

وارتبط صالح بداؤود عبد اللطيف نائب مساعد نائب السكرتير الاداري لشؤون الأمن يوم ذاك بصلات وثيقة . ولم تكن (النوبية) هي كبرى الروابط بينهما فكلاهما لا يستعمل عنصريته إلا عند اللزوم ، ومن الظاهر فقط ، وكان داؤود يعجب بصالح ويرى فيه الكاتب الساخر الأول في الشرق الأوسط واستطاع أن ينقل هذا الاعجاب الى نفس المستر هندرسون مساعد نائب السكرتير الاداري لشؤون الأمن وآخرين من البريطانيين ....

وكانت في ذهن داؤود خطة فقد مكن لصالح من الظفر بترخيص لاصدار صحيفة التلغراف الاسبوعية بعد أن أخمدت أنفاس صحيفة (الحادي) لصاحبها محمد أحمد عمر ثم كانت هناك محاولة لاقصائي عن مراسلة جريدة الأهرام ولعل اسم (صالح) كخلف كان في الحساب أما كيف ؟ فهذا مالم أقف عليه في حينه .

سير جيمس

لقد كنت في ذلك الوقت أراسل جريدة « الأهرام » كعمل رئيسي وأراسل المصور وروز اليوسف ومسامرات الجيب وأكتب في الصحف كعمل اضافي ... وقد تقدمت بأسئلة لسير جيمس روبرتسون السكرتير الاداري لحكومة السودان بوصفي مراسلا للمصور .

وتلقيت الردود كتابة وعن لي كالهام فلخصت ماجاء بها وأبرقت به للأهرام .

ولما كانت مجلة (المصور) لم تنشر حديثا لي مع المستر وليامز مدير المعارف يوم ذاك سبق أن أرسلته لها ، فقد خشيت أن تفعل بحديث مستر جيمس ما فعلته بحديث وليامز ، وتحرجني فحولته الى مجلة مسامرات الجيب مع مقدمة وصفت فيها الرجل بأنه استعماري داهية ذو نفوذ واسع وقبضة من حديد .

وكان في ظني أن هذا الوصف يرضيه ولم تكد تصل المجلة التي نشر فيها الحديث حتى انقلبت الدنيا لقد شوِّه موقفي تشويها بالغا وأرسل مكتب السكرتير الاداري للأهرام يقول ان السكرتير الاداري رد على أسئلة تقدم بها يحي عبد القادر بوصفه مراسلا للأهرام لما يكنه من احترام لهذه الجريدة ولكن هذا المراسل غير المسؤول نشر الحديث في مجلة

مسـامرات الجيب وهي مجلـة لا ترقى الى مسـتـوى احترام السكرتير الاداري .... وثـار (انطـون الجميـل) رئيس تحر ـ الأهرام لأن خطـاب مكتب السكرتير الاداري مسّ مكان الحساسية من تلك الجريدة ذات التقاليد ـ وهي مكانتها السامية في العالم العربي التي كانت شديدة الاعتزاز بها ، وكانت براعة كاتب خطـاب السكرتير الاداري أنـه ضغـط على هـذه الناحية ضغطاً شديداً مما يدل على أن له هدفاً وهو القضاء عليّ من ناحية ، وانـه يعرف في دقـة نقـاط الضعف في تلـك الجريـدة الكبيرة وفي ذلـك مـا ينم عن شخصيتـه من نـاحيـة أخرى . وتلقيت من الأهرام خطابا شديـد اللهجـة يطـالبني فيـه بـايضـاح موقفي البـالغ السوء ، وكنت أملك لحسن الحظ صورة الخطاب الرسمي الذي جاءني من مكتب السكرتير الاداري مشتملا على ردود السكرتير وقد صدر بالعبارة التالية :ـ

(أجوبة سير جيمس روبرتسون السكرتير الاداري على أسئلة الاستاذ يحي عبد القادر مراسل المصور) .

وسرعـان مـا أرسلت هـذا الخطـاب الى جريـدة الأهرام معلقـا عليـه بـأن مكتب السكرتير لجأ الى هذا الـدس الـدنيء عنـد الأهرام بقصـد التخلص مني ، لأنـه لم يستطع أن يشتريني وهو أسلـوب استعماري معروف لـديكم (وكنت أعرف أن مثـل هـذه الآراء تروق لهم) وأضفت ـ : ومـع ذلـك ألفت نظركم الى أنني قـد أبرقت بملخص حـديث السكرتير للأهرام في حينه .. وسواء أكان قد نشر بعد ذلك في المصور أو المسامرات فـان الأمر أصبح لا يعنيهـا . وبفضل هـذه « الكـذبـة الرسميـة التي شـاء الله أن تفتضح تـوطـد مركـزي في الأهرام » .

حرمان

على أن مكتب السكرتير لم يتراجـع فقـد أصـدر قرارا بحرمـاني من حضـور المؤتمرات الصحفيـة ومن الاستفـادة من النشرات الرسميـة ومن تلقي أحـاديث المسؤولين ... وهـو حرمان لم يطل أمده فقـد جـاء مستر آربر وألغى القرار ... ومستر آربر شخصيـة انسـانيـة كبيرة وكان لتعيينه مديرا للعلاقات العامة أثر تاريخي في خدمة الصحافة السودانية .

قضية قذف و براءة

في عام ١٩٤٧ قدم رجل من الغرب الى حلفاية الملوك وقرع منزل البكباشي بالمعاش علي بشير ... وعندما فتح الأخير الباب ، وتبادل مع الرجل الحديث ، انهال عليه الرجل طعنا بسكين كان يخفيها بين طيات ثيابه ، أودت بحياته في الحال .

ضجة وتكهنات

لم يكن ثمة سبب واضح يدعو الرجل الذي جاء من أقصى الغرب ممتطياً قدميه أشهرا معدودات الى قتل شخص لم يكن بينه أي عداء أو خلاف بل لم يكن يعرفه أو يعرف هويته بل لم يلتق به طوال حياته الا هذا اللقاء الأخير ... لقاء الموت ...

وضجت العاصمة وكثرت الشائعات ، وتعددت التعليلات والتفسيرات والتكهنات ، ولكن أحداً لم يستطع أن يصل الى رأي يمكن الاقتناع به .

مقابلة ذات عواقب

وقابلت ذات أصيل السيد أمين شاذلي من كبار ضباط البوليس وكانت لي به سابق معرفة وأخذنا نتناول هذا الموضوع الذي شغل الناس بالتحليل فقال لي : أن دوائر البوليس أخذت تتحول الى فهم جديد ...

أنصاري قد أفنى ذاته في مذهبه الديني و (تدروش) يفهم ان في ـ الحلفاية (اسم الخرطوم بحري قديما) رجل يدعى ـ علي ـ يناوئ السيد الامام عبد الرحمن المهدي زعيمه الروحي فيسعى على قدميه أشهرا معدودات تعبيرا عن معنى الاصرار والتجرد ... ويسأل عن ـ الحلفاية ـ فيدل عليها فيسأل عن منزل ـ علي ـ فيدل عليه ـ فلا يداخله الشك في أنه المنزل المقصود لأنه كان أكبر المنازل وأفخمها ، وأضخمها ، ويتجه الى المنزل في خطى ثابتة حيث يقتل صاحبه طالبا الشهادة والمثوبة من عند الله ثم يستسلم بعد ذلك في سهولة

ويسر دون مقاومة ... ودون أن يمس أحداً آخر بسوء ، حتى أولئك الذين أوسعوه ضرباً وركلاً .

السبق الصحفي

وسارعت بعد أن فارقت أمين شاذلي الى مكتب التلغراف فأبرقت - لجريدة الأهرام - وكنت مدير مكتبها في الخرطوم بالتعليل الذي ذهب اليه البوليس بوصفه تصريحا أدلى به أحد كبار ضباطه .. أن الصحفيين الذين تتلبسهم مهنة الصحافة لا يستطيعون ازاء الخبر الكبير أن يتماسكوا .. ان النار المقدسة التي تتأجج في صدورهم لا تترك لهم فرصة للتفكير ، بل تدفعهم في الحاح عنيف لنشر الخبر والسبق فيه وتقييده كرصيد لحسابهم في عالمهم العريض ...

ضيق وبلاغ

ونشرت الأهرام الخبر ... ورددته الخرطوم ... وفي مجالس المرحوم الامام السيد عبد الرحمن المهدي ذكر الخبر ، وقيل له ربما فسر الناس سكوتك تفسيرا يلائم دعاة التفرقة من وراء الحادث ..

وراء الحادث

والامام عبد الرحمن المهدي الذي يكره العنف والذي يسعى دائباً لازالة أسباب الخلاف بين طائفتي الختمية والأنصار لاعتقاده بأن الاستعمار هو الذي وسع من شقه الخلاف بينهما ، وأنه لم يزل يعمل لتوسيع هذه الشقة ، قد ضاق بهذا الخبر ضيقاً شديداً وطلب أن يقدم بلاغا ضد مدير مكتب الأهرام بالخرطوم أعنى ضدى . بتهمة القذف ...

لم يكن قصده الاساءة اليّ أو النيل مني أو معاقبتي قضائيا وهو الزعيم الذي عرف بالتسامح وسعة الصدر ، انما كان قصده أن يجري تحقيقا علني ويعلم الناس أن سيادته بعيد عن الحادث ، وأنه يدينه وأنه يزود عن السيد علي الميرغني والختمية كما يزود عن كل المواطنين السودانيين باخلاصه المثالي وان الاغتيال ليس وسيلة ، من وسائله ، ولا من وسائل الأنصار وحزب الأمة وآل المهدي .

لقد كان يريد أن يدفع عن سمعة الأنصار وسمعة حزب الأمة وسمعة آل المهدي أية شائبة نتيجة ما أذيع وتردد ونشر هنا وهناك ...

التحقيق

وجرى التحقيق وقد قام به السيد ميرغني الأمين حكمدار المباحث يوم ذاك وكنت حريصا في البداية على ألا أذكر اسم الضابط الذي أدلى الي بالتصريح إلا أن السيد ميرغني أقنعني بأن الضابط لن يصيبه سوء من هذا التصريح بالإضافة إلى أن ذكر اسم الضابط قد يعني أن التعليل غير مخترع ، وأنه جزء من اتجاه التحريات البوليسية القائمة وليس مؤامرة لتشويه سمعة الأنصار واقتنعت وأدليت باسم الضابط والمكان والتاريخ والساعة التي حصلت فيها على هذا التصريح .

وأطلق سراحي بالضمان ، وقابلني الاستاذ اسماعيل عتباني صدفة بالقرب من مكتب بريد الخرطوم وندد بي لتقديمي اسم الضابط الذي أفضى إليّ بالتصريح وقال في غضب جامح : انك تستحق الفصل من اتحاد الصحافة . وكرهت نفسي لضعفي الذي أغضب على زملائي ... وما أكثر ما أكره ضعفي بل أكره نفسي ولكن هل يستطيع المرء أن يغير خلقه بخلق جديد ؟

وبعد انتهاء التحقيق والتحريات ثبت أن الرجل القاتل كان مخبولاً وأن الرأي الذي اتجه اليه التحقيق في بعض منعطفاته كان ضربا من ضروب خيالات أحد القومندانات الانجليز الذي قدم من الهند ـ حديثا ـ واكتفي بنقل أمين شاذلي الى الأبيض ولم تتأخر ترقيته .

ودعاني المرحوم الاستاذ زين العابدين ابراهيم بلال سكرتير الامام الى السراي ... وقال لي أن السيد يطلبك فهرعت اليه وكان الوقت مساء ... وكان السيد يجلس في الميدان الأخضر القائم داخل السراي والى جانبه السيد ابراهيم أحمد والسيد محمد الخليفة شريف وآخرون .

وبادرني السيد في عبارة تفيض رقة ... قائلا ... طيبين ثم أشار الى مقعد بجواره وقال : اجلس ... فجلست ونظر الي بعينين نفاذتين تجمعت فيهما كل قوة روحه

وشخصيته ، ولم يزل تأثير هـاتين النظرتين حتى هـذه اللحظـة عـالقـا بنفسي رغم مرور ١٦ عاما ، على هذا اللقاء وقال السيد الامام : ألم يأن أن تطمئن الى مقامـك بيننـا يـا يحيى .. أجبت في رقة لا تخلو من تعجب ؟ وهل بعدت عنكم يا سيدي فقال : باسلوبه الذي يجمع أحيانا بين السؤال والجواب معا (وقد أشرق وجهه واتسعت ابتسامته) أأنت معنا حقـا ؟؟ أجبت نعم يا سيدي .

فازداد وجهـه اشراقـاً ووضع يـده على رأسي ، ودعـا لي بـدعوات خـافتـات وقـال : ـ لا تكثر من التنقل ـ اننا لا نحتاج اليك لشخصنا .. ولكننا نرى موهبة كامنة ونريـد أن نميها لكي ينتفع بها الوطن كله . وكان يكثر من تكرار هذه العبارة كلما قابلته .

تساؤلات

وانصرف عني بوجهه ليتحدث الى جلسـائـه ودعـاني الاستـاذ زين العـابـدين ، وكان يقف عن كثب منا ... وقال لي : ان السيـد راضٍ عنـك الآن بعـد أن كشف التحقيق عن جلاء صفحتـك ، وخرجت من سراي الامـام ... وانـا أتسـاءل هل كانت تصرفـاتي في هـذا الحادث صحيحة ؟؟

بل هل كانت تصرفـاتي في حوادث أخرى صحيحـة ؟ ولعل هـذه التسـاؤلات لم تزل حتى الآن بغير جواب ...

وريث غير شرعي

كنت في عام ١٩٤٩ أراسل جريدة الأهرام وأدير مكتبها في الخرطوم ، وأصدر صحيفة المستقبل الاسبوعية ... وتوطدت بيني وبين الاستاذ محمد زكي عبد القادر المحرر الأول بالأهرام وعضو مجلس الاذاعة الأعلى صداقة أكيدة وثيقة ... وصدف أن تناولت في حديث تليفوني دار بيني وبينه أطرافاً من متاعبي المالية فاقترح علي في صوت يختلج بالعطف أن أكتب للاذاعة المصرية أطلب القيام بمراسلتها في الخرطوم .

وقال لي (وكأنه يومئ من طرف خفي الى عضويته لمجلس الاذاعة الأعلى وقدرته على تقديم أية مساعدة) - ان الاذاعة في استطاعتها أن ترتب لك مكافأة شهرية مجزية .. فاذا أضيف الى ما تحصل عليه من الأهرام تكّون لديك مبلغ معقول ... أعانك على العيش وكفل لك الاستقرار ، وأسرعت بالكتابة الى الاذاعة ... ولم أكتف بذلك بل أرسلت خطابين آخرين حول هذا الموضوع .. أحدهما للاستاذ عبد الحليم محمود من كبار المصريين والآخر للاستاذ حافظ محمود وكيل نقابة الصحفيين بمصر وهو من الأحرار الدستوريين وكانت الوزارة تتكّون في ذلك الوقت من هذين الحزبين ....

ولم يطل بي الانتظار حتى جاءني رد رسمي من الاذاعة ينبئني بأن الموافقة المبدئية قد تمت ، وان الأمر سيعرض على مجلس الاذاعة في أول اجتماع له لتحديد المرتب وتقدير الوضع ...

وابتهجت فقد آن لي بعد طول كد وعناء أن استجم وأهدأ ... وجرت الدماء حارة في عروقي وانتقل النشاط الى كل طرف من أطرافي وعجزت أن أجلس في مكان واحد ... وخطرت لي فكرة في غمار هذا الطوفان من المشاعر المتوثبة لم لا أذهب الى الكردي مفتش عام الري المصري بالسودان وكبير المهندسين وأبلغه الحظ الذي أتيح لي ، ثم أدعه يتوسط لدى الاذاعة عساها تجعل المرتب كبيراً والوضع ممتازاً لقد خدمت الكردي عن طريق

(الاهرام) السنوات الطوال ، دون أن أتلقى جزاءاً أو أنتظره ... وقد حانت الفرصة لكي يكافئني وطرت الى مصلحة الري المصري بالخرطوم وجلست الى جانب السكرتير والأحلام الزاهية تتضارب في رأسي ... ويدي تعتصر سيجارة مطفأة لم أرد اشعالها ، وأنا على وشك الدخول على الرجل الكبير .... وقابلني الكردي وأصغى الى حديثي ... وكان الكردي خشن المظهر وله وجه كثير التضاريس كأنه قد من صخرة لم تهذب ... ولكنه كان يخفي قلبا في بياض الثلوج ، ويتأجج وطنية وغيرة وحماسة ... وبعد أن أمر أحد موظفيه بنقل صورة من خطاب الاذاعة وعدني ببذل أقصى جهده لمساعدتي .. وخرجت وقد ازددت اطمئنانا ورضا .. ومضى شهر وتلاه آخر دون أن يصلني اخطار من الاذاعة وأخيراً علمت أن مراسلة الاذاعة قد اسندت الى الاستاذ محمد أمين حسين مدير جريدة صوت السودان وخصص له منزل .. وكان قد خرج من السجن يوم ذاك بعد أن قضى فيه بضعة أشهر بسبب مهاجمته العنيفة للبريطانيين ... ودهشت ثم ذهبت للكردي في مكتبه وأذكر أنني دخلت عليه بغير استئذان فاستقبلني متجهما لا ينبض في وجهه عرق من البشاشة .. وقال لي في عبارات جافة حازمة ، الحقيقة أنني حوّلت مراسلة الاذاعة منك الى محمد أمين لأنه ضحى وسجن ومركزه في صوت السودان مهدد .... وحدق في وجهي طويلا دون أن يطرف له جفن ثم قال أنني في الواقع لا أثق بك من الناحية السياسية لأنك ذو ميول استقلالية .. وأنني أعلم أن لك صلة بالمستر آربر وعبد الله خليل وأحمد يوسف هاشم وربما كنت على علاقة بحزب الأمة ثم أين أنت من الحركة الوطنية هل كتبت أو خطبت تهاجم البريطانيين ؟ ويخيل الى من أخبارك في الأهرام أنك خصم لحزب الأشقاء الذي يقود هذه الحركة ... ومضى يلقي بالتهم جزافا في غير حرص ولا حذر كأنه ينفس عن شعور كظيم طال عليه الكبت ... وخانني التعبير فلم أدافع عن نفسي .... وكانت الصدمة من القوة بحيث حبست لساني فاستدار في حلقي دون أن ينبعث منه صوت . ولم أتحرك من موضعي حتى صرفني بيده كأنه يحاول تنظيف مكتبه من قاذورة لوثته .

ومضيت في طريقي ورجلاي لا تكادان تحملاني وعيناي قد أظلمتا وسرى في جميع جسمي ارهاق مؤلم ثقيل ... وقد كان شعوري بالمرارة أضعاف شعوري بالخزي ... لقد كان الكردي صديقا وأطلعته على ما حسبته سرا بهذه الصفة .. فلم فعل بي هذا كله ؟ ... لم مرغني في التراب في قسوة وغلظة ثم داس عليَّ بقدميه كالحيوان الجريح ؟ لم هذا التحول

المفاجئ بغير مقدمات ، هل طغى شعوره كمواطن مصري على عاطفته كصديق ؟ هل نظر للمسألة من أفق أوسع ؟ هل كان ثمة عامل آخر تدخل في موضوعي لا يستطيع شرحه فأراد اخفاءه بهذا الاسلوب الذي طبع بالمبالغة والاسراف في القسوة في غير ما ضرورة لها ... ولم أغفر للكردي ما فعله بي قط ، ولم أزل أحس بلذعات تنكره وتحقيره لي كأصابع من نار بين جوانحي ... الآن قد هدأت العواطف وأصبح الماضي تاريخاً أحب أن استعرض تصرف الكردي بحسبانه قضية خلقية فهل كان يصح أن يستخدم معلومات أدليت له بها بوصفه صديقا ، لغرض يضر بي ويصلح من أمر آخرين ... وهل يبرر الغرض الأسمى الذي هدف اليه ما اتبع من وسيلة ؟ تلك هي المسألة وتحضرني بهذه المناسبة واقعة قريبة فيها تفريق واضح بين وجهتي نظر وهي هنا تمثل وجهة نظري وتغنيني عن التعليق ... فقد كنا جلوسا في وقت متأخر من الليل في مكتب جريدة (الصراحة) بعمارة غطاس ... ولمحنا في ظلمة السلالم أشباحا تصعد الى جريدة العلم التي كان يحررها الدكاترة عقيل أحمد عقيل و محي الدين صابر وأحمد السيد أحمد وأرسلنا من يستوضح الأمر ثم جاء وذكر أن عبد المنعم عبد الحي الضابط في الجيش المصري والطيب محمد خير وبعض الضباط المصريين يتسللون الى مقر تلك الجريدة ... واقترح بعضهم - وكانت بين العلم الاتحادية والصراحة الاستقلالية عام ١٩٥٣ مهاجمات عنيفة - ان تستغل الصراحة هذه الزيارة المريبة في مهاجمة العلم ... وبخاصة والجمهور كان ثائراً في ذلك الوقت على تصرفات الصاغ صلاح سالم فأجاب عبد الله رجب في لهجته الصريحة الصارمة : هل تريدني أن أستفيد من معلومات حصلت عليها بوصفي جارا للاضرار بذلك الجار أنها نذالة لا ارتكبها ؟؟؟

لماذا ساءت العلاقات بيني وبين جريدة الأهرام ؟

عملت في جريدة الأهرام سبعة عشر عاما فقد بدأت مراسلتها من الخرطوم في عام ١٩٣٦ عقب عودة الجيش المصري الى السودان بموجب المعاهدة التي ابرمت بين دولتي الحكم الثنائي يوم ذاك ، وانفصمت هذه العلاقة في عام ١٩٥١ حين اشتدت الحركة الداعية لوحدة وادي النيل وكثر اتهامي (بالانفصالية) .

وكانت الوسيلة التي لجأت اليها « الأهرام » للتخلي عني وسيلة جد مبتكرة ... ولكنها لا ترقى الى مستوى تقاليدها المشهورة .... وفي إيجاز ما أمكن أحاول أن أوضح فيما يلي لماذا ساءت العلاقات بيني وبين جريدة الأهرام .

التوزيع

في عام ١٩٤٨ تعاقدت مع إدارة جريدة الأهرام على أن أتولى توزيع الجريدة في الخرطوم بالإضافة الى عملي الأساسي كمراسل لها .

وبدأنا العمل فورا وكانت الجريدة تصلني بالطائرة يوميا ـ وكانت أول جريدة مصرية تنقل بالطائرة الى الخرطوم ، وكانت قراءة صحيفة في الخرطوم في نفس يوم صدورها في القاهرة حدثا كبير أثار الإهتمام والخواطر معا .

وارتفع التوزيع في العاصمة المثلثة الى ألفي نسخة يومياً أي ضعف توزيع أية صحيفة محلية في ذلك الحين ، وخشي بعض أصحاب الصحف من المنافسة فشكوا الى الجهات الرسمية ، ورغم عطف هذه الجهات على أصحاب الشكوى إلا ان القانون لم يكن في صفهم ... فأهملت ...

صاحب الفكرة .

وكنت أزور الأستاذ أحمد مختار في مكتبته التي يشغل مكانها الآن الترزي عابدين ،

فقال لي : بصوته الرخيم المجرور ، يا أخي أنت مراسل ووكيل أكبر صحيفة في الشرق العربي وماشي بي رجليك وماليك مكتب ؟ أجبته : ولكن المكتب يحتاج الى اعتماد مالي ـ قال : اعمل المكتب والله في .... ؟

تنفيذ .

وشجعني نجاحي المستمر في توزيع الجريدة على تبني فكرة أحمد ، وحسبت ان الله سيلاحقني بالعناية حقا ؟

وكاتبت (الأهرام) وجاء مندوب من قبل الإدارة ، ولما رأى كثرة عدد الباعة والشارات الموضوعة على أذرعهم . والملابس الخاصة والتنظيم المحكم رأى ضرورة إنشاء المكتب .

ودخلنا في التفاصيل ... وبعد دراسة واتصالات زار فيها معظم مكتبات العاصمة المثلثة مضينا في تنفيذ المشروع واشترى مندوب الجريدة للمكتب من السيد حسن صالح خضر ست دراجات ليستعملها الباعة في التوزيع كما وعد بشراء سيارة خاصة وتأثيث المكتب تأثيثا فاخرا الخ ...

وتسرعت كعادتي فاستأجرت محلا مزدوجا من شركة أبو العلا ، وابتعت أثاثا مؤقتا ، وركبت جهازي تليفون ، واستخدمت موظفين اثنين ، هما عوض علي عمر وعلي محمد بشير وزدت عدد الباعة الى عشرة وكانت ميزانية المكتب في الشهر لا تقل عن مائتي جنيه وأخذت أخصم جزءا من حصيلة البيع دون أن تجيئني مناقضة من الحسابات .

إجراء شاذ .

ومضينا على ذلك ما يقرب من عامين .. وفجأة تلقيت في عام ١٩٥١ مطالبة بفرق حساب قدره ثلاثمائة جنيه بحجة أن الإدارة غير مسؤولة عن نفقات المكتب كليا أو جزئيا .. فلما رفضت الدفع قررت الإدارة خصم مرتبي جميعه شهريا الى أن يتم تغطية المبلغ المطلوب .. وهو إجراء غريب لا يتخذ إلا إذا كان يسنده قرار سري لا يجوز الجهر به إذ كيف أعيش وأعمل بغير مرتب ؟؟ وعملي الرئيسي الذي أعتمد عليه هو الأهرام . لقد فطنت الى أن القصد من هذا الإجراء هو إجباري على الاستقالة ، لأن تقاليد الأهرام

لا تبيح الفصل فلم أستقل ، وظللت أمارس إرسال الأخبار بطريقة روتينية محضة لا إبذال من مجهود إلا النقل عن الصحف المحلية والإبراق بما انقل . ومرت بضعة أشهر ، وضاق بي الحال ، واضطررت الى القيام بجولة إقليمية استغرقت أربعة أشهر لم أرسل خلالها أو بالأصح لم يرسل خلالها للأهرام من أوكلته وهو صالح عرابي حرفا ... فإن التطوع له حدود ، إذا تجاوزها أصبح عبئا لا يطاق .

وانتهزت (الأهرام) الفرصة فأرسلت إلى خطابا مكونا من سطرين تعتبرني فيه مستقيلا ... وكان خلفي حاضرا منذ أمد .. وهو السيد محمد أمين حسين المحامي أو المجاهد الكبير كما كانوا يسمونه في ذلك الحين .

السبب الحقيقي .

لم يكن خفيا أن السبب الحقيقي للاستغناء عني هو هذا الضغط المتوالي الذي كان يبذله المرحوم الأمير الاي البشارى قائد القوات المصرية في السودان ... ومن بعده خلفه الأمير الاي عبد الفتاح حسن ، لقد كانا تحت تأثير حزب الأشقاء غير راضين عن بقائي مديرا لمكتب جريدة مصرية كبرى في الخرطوم ، وأنا غير منتمٍ للحزب وغير متعاون مع أقطابه وغير منسجم مع مبادئه .

صحيح أن مثل هذا الضغط قد حدث في سنوات ماضية ولكن الموقف قد تغير ، أولا لأن انطون الجميل وبشارة تقلا اللذين كانا يحمياني قد توفيا ... وكان هذان الرجلان صحفيين بمعنى الكلمة ، فلم يكن يعنيها غير صحة الخبر والسبق في إرساله .... أما الآراء الشخصية للمراسل ومبادئه فلا يقيمان لها أي اعتبار - بل لعلهما كانا يعجبان بالصحفي المستقل الذي يتجرد من العوامل الخاصة .

أضف الى ذلك أنهما لم يكونا متحمسين لوحدة وادي النيل فهما لم يكونا مصريين كما لم يكونا متطرفين بطبعهما في الشؤون السياسية .

فلما تولى رئاسة تحرير الأهرام بالنيابة الأستاذان محمد زكي عبد القادر وعزيز ميرزا ، نبهني الأول وهو صديقي إلى أنني متهم بالنزعة الانفصالية .... فافهمته بوضوح بأنني شخص بعيد عن النشاط الحزبي ... وأنني منذ أن رفعت الأهرام مرتبي أصبحت متفرغا لها

فلم أعمل في أيـة صحيفـة أخرى محليـة أو خـارجيـة وإنني صـديـق لمصر فـلا يمكن أن أقف ضدها ... وأذكر في أواخر مارس ١٩٤٩ أن الأستاذ محمد زكي عبد القادر قابلني أنـا وأسماعيل العتباني في مأدبة العشاء التي أقامها السيد فؤاد سراج الـدين بـاشـا تكريمـا للوفـد الصحفي السوداني الـذي كان يزور القطر المصري آنـذاك فسـألـه اسماعيـل عني فقـال محمـد زكي (أن ليحي نعرة انفصالية) والـدقـة في تخير الألفـاظ والاعتـدال في التعبير يـدلان على رصـانـة الاستاذ محمد زكي وعدم اندفـاعـه ـ ثم التفت إلي والابتسـامـة تعلو شفتيـه قـائلا (يـا أخي يقولوا عنـك كثير خفّف) والحق يقـال أنني لم أكن حزبيـا قـط ، بل أعرف عن نفسي إنني انعزالي تماما .

على أن آرائي بوجه عام كانت تذهب نحو الاستقلال ، ولم أكن أحاول مجرد المحاولة ، التقرب من الأحزاب الاتحادية القائمة في ذلك الحين ، حتى ولو لمجرد أن اجعل الانتماء اليهـا درعا يرد عني كيد الخصوم ـ ولم يكـد محمـد زكي عبـد القـادر يستقيل من جريـدة الأهرام ويصبح أحمـد الصوي محمـد رئيسـا للتحرير وهو من نعرف بـل وجـاءت ثـورة ٢٣ يـوليـو وبسيطرتها على الصحف وسياساتهـا ومحرريهـا ومراسليهـا ، حتى فتح البـاب على مصراعيـه لأهواء المغرضين وحتى طوعت تقاليد الأهرام الراسخـة الوطيـدة لعبث السـاسـة السودانيين الموالين لمصر وألاعيبهم .. فلم يطل بي الأمد حتى رمي بـه إلى الخـارج دون مكافـأة ... ولا حتى كلمـة طيبـة بعـد السبعـة عشرة عـامـا التي اقتطعتهـا من أزهى عهود حيـاتي (الفتوة والشباب والكهولة) وأعطيتهـا للأهرام استقصي الأنبـاء وأتتبع الحوادث وأعيش يومـا بعـد يوم على تقلبات السياسية وأحداثها ، ومفاجآتها لا أكاد أغفل لحظة خلالها والتي أذبت فيهـا عصارة ذهني وأرهقت أعصابي واستخـدمت أقصى مـا أملـك من مواهب ـ أن السبعـة عشر عاما السالفة ذهبت هباء ولكن أين الصاوي الآن من الأهرام لقد أبعد عنها في غلظـة وهو الآن يحرر ركنا منزويا في جريدة الأخبار ، ويحيـا في وحـدة وتعـاسـة ، لا زوجـة ولا أم ولا أخت ولا قريب ، لقـد خلت حيـاتـه من كل قلب يحنو عليـه .. ان الظلم ظلمـات ولم يطل به الأمد حتى يواجه حسابا عسيرا على ما اقترفت يداه .... اللهم لا شماتة ......!!

وثيقة خطيرة !!؟

هيئة تحرير السودان .

كون الأساتذة محمد أحمد محجوب المحامي ، وصالح عبد القادر .. وأحمد يوسف هاشم في أوائل عام ١٩٥٠ هيئة سياسية باسم هيئة تحرير السودان وقد تمكنت جريدة المستقبل - التي كنت أصدرها - من نشر وثيقة سرية كانت الهيئة قد وزعتها - شكل مذكرة - على بعض أعضائها الموثوق بولائهم .

ضجة .

وأحدث نشر هذه الوثيقة ضجة كبرى .. وعلقت عليها معظم الصحف ..

ويرجع أساس الضجة إلى أن زعماء الهيئة الثلاثة كانوا يعيشون تحت ظلال السيد عبد الرحمن المهدي ويعتبرون من أدواته ، في حين إنهم في هذه الوثيقة يعملون ضده بطريقة غير محترمة وغير كريمة وغير أخلاقية ... لقد لعبوا دورا مزدوجا بغيضا ، وعضوا اليد التي أحسنت اليهم .

الوثيقة .

أما الوثيقة فقد جاء فيها مايلي :

١) تجنيد الكتاب وخاصة الشباب منهم للكتابة والخطابة ضد الطائفية وإبراز عيوبها ، والاستعانة بأنصار السنة .

٢) الاستعانة بالنظارة والعمد المرفوتين ضد الحاليين والاستعانة بالموتورين من أبناء البيوتات الكبيرة ضد أقاربهم (الاعتماد على فحل في الجزيرة) .

٣) الاستفادة من أخطاء الجبهة الاتحادية واستعانتها بالأجنبي .

٤) إثارة الفتن بين الطوائف وخاصة الطائفتين الكبيرتين .. تبحث الوسائل . كل منطقة حسب ظروفها .

٥) استغلال حالة الجوع في الشمال والشرق والعطش في الغرب ، والجهل في الجنوب .

٦) الاستفادة من العمال في الحركة السياسية ..

شتائم .

ولم يكد يصدر عدد المستقبل مشتملا على هذه الوثيقة حتى اتصل بي المرحوم أحمد يوسف هاشم تليفونيا وشتمني شتما قبيحا .. وقال لي لن أنسى لك هذه الاساءة .. إنني أعرف من أوعز اليك بنشر الوثيقة وهو السيد عبد الله خليل إنه يريد أبعاد محمد أحمد محجوب عن الأنصار ليخلو له الجو ... وهيهات ..! إن الكيد لنا نحن الثلاثة بهذا الإسلوب القذر لن يجديك .. ولن يجدي صاحبك ، ان محمد أحمد محجوب باق ، ومكانه محفوظ .. وأنا وصالح باقيان ومكانانا محفوظان .. ولن يتخلى عنا السيد عبد الرحمن .. أما أنت أيتها الحشرة السامة فتقبل العزاء منذ الآن في صحيفتك (المستقبل) .

انتقام .

ولم أعن بغضبة المرحوم أحمد يوسف هاشم عناية كبيرة ... فقد تعود أن يسيء إلي وتعودت أن أسكت . ولن يضيرني المزيد من نفثات صدره المحموم غير أنني اضطررت فيما بعد الى العناية بكل كلمة قالها أحمد يوسف هاشم في غضبه .

فقد جاءني خطاب من مصلحة السكرتير الإداري يخطرني بإلغاء رخصة صحيفتي (المستقبل) لعدم انتظامها في الصدور .

ولما كان الأستاذ أحمد يوسف هاشم هو ممثل الصحافة في لجنة الترخيص بالصحف في تلك المصلحة فقد علمت أن أحمد كان جاداً في تهديده وأنه انتقم مني شر انتقام .

شذوذ .

وكان الغريب الشاذ في الموضوع أنني كنت أصدر جريدتين هما المستقبل

والسوداني ... وكلاهما لم تكن منتظمة الصدور في الفترة التي ذكرت في أمر إلغاء رخصة جريدة المستقبل فلم ألغيت رخصة جريدة وتركت الأخرى ؟ بحثت فاتضح لي أن السيد محمد نور الدين كان وثيق الاتصال بأحمد ... وكان هناك ما يربط بينهما - ولعل أحمد كان واسطته عند المسؤولين لتكون السوداني لسان حال جناح حزب الأشقاء تكريساً للخلاف بينهما ومن هنا وقد نفهم أن لائحة الصحافة قد أصبحت على أيدي المستعمرين وأعوانهم العوبة وفسرت نصوصها بما يتفق مع البواعث الشخصية والسياسية ..

سابقة ضارة .

وقد تألمت كثيراً من تصرف أحمد ... فإنه في سبيل أحقاده - عليه الرحمة - لم يتورع لا من إلغاء رخصة صحيفتي (المستقبل) فحسب بل من وضع نص رديء في لائحة قانون الصحافة يلغي الرخصة لمجرد عدم الانتظام في الصدور . ان عدم الانتظام في عهود كانت فيها الرشوة مبذولة للصحف نوط جدارة وعنوان شرف ... وكان ينبغي أن تعاون هذه الصحف على شق طريقها وتركيز نفسها لا أن توأد في المهد .. ولكن ماذا نفعل بأولئك الذين استعبدتهم غرائزهم وفقدوا روح العدالة واهتزت في نفوسهم القيم ..؟؟

لا تظلموا الموتى .

نشرت صحيفة أنباء السودان التالي :

جاءنا من السيد يحي الفضلي بمناسبة الحديث الذي سبق أن نشرناه عن المرحوم أحمد يوسف هاشم البيت التالي وهو من نظم أبي العلاء المعري :

لا تظلموا الموتى وان طال المدى   اني أخاف عليكم أن تلتقوا

المحرر : لن نلتقي ..

إن هذا تاريخ ويجب أن نقبله كما حدث دون غضب أو سخط .

كنت شريكا للسيد عبد الله الفاضل المهدي

شريك :

في عام ١٩٥٠ اتفقت السيد عبد الله الفاضل المهدي وأنا على إصدار جريـدة المستقبل (شراكة) وقد كتبنا بذلك عقدا ، نتحمل بموجبه العبء بالتساوي .. وبدأ هو من جانبـه بتنفيـذ مـا يخصـه ، فطلب الى البحث عن مطبعـة تتـولى طبـع الجريـدة .... وبحثت فلم أجد . كانت كل المطابع مشغولة ـ وكانت قليلـة ... المطبعـة الوطنيـة لصـاحبهـا عبـد الله ميرغني ، مطبعة الشرق الأوسط . لأصحابها شركـة متشل كوتس ، مطبعـة الطبع والنشر لأصحابها آل المهدي ، المهدي مطبعة التمدن لصاحبها (أبو زيد خليفـة) .. وأخيرا رجعت للسيد عبـد الله لأقول لـه في عبـارات صريحـة أن أملنـا ، يتركز في أن يستعمل نفوذه لكي تتولى مطبعة الطبع والنشر القيام بالطبع ، ولو عن طريق سهرات مخصوصة .

تلكؤ .

واستعمل السيد عبـد الله نفوذه وأقنع الأستـاذ عبـد الله عبـد الرحمن نقـد الله مـدير الشركة يوم ذاك بطبع الجريدة .

وبذلنا جهدا جبارا في التحرير غير أن المطبعة كانت تتلكأ تلكؤا حسبتـه متعمـدا في طبعها فلم يصدر عدد واحد في يومه المحدد .

سبب :

ان نقد الله رجل مخلص جداً لآل المهدي ، ومخلص جدا للسيد عبد الرحمن شخصيا ، ومؤمن الى حد التفاني بضرورة تماسك هذا البيت ووحدته .

وكان لا يستحسن أن ينفرد أحد أفراد بيت المهدي بجريـدة خـاصـة تعبر عن وجهـة

نظره ، إذ يكفي أن تلتقي آراء هذا البيت ، عند الرأي الموحد الذي ينشر بأسمهم تحت ظل السيد عبد الرحمن في جريدة النيل .

ولم يكن عدم الانتظار وتلكؤ المطبعة هو العقبة الوحيدة التي وقفت في طريق الجريدة .

الاقتصاد :

لقد كان كل دخل يرد من الاعلانات التي جهد السيد عبد الله شخصيا في الإتصال بالشركات للحصول عليها ـ وكل دخل يرد من البيع .. نتناوله أو بالأصح أتناوله وانفقه دون أن أسجله أو أستخرج به أذن صرف كالعادة المتبعة في المعاملات المالية .

وكان السيد كمال عبد الله الفاضل المهدي ، هو ممثل السيد عبد الله الفاضل في الجريدة ـ يريد حسابا قانونيا .... لقد عاد سيادته لتوه من إحدى جامعات انجلترا ، ونال شهادة عليا في الاقتصاد ، وكان يلزمنا بأن يكون نظام الدخل والمنصرف على أحدث الأسس المعروفة في عالم الحساب .

وكنت أنا كالعادة ، مولعا بأسس الحساب الخاصة بي ...؟؟؟

أصرف ما في الجيب ، يأتيك ما في الغيب ... وما بين الخيرين حساب ولم نلتق أنا والسيد كمال .. منذ اليوم الأول ، كان ينظر الى كما ينظر الى الحيوان الغريب ... أنه لم يفهمني ....

السيد عبد الله :

ولكن السيد عبد الله وهو رجل خبير بالناس والظروف وقد عرفني منذ بدأت العمل الصحفي في أواخر عام ١٩٣٥ في جريدة النيل ـ فهمني تماما فأرخى الذمام وتركني أزاول هوايتي في الإنفاق غير المقيد ، وواصل الضغط على المطبعة لتطبع لي .. وقدم لي إعلانات من شركته ، وحاول جهد الطاقة إغراء بعض الشركات الأخرى التي له صلة بمديريها لكي تمدني بالاعلانات .

وأذكر أن شركة كنتو ميخالوس أعطت الجريدة إعلانا ثابتا عن لساتك (بيرللي)

وأذكر أيضا أن محاسبيها ، ضاقوا ذرعا بي لأنني كنت أحاسبهم كلما صدر عدد والح في أن تصرف لي قيمة الإعلان في نفس يوم صدور الجريدة .

وكان المحاسب المحترم يقول يا أخي ما تقعد في مكتبك ، وتجيك قيمة الإعلان لي عندك ... وأضحك ، وأقول : (الايدو في المويه موزي الايدو في النار) وحتى الغد كيف أعيش ؟ ولم تطل (شراكتي) للسيد عبد الله فقد أوقفت مطبعة الطبع والنشر ، طبع الجريدة ... وتخلى السيد عبد الله عن هذه (الشراكة) غير المتكافئة والتي تنفذ التزاماتها من جانب واحد فقط ، وبدأت من جديد أسعى لملء الفراغ ....

أول مجلة روائية بوليسية في السودان

في عام ١٩٤٩ فكرت في إصدار مجلة روائية بوليسية شهرية كملحق لصحيفة المستقبل التي كنت أصدرها واخترت لأول عدد منها حلقة مكتملة بذاتها من سلسلة كانت تنشرها مجلة (ستردي افنج بوست الأمريكية) عن ضابط بوليس عراقي يقوم بتحريات غاية في الدقة تؤدي الى كشف العويص من الجرائم .

وقد ترجم بعض أجزاء هذه الحلقة الأستاذ عبد الله رجب وكان في ذلك الحين يتولى إدارة جريدة السودان الجديد و (غبنته) في الأجر كالعادة ، وعذري ضيق ذات اليد الذي لم يفارقني منذ نعومة أظافري حتى لحظة كتابة هذه السطور (لعنه الله) .

وحاولت بدوري بطريقتي البدائية ، ترجمة البقية الباقية من الحلقة مع الاستعانة بالخيال ، وموهبتي في فن القصة والرواية ، وطلبت من جريدة الأهرام تليفونيا أن تقوم بصنع اكلشيهات لأسم الرواية ، وهو (جريمة في بغداد) وأسماء الفصول ، وقد جاءتني هذه الأكلشيهات داخل طرود الجريدة التي كنت أتولى توزيعها بوصفي مديرا لمكتب الأهرام في الخرطوم .

وكانت الطباعة عسيرة جدا في ذلك الحين ... فان المطبعة الوطنية لصاحبها المرحوم عبد الله ميرغني التي كانت تطبع صحيفتي (المستقبل) ما كانت لتدخل معي في تجربة جديدة بعد أن ذاقت (أي المطبعة) الأمرين مني في طبع الصحيفة التي كانت قد تراكمت ديونها ، واتجهت الى جاري في عمارة - أبو العلا - القديمة الصديق أحمد مختار وكان يصدر مجلة متعثرة تسمى (الأديب) ويملك مطبعة عتيقة لطبعها ... وأغريته بطبع المجلة الروائية البوليسية ، ودفعت له عشرة جنيهات كعربون ... وهو مبلغ لابأس به في ذلك الوقت وبدأنا الصف ، وكان يتولى رئاسة العمال الزميل حيدر المهدي وهو كما تعلمون أو قد لا تعلمون زعيم أولا ثم عامل ثانيا ...

كان المفروض أن تصدر المجلة بعد أسبوع فجاء الأسبوع ولم تصدر ... وجاء الأسبوع الثاني ولم تصدر ، وبعد عدة أسابيع لا أذكر عددها لكثرتها ، رأت النور وكان شكلها غير رديء وكانت مادتها غير رديئة ، ووضعت سعرا لها لم أستشر فيه أحدا .... بل لم استشر فيه نفسي ... إذا كان ينبغي أن أحسب حساب التكاليف وأقدر شيئا من الربح ... ثم أحدد بعد ذلك السعر المجزي .. إن الارتجال الذي يطبع حياتي عادة هو المسؤول عن هذه الحالة وغيرها من حالات كثيرة سببت حرجا وخسائر ما كان يصح أن أقع فيها لو تريثت والزمت نفسي بوضع ميزانية لأعمالي ... أما هذا السعر الذي لم استشر فيه أحدا ولم أستشر فيه نفسي ، فهو قرش واحد للنسخة يحصل منه البائع على مليمين أثنين ولعليّ على سبيل تقدير العذر لتصرفي أنني لم أكن أتصور بحكم العادة اذا رفعت السعر أي إقبال عليها ... وبيع كل ما طبع من المجلة الروائية البوليسية الأولى في السودان ، وكل ما طبع هنا يعني ألفي نسخة .. بعد خصم ما أهدى للأصدقاء أو خطفوه ... وما أعطيته للزميل حيدر وعماله بحسبان أن (طابخ السم يضوقه) وكانت حصيلة البيع ١٤ جنيها بينما بلغت تكاليف المجلة ورقا وطبعا وترجمة وتصحيحا وتدبيسا وتغليفا وتأخيرا ٥٠ جنيها .... وجاء الأصدقاء يهنئوني على نجاح المجلة فتقبلت تهانيهم بصدر رحب ... رغم أنني أعلم أنها تهنئة على خيبة مريرة أضاعت كل ما في الجيب .... بل وكل ما في الغيب .. وجعلتني أتحسر وأتعثر وأقضي بنفسي غير آسف على هذا (الوليد) ... « وتوبة لي علمية » على طبع المجلات الروائية البوليسية و « توبة لي علمية » على الطبع في مطبعة متهالكة كمطبعة الزعيم أحمد مختار ... و « توبة لي علمية » على الطبع في مطبعة رئيس عمالها أيضا زعيم ، وبعدُ فَهَلْ اللوم في إخفاق المجلة التي بيعت لآخر نسخة على « أم على المجلة أم على المطبعة أم على الزعيم أحمد أم على الزعيم العمالي حيدر أم على التأخير أم على الحظ الذي عرفته دائما أكثر أعدائي صرامة ولددا أم على كل هؤلاء مجتمعين ؟

أترك الجواب على هذه الأسئلة لغيري ؟

صحيفة للايجار

يتهمني الكثيرون بأنني - صحفي متقلب - وهي عبارة مؤدبة لمعنى - صحفي معدوم الضمير - ، وقد بدأ هذا الإتهام عندما كنت أعمل في جريدة النيل لسان حال آل المهدي وهي استقلالية مع احتفاظي بمراسلة الأهرام وهي صحيفة مصرية يفترض فيها الدعوة للوحدة بين مصر والسودان واشتراكي في نفس الفترة في تأسيس الحزب الجمهوري - محمود محمد طه - وهو منظور له كحزب مناهض لآل المهدي لما كان يظنه البعض من أنهم كانوا ذوي ميول ملكية .

الإمام العظيم .

وللحقيقة والتاريخ أذكر أن جريدة النيل كانت في فهم - المغفور له الإمام عبد الرحمن المهدي هي جريدة كل السودانيين ولذلك لم يكن عسيرا عليّ - عندما خاطبني الزميل الصديق عبد الله عبد الرحمن نقد الله نائب رئيس تحرير النيل يوم ذاك لكي أنضم لحزب الأمة ، أن أجيبه بالرفض ، بل لم يكن عسيرا عليّ - عندما كرر محاولته قائلا - يا بني أركب معنا ولا تكن مع الكافرين - أن أجيبه بالرفض أيضا رغم ما في مدلول الآية من تهديد .

ولم يكن عسيرا عليّ على هذا القياس - كذلك أن أشترك في تأسيس الحزب الجمهوري وأن أعلن في جريدة النيل الناطقة بلسان آل المهدي - أن الرسائل الواردة للحزب تعنون باسمي - وهو حزب منظور اليه كخصم لدود لحزب الأمة .

الأهرام :

أما جريدة الأهرام فالصلة التي تربطني بها هي الخبر - لا التعليق لقد كانت جريدة ذات تقاليد وكان جبرائيل تقلا صاحبها يعرف الصحافة بمعناها الرفيع في بلاد الحضارة

فعمل على أن يشعر كل عامل فيها بأنه حر غير مقيد ، وأنه قوي غير ضعيف ، وأنه يملك الجريدة لا أن الجريدة هي التي تملكه وبذلك استخرج أقصى الطاقات وظفر بمنتهى الإخلاص .

وقد باءت كل المحاولات التي بذلت لفصلي من الجريدة بالفشل ـ بحجة أنني انفصالي ـ لأن أحد لم يجد مطعنا فيما أقدمه من أخبار ، لقد كنت دقيقا في نقلها أمينا في إيرادها فلا أرسل إلا ما أطمأنت إليه نفسي اطمئنانا كاملا ، وتأكدت من صحته تمام التأكد ، وقد كانت الأهرام تعتز بخطاب بعث به رفعت علي ماهر باشا إليها يقول فيه : ان الحكومة تثق بأخبار مراسلكم في الخرطوم وتبني عليها سياستها أكثر من ثقتها بالمصادر الأخرى ـ وهو ثناء ممن يملكه وكان مصدره في الدرجة الأولى ضيق الرجل البالغ بتحزب الموظفين المصريين في السودان وتأثير هذا التحزب على ما يجيء بتقاريرهم من معلومات ؟

انتقال كبير :

ثم تجسم اتهام الناس لي بالتقلب عندما وقعت الواقعة وانتقلت جريدة السوداني التي كنت أصدرها في عام ١٩٥٠ من جناح أزهري الى جناح نور الدين دفعة واحدة ودون فترة انتقال يستجمع فيها قراؤها أنفاسهم وفي هذه الكلمة سوف أروي في صراحة تامة وبغير رتوش الحقائق عارية لا تسترها حتى ورقة التوت .

جريدة السوداني :

توقفت صحيفة المستقبل التي كنت أصدرها وأسند توزيع الأهرام إلى أحد (القبانية) وقررت إدارة جريدة الأهرام اقتطاع مرتبي كله استيفاء لديون التوزيع وكان هذا الإجراء وسيلة لإرغامي على الإستقالة لأن الأهرام لا تفصل محرريها ومراسليها .

وفي بحران هذا الموقف العصيب لمع في أفق حياتي هذا الشديد الظلام برق حسبت وراءه غيثا ... فقد تلقيت من على محمد بادي التاجر بمدني خطابا يرشحني فيه رئيسا لتحرير جريدة يومية ينوي إصدارها ويعرض عليّ مرتبا قدره خمسون جنيها ...... وأفادني السيد خليل صابر مساعد ضابط الاستعلامات بأن آل بادي أغنياء

وأنني وقعت على كنز وسرعان ما أبرقت بالقبول وعززت البرقية بخطـاب واتسعت آمـالي ، وشعرت بأن الله لم يتخلى عني ، وأنني لم أزل آوي منه الى ركن شديد .

وصدر الترخيص بجريدة السوداني اليومية في سرعة قيـاسيـة بعـد جهود اشترك فيهـا الصديقان المستر آربر ضابط الاستعلامات والسيد أحمد مكي عبـده نـائب مسـاعـد السكرتير الإداري للشؤون السياسية ـ يوم ذاك ـ وقد ذللت عقبة لولاهما لم تكن لتذلل وهي السماح لي بالإحتفاظ برئـاسـة تحرير جريـدة المستقبل والجمع بين رئـاسـة تحرير عن جريـدتين لم يحدث في تـاريخ الصحـافـة السودانيـة الا في حـالتين ، هـذه الحـالـة التي اسلفتهـا والسماح للأستاذ أحمد يوسف هاشم ـ رحمـه الله ـ بـالجمع بين رئـاسـة تحرير النيل اليوميـة والسودان الجديد الإسبوعية .

ولم أكـد أتلقى نبـأ الترخيص رسميـا حتى كتبت الى علي محمد بـادي أزف اليـه الخبر الكبير وقـد وضعت ميزانيـة ورسمت خطـة للبـدء الفـوري في إصـدار الجريـدة وتحريرهـا تحريرا مبتكرا وانتظرت الرد لصبر فارغ ووصل الرد ويا ليته لم يصل .

فقد كتب الى علي محمد بادي بجرأة مذهلة لم أكن أتوقعها من رجل لـه عقل في رأسـه الـذي بين كتفيـه ، كتب يقـول : أن مشغـوليـاتي تعـوقني عن إصـدار الجريـدة في الـوقت الراهن وانني أقترح إن تؤجر الجريدة لشخص أو هيئة بمبلغ منـاسب الخ .... ولا أدري هل أغمي علي في تلك اللحظة ، ولكن الذي أؤكده هو أن صداعاً مؤلماً يصيبني كل ما تـذكرت واقعة هذا الخطاب ولقد تركني هذا الخطاب أواجه الأعاصير من جديد ...

بين نارين

عندما عملت على استخراج الترخيص بإصدار جريدة (السوداني) اليومية .. كنت أحلم بأن أجد من صاحب أمتيازها علي محمد بادي التمويل الذي يمكننا من شراء مطابع وتأسيس دار والتعاقد مع محررين مقتدرين والسير بالجريدة قدما إلى أن تظفر بإعلانات الحكومة والشركات وتجد الرواج المطلوب ... كما كنت أحلم بأن تكون الجريدة مستقلة

استقلالا إيجابيا غير سلبي ، فتسهم بالرأي في القضية الوطنية دون أن تتحيز لحزب أو تتشيع لطائفة ... وأن تكون صريحة واضحة فلا تنافق ولا تداري ، وان تعتصم بالكرامة والأباء فلا تصبح حذاء كل حكومة وموطئاً لكل من يدفع أكثر .

غير أن هذا الحُلُم سرعان ما تبدد عندما تلقيت رسالة من علي محمد بادي يقترح فيها عرض الصحيفة للإيجار .

أنه بتصرفه هذا الشاذ الغريب قد أساء الى كرامتي كأنسان وحطم من طموحي كصحفي فأحال فرحي إلى مأتم وغنائي الى نواح ، ورددت على علي محمد بادي ـ ردا عنيفا ملائماً بالألفاظ الغليظة وقد (نشرته جريدة السوداني نفسها هذا الرد فيما بعد) ثم طالبته بأجر عدة أشهر منذ أن تم بيننا الاتفاق على رئاسة التحرير ....

وجاء ـ علي ـ الى الخرطوم ورأيته لأول مرة وكان شابا وديعا لا يعرف من تجارب الدنيا إلا حياة السوق في مدني وتفاهم معي بعد نقاش على أن يتنازل لي عن الجريدة لمدة عامين ، وكتبنا عقدا بذلك ولكن (علي) لم يكن عند اتفاقه ... فإنه ظل يلاحقني كما سيجيء فيما بعد ...

وتمكنت من إصدار الجريدة من مطبعة الشرق الأوسط باتفاق غريب يدل على مراهقة صحفية عصية على الفهم والتحليل .

أو بالأصح يدل هذا الاتفاق الغريب على ضرورة كانت تقتضي أن أصدر جريدة يومية كزملاء آخرين سبقوني في غير رحمة ، وكان ينبغي أن يكون خطوهم خلفي ولو أمشي على مهل ، أما ما بقي فيتمه قدر اعتدت أن ألقي على كاهله بكل ثقلي دون حساب للعواقب .

لقد كان اتفاقي مع مطبعة الشرق الأوسط ينص على أن أدفع عن كل نسخة من الجريدة سبع مليمات ، في حين أنني كنت أبيعها بثلاث مليمات ونصف المليم عن النسخة ... أي أن الجريدة كانت تصدر خاسرة ثلاث مليمات ونصف المليم عن النسخة الواحدة إذا بيعت كلها ولم تكن تباع كلها .. بل لم يكن يباع نصفها ـ ولا أزيد ؟؟ أنها مغامرة من نوع هذه المغامرات التي يزج المرء بنفسه فيها لأنها الباب الوحيد المفتوح أمامه ولأنه لا مجال للإختيار ....

ومضيت أجاهد جهاد المستميت لكي ـ أُدخل إيرادا يغطي نفقاتي وهيهات ؟؟؟

وقد عاونني أحمد حسن مطر بوضع أسمه في اعلانات الدعاية للجريدة .. وبكتابة مقال أنفقت وقتا في معالجته حتى أصبح صالحا للنشر ؟؟؟

وبعد شهر واحد توقفت مطبعة الشرق الأوسط عن طبع الجريدة بعد أن تجاوزت ديونها عليّ الخمسمائة جنيه ..

وأصدرت أعدادا من الجريدة في مطابع شركة الطبع والنشر وقد أوقف الزميل الصديق محمود طاهر مدير المطابع طبع الجريدة ، عندما تدخل الوسطاء يناشدونه الترفق بي ، والتجاوز عن بعض الديون ؟؟ ولسان حاله يقول : (جيتك يا عبد المعين تعيني لقيتك يا عبد المعين تتعان) وقابلت في هذه الآونة السيد يحي الفضلي في داره وكان يجلس الى جانبه السيد اسماعيل الأزهري وذلك عقب انشقاق حزب الأشقاء الى شطرين ـ ١٩٥٠ ـ وتحدثنا عن حالة الجريدة والموقف السياسي العام والموقف الحزبي المحلي ، وضرورة الاستفادة من « السوداني » وقد وافق الحاضران على الرأي الأخير وأن تصدر الجريدة من مطابع الأشقاء مؤيدة لحزب الأشقاء ، انني لم أكن شقيقا بل بالعكس فقد كنتُ بيني وبين نفسي خصما لحزب الأشقاء بجناحيه وليس من طبعي التحزب إلا إذا تكلفته تكلفا ... وقد فعلت ...

وصدرت الجريدة بانتظام . وانتشرت وبدأت أشعر بالإرتياح في حياتي . وبدأت استطيب الوجود وتولدت في نفسي طاقات جديدة وأخذت أتصل بالشركات لأقنع المسؤولين بالإعلان لدي ، ووقع حدث غير عادي فقد اتخذت لنفسي يوم عطلة كما يفعل بقية البشر وظللت يوم الجمعة كامل لا أخرج من داري ، ولم تدم هذه العادة غير فترة قصيرة جدا إذ ظهر فجأة وعلى غير انتظار هازم اللذات فتبدل الحال .. لقد علمت أن علي محمد بادي أخذ يفاوض رئيس فرع حزب الأشقاء ـ نور الدين ـ في مدني لكي تصبح (السوداني) لسان حال الحزب بعد أعطت الحكومة حزب الأشقاء (أزهري) جريدة الأشقاء عقب نزاع طويل كما علمت أن (علي) كتب للداخلية يعزلني من رئاسة التحرير بحسبان أن تنازله عن الجريدة هو اتفاق جانبي محض وأن النزاع فيه من إختصاص المحاكم المدنية العادية ، وربما فصلت فيه بعد سنوات ... وفيما أنا أقدح زناد فكري وأضرب أخماسا في أسداس ، إذا بالزميل رحمي محمد سليمان وكان قد انضم بصحيفته ـ أخبار الأسبوع ـ الى حزب الأشقاء ـ نور الدين يهل عليّ ووجهه المظلم « مشرق » كأنه قمر .

وقال لي بعد مقدمات أنه اقنع حزب الأشقاء ـ نور الدين ـ بالاتفاق معي لا بالإتفاق مع علي محمد بادي .

أولاً : لأن الجريدة حالياً في يدي لا في يد علي محمد بادي والحزب في عجلة من أمره .

ثانياً : لأن شخصي يمكن الوثوق به نسبيا أكثر من الشخص الآخر ـ ومضى يقول بطريقته المرنة الناعمة ، يا أخي سيبك ولا يهمك ولن تضطر لتحرير الجريدة ـ فسوف ينوب عنك في هذه المهمة علي الشيخ البشير وزين العابدين أبو حاج وحسان محمد أحمد .

وأضاف ـ ثم ماذا يضيرك هل أنت شقيق ؟ إن الأشقاء الخلص الذين جاهدوا سويا وسجنوا سويا ـ وأكلوا سويا ـ قد انشقوا على بعض فما بالك أنت ؟ وذهب رحمي ثم جاء مرة أخرى وفي هذه الأثناء قابلت السيد أحمد مكي عبده وكان يتولى منصب نائب مساعد السكرتير الإداري للشؤون السياسية وهو شاب شهم ذو مروءة فنصحني أحمد بأن أتفاهم مع حزب الأشقاء ـ نور الدين ـ وقال : أن جريدة الأشقاء أصبحت من نصيب حزب الأشقاء

أزهري ومن العدل أن يحصل الشطر الآخر المنشق - يعني بـذلـك جنـاح نور الـدين - على جريدة تعبر عن لسانه .

وإذا انضممت بالسوداني لحزب الأشقاء - نور الـدين - فـإن مسـاعي علي محمـد بـادي للظفر بالجريدة سوف تفشل لا محـالـة ، أمـا إذا لم تفعل أو فعل هو ، فـإن النجـاح سوف يكون حليفه دونك ، وأنني أضع النقاط فوق كل الحروف لأني أعرف أنـك أبو أولاد ومحمول وان الجريدة هي مصدر رزقك الوحيد ، وقد اقتنعت بوجهـة نظره فـإن أحمـد مكي عبـده كان يعرف دقائق السيـاسـة في مكتب السكرتير الإداري ولم أكـد أقـابل رحمي حتى أعلنت موافقتي ثم ذهبت إلى منزل السيد نور الـدين حيث وجـدت بـانتظـاري السيـد نور الـدين واللواء بالمعاش حامد صالح الملك والسيد عمر الخليفة والسيـد خضر عمر وهنـاك وقعت على اتفاقية مكتوبة تبيح لحزب الأشقاء نور الدين الاستفادة من الجريدة ...

أنباء السودان الأولى

امتعاض

لم تخلف لي جريدة أنباء السودان الأولى التي أصدرتها في عام ١٩٥٢ ـ الإفلاس فقط ، بل أكسبتني غضب المسؤولين المصريين في الخرطوم أيضا .. فقد حلا للأستاذ (حسن الطاهر زروق) المحرر بها أن يحمل فيها على ما أسماه بحكومة العساكر في مصر ، وأن يلقب اللواء محمد نجيب بالجنرال ... وأن يصل بين الثورة والأمريكان والبريطانيين ، وهو اتهام تردد فيما بعد وزكا أحد رجال المخابرات الأمريكيين السابقين في كتابه (لعبة الأمم) .

وقد تحدث الأميرالاي عبد الفتاح حسن القائد العام للجيش المصري آنذاك إلى الشريف عبد الرحمن الهندي وعبر عن امتعاضه (عما تنشر الأنباء) في هذا الصدد .. مما دفع بالشريف إلى الغضب علينا وإلى تزايد شعوره بما في رئاسته للحزب الوطني من متاعب وأعباء وقد كلفني هذا الامتعاض غاليا ...

معادن الرجال

أشرت إلى أنني اتفقت مع الأستاذ علي محمد بادي صاحب امتياز جريدة السوداني اليومية في عام ١٩٥٠ على أن يتخلى لي عن الجريدة إدارة وسياسة وتحريرا دون أي تدخل ، لمدة عامين ، وأبرمنا عقداً مكتوبا وقع عليه كلانا ، كما وقع عليه عوض علي عمر وعلي محمد بشير كشاهدين ...

وكان حزب الأشقاء في ذلك الحين في بداية انقسامه المشهور ، وكان السيدان أزهري ويحي الفضلي على رأس جناح ، والسادة نور الدين وأحمد خير وخضر عمر على رأس جناح آخر ، وكان كل جناح يبحث عن وسائل الدعاية ، ويعمل على تنظيمها ...

وقد استطاع يحي الفضلي - وهو صديقي - أن يقنع السيد أزهري وبيده المال ، بأن تتولى مطابع الأشقاء طبع السوداني على نفقة الحزب .

وصدرت الجريدة مستقلة مع تعاطف واضح مع الجناح الطابع ؟؟؟

وكان يحي الفضلي يملي معظم الجريدة .. وبخاصة الافتتاحيات وكان لاذعا عنيفا قويا لا يعرف أوساط الحلول مع خصومه بل ولا يعرف معنى الرحمة ..

وكان مكتب السكرتير الإداري تحت إيحاء بعض السودانيين يرى أن تظل جريدة الأشقاء بأيدي جناح أزهري ويحي ، وأن تظل رئاسة تحريرها بيد الأستاذ محمود الفضلي .

وكان المكتب تحت إيحاء بعض السودانيين أيضا يرى أن تتحول جريدة السوداني إلى جناح نور الدين وأحمد خير وخضر وعمر وقد اتصل الأستاذ أحمد خير بعلي محمد بادي صاحب امتياز الجريدة في مدني فعلا .. ولم يكن التحول يحتاج إلى أكثر من خطاب صغير لمكتب السكرتير الإداري قسم الصحافة يقول فيه لقد استغنيت عن يحي عبد القادر رئيس التحرير واستبدلته بفلان .

أما العقد الذي أبرم بيني وبينه فأمره يختص بالقضاء المدني وربما أمكن أن أصل إلى تعويض بعد أشهر أو سنين إذا أوتيت القدرة المالية لدفع رسوم المحاكم وطولة البال لتعقب القضية في دورتها الطويلة المملة .. وقد لمح لي بهذه الحقائق السيد أحمد مكي عبده مساعد نائب السكرتير الإداري للشؤون السياسية في ذلك الوقت .. مما بعث القلق إلى نفسي ذلك أن جريدة السوداني كانت مورد رزقي الوحيد وفي ذات صباح هبط علي الزميل الأستاذ رحمي محمد سليمان وقال لي أن نور الدين رجل طيب ، وهو صديقك ويريد أن تكون ـ السوداني لسان حال الحزب وقد كان في طوقه أن يتفاهم مع (علي محمد بادي) إلا أنني أقنعته بوصفي من رجال حزبه ، وجريدتي (أخبار الأسبوع تنطق بلسانه) بأن التفاهم معك خير فأنت في متناول أيدينا لسهولة طبعك ولين جانبك ، وبسط لي المشروع .

وفي ظهر ذلك اليوم ذهبت إلى منزل السيد محمد نور الدين في الخرطوم بحري حيث وجدت سيادته والسيد خضر عمر واللواء بالمعاش حامد صالح الملك ، ووقعنا عقدا أصبحت السوداني بموجبه لسان حال الحزب .

وكتب المقالة الانتقالية الأستاذ رحمي محمد سليمان وعزى فيها تحول الجريدة من جناح إلى جناح إلى أن تصرفات حزب الأشقاء جناح أزهري ـ يحيى ، الدكتاتورية كانت غير سليمة في انتخابات مؤتمر الخريجين ، وأن ثمة تزويرا وغشاً وتلاعباً قد جرى في تلك الانتخابات الخ ...

لم أشترك في تحرير الجريدة اشتراكا فعليا إذ لم أكتب فيها طوال عام كامل سوى ثلاث مقالات اثنان منها هاجمت فيهما صاحب امتياز الجريدة علي محمد بادي لمحاولته فصلي رغم العقد القائم بيننا ، أما المقالة الثالثة فقد كانت عن السياسة الدولية وأذكر أنني كتبت خبرا عن السيد بابكر الديب نائب رئيس قسم المباحث في ذلك الحين فرده محررو الحزب وهم المرحوم علي الشيخ البشير وزين العابدين أبو حاج وحسان محمد أحمد بحجة أن بابكر من أعوان الإنجليز في السودان وكان محررو الجريدة الذين انتدبهم الحزب يسمونني الرقيب إذ كنت أذهب للمطبعة كل يوم لأراجع المقالات وهي مصفوفة وأعود إلى مكتبي في عمارة قطان وهو مكتب منفصل عن مكتب الإدارة والتحرير الذي أنشأه الحزب في عمارة قابل وفي هذا المقام ربما تحدث بعض الناس عن المثالية التي تقتضيني أن أدع هذا المورد الوبئ

وليكرع فيه غيري ما شاء إلى آخر هـذا الكلام ، الـذي يحسن أن ينظم ضمن قصيـدة عصماء غير أنني في الحق عشت حيـاتي ولم أتخيلهـا ولم يكن للشعر فيهـا نصيب وعزائي الوحيـد في تحول الجريدة التي كنت رئيسا لتحريرها بالإسم ، إنني لم أدن لحزب الأشقاء بجناحيه بولاء شخصي ولم تلتق مبادئي مع مبادئه أبدا .

وكان اتفاقي مع حزب الأشقاء أن يدفع لي مائتي جنيـه سـدادا للـديون و ٧٥ جنيهـا مرتبا شهريا وأن يعين حسن الطاهر زروق محررا ، وعوض على عمر محاسبـا وكانـا يعملان معي من قبل . وقد وفى الحزب بالنسبة للأخير لآن مرتبه كان صغيرا ، ولأنه لم يكن بـذي خطر ، أما الأول فقـد مـاطل الحزب في تعيينـه ثم رفضـه ولم أطمئن للوضع الجـديـد فـإن جناح أزهري كان به أصدقائي أما جناح نور الـدين ففيـه من كانوا خصومي . لقـد كنت أشعر بغربة مفرطـة ورغم المبررات التي سبق أن أوردتهـا ، فـإنني لم أرض قـط عن نفسي في هذا التحول .

وظللت فترة غير قصيرة لا أستطيع الخروج إلى حفل عام أو التعرض لمعـارفي الأولين في طريـق ، وقـد نقص وزني ، وسقمت نفسي ، وشعرت بهـوان وضعـة ، وأحسست بـأنني صغير ...

لقـد كنت لأول مرة في حيـاتي أرتبـط ارتبـاطـا أدبيـا ـ ولو في حـدود ـ مع رجـال كبار ، وكنت شديد الإحساس بـأن قطع هـذا الارتبـاط من جـانبي مهما تكن الأسبـاب ، وانزلاقي مكرهـا أو كالمكره إلى العمل مـع خصـومهم ، ينزل بي إلى درك الإجراء والإمعـات وينال من مروئتي .

لقـد نظرت للجريـدة يـوم ذاك نظرتي إلى مـورد رزق فسفلت بنظري ، ولم أرتفـع به ، وكان في هذه (الدونية) نفسها مضاضة وألم .

فليس وسع المرء أن يعيش كالسوائم ، ويعتلف ويضمن المأوى والحمايـة ، وإنمـا وسعـه أن يحدد لنفسه أهدافا عليـا وأن يخـاطر لتحقيقهـا ، يشبع ويجوع ، ينتصر وينهزم ، يجـد ويفقد .

والمرونـة في الحشـائش الحقيرة ، والصمود في أشجـار التبلـدي العظيمـة ، والرجل بغير

عقبات بغير شدائد يفقد نصف اعتباره ، إن لم يفقد كل اعتباره .... إن العقبات والشدائد هن البوتقة التي تصقل معادن الرجال .

وقد رد مكتب السكرتير الإداري على علي محمد بادي فيا يختص بطلبه الاستغناء عني كرئيس لتحرير السوداني بأن هذا موضوع من اختصاص القضاء .

لقد لعب الأستاذ أحمد يوسف هاشم ممثل الصحفيين في لجنة الصحافة دورا هاما في الوصول إلى هذا القرار .

وكان دائم الاتصال ـ رحمه الله رحمة واسعة ـ بالسيد نور الدين للتفاهم في هذا الصدد .... وتذليل الصعاب ....

ورفع علي محمد بادي قضية ضدي ورفعت قضية معارضة ، وظلت القضيتان عدة أشهر في المحاكم انتهيا بتنازل (علي) عن الجريدة لي لمدة العقد دون دفع تعويض ......

وتركت (السوداني) بعد ذلك لصاحب امتيازها حيث وضعها تحت تصرف السيد خضر عمر لتكون لسان حال حزب الأشقاء الجديد بعد أن انشق أحمد خير وخضر وآخرون على الحزب الوطني الاتحادي الذي اندمجت فيه كل الأحزاب الاتحادية فيا بعد ، وماتت الجريدة نهائيا بموت حزب الأشقاء الجديد أما علي محمد بادي فقد انصرف للعمل التجاري ونجح نجاحا مرموقاً ـ إن العمل التجاري هو ميدانه الأصيل ...

في القاهرة مقابلة لم تتم

عقب تولي رفعة علي ماهر باشا رئاسة الوزراء في مصر عام ١٩٥١ قمت برحلة إلى القاهرة ومهدت للرحلة بمقالين في جريدة السوداني عن رفعة الباشا وقد حرصت على التذكير فيهما بصلاتي السابقة بالباشا وبالأحاديث التي نقلتها عنه ونشرتها جريدة الأهرام بوصفي مندوباً لها ـ كما حرصت على التذكير بآرائه الجيدة عن ضرورة إعطاء السودان الحق في تقرير مصيره ..

وقد نزلت بفندق قصر الجزيرة .. بالقرب من كبرى أبو العلا وكنا في منتصف فبراير ، وكان البرد شديداً ، والزوابع عنيفة ، وحدث بعد وصولي بأيام زلزال استمر ٣ ثوان ، ولكنه هز أعصابي ، فقد كنت أشغل غرفة في الطابق السابع حينما رأيت العمارة تتراقص ، ومعدات الإفطار أمامي تتصادم ، والموت أقرب إلي من حبل الوريد . ما أضعف الإنسان ؟

وذهبت لمقابلة الباشا فلم تتيسر المقابلة وعندما عاودت السعي أردت حمل الأعداد التي كتبت فيها المقالين ، فلم أجد الأعداد لأن صديقاً زارني عثر عليها فحملها دون إذن مني .. لكي يوزعها على السودانيين المشتاقين للصحف السودانية ..

وفترت همتي وشعرت بلا مبالاة عجيبة .. واكتفيت بالأمر الذي أصدره السيد صلاح الشاهد مدير مكتب رئيس الوزراء بأن تكون إقامتي على الضيافة الرسمية ، وأخذت أتردد على السيد محمد عبد الهادي من كبار موظفي وزارة المعارف المصرية والمراقب السابق للتعليم المصري في السودان حيث درجنا على انتقاد كل واحد وكل شيء .

وذهبت لمحطة مصر في منتصف نهار أحد الأيام لكي أستقبل الوفد الذي كان يتزعمه السيد محمد نور الدين للتهنئة بمولد الأمير أحمد فؤاد ولي عهد المملكة المصرية . وكان عدد أفراد الوفد ٣٨ من بينهم رحمي محمد سليمان وأحمد مصطفى أبو حاج وبعض كبار تجار

الخرطوم وكان الاستقبال حافلاً ونزل جميع أعضاء الوفد في فندق قصر الجزيرة ومدت الموائد لتناول طعام الغداء .

وجلس أعضاء الوفد والمستقبلين حول الموائد وفجأة نهض السيد محمد نور الدين وقال في صراحة مطلقة إن الوفد جاء إلى القاهرة على حسابه وسينزل على حسابه ولذلك فإن كل من يتناول الطعام سوف يدفع قيمة وجبته ...

وانفض المنقضون على الموائد انفضاضاً لم أر مثله قط ولم يبق إلا أعضاء الوفد الذين تفرقوا بعد ذلك كل يبحث عن فندق رخيص (ابن ناس) يتناسب وظرفه المالي .

وبعد ثلاثة أيام أقبل الأميرالاي عبد الفتاح الشاري بك رئيس أركان حرب الجيش المصري في السودان سابقاً ووجهه يفيض بشراً وصاح بنفر منا كانوا جلوساً في البهو قائلاً لقد وافق مولانا أن ينزل الوفد على ضيافته مدة أسبوع .

وتداول مع السيد نور الدين ملياً وانتهى إلى قرار بأن ندفع الضيافة نقداً بحسبان أن أعضاء الوفد قد نزلوا في فندق قصر الجزيرة وقضوا المدة المشار إليها كاملة ، على أن يعطى لكل منهم المبلغ الذي يخصه .

وقد خص كل منهم مبلغ ٣٥ جنيهاً .. ولم يبق المال في الأيدي إلا أياماً وقد أفسحت للزميل رحمي محمد سليمان وآخرين مكاناً على مائدتي في الفندق ... إذ كنت الوحيد الذي أنزل في الضيافة إلى أمد غير محدود وأخيراً حدد لي ميعاد لمقابلة علي ماهر باشا وكان الميعاد في الساعة الواحدة ظهراً وحدثت بهذا الميعاد الصديق السيد خضر عمر سكرتير حزب الأشقاء نور الدين .

وفي الساعة ١٢ قابل السيدان نور الدين وخضر رفعة الباشا وعقب خروجها أنبأني السيد صلاح شاهين وهو يبدي أسفه أن ميعادي قد ألغي لأن السيد خضر عمر طلب إلى الباشا أن يلغي هذا الميعاد مستفيداً من الخبر الذي أفضيت به إليه .

وسألت السيد توفيق أحمد البكري عندما قابلته في المساء ترى لماذا فعل بي خضر عمر وهو صديق هذه الأفاعيل .

فأجابني في بساطة لو كنت مكانه لفعلت ما فعل إن جريدة السوداني التي ترأس تحريرها هي صحيفة حزب الأشقاء ـ نور الدين ـ الرسمية فإذا أتيح أن يكون اتصالك بمصر مباشرة لحرم الحزب من العون المخصص للصحيفة وهو عون كبير لا يذهب إلا جزء منه إليها ، ولذلك حيل بينك وبين مقابلة رئيس الوزراء ..

وعدت من القاهرة وفي نفسي ثورة ...

كيف انتقمت من يحي الفضلي

عندما تخليت عن جريدة الأهرام في عام ١٩٥١ تاقت نفسي إلى مراسلة ـ صحيفة مصرية أخرى وكان في نيتي أن أضرب عصفورين بحجر واحد الأول بطبيعة الحال أن أستفيد دخلاً يعوض عليّ ما فقدته أو بعضه ، والثاني أن أكشف خلفي في جريدة الأهرام ـ محمد أمين حسين ـ إذ كنت أعتقد ولا زلت ـ أنني أنشط منه في تنطس الأنباء وأشياء أخرى ... وفي ختام إحدى زياراتي للقاهرة تحدثت بالتليفون إلى الصديق الأستاذ محمد صبيح سكرتير تحرير جريدة (الأساس) وحددت معه ميعاداً في الساعة التاسعة من مساء نفس اليوم لمقابلته في المكتب ..

وكنت أرغب في أن أعرض عليه استعدادي لمراسلة جريدة (الأساس) من الخرطوم ... وكانت الأساس رغم نضوب مواردها المالية في ذلك الحين ، تلقى الإقبال من الصحفيين بسبب تواتر الإشاعات عن قرب تولي إبراهيم عبد الهادي باشا الحكم ، وبالتالي عن قرب تحسن الظروف المادية للعاملين بها ، واكتساء أجسادهم العارية بالريش وهو أمر طبيعي لمن عرف تقلبات الرياح في مصر وتخيرت بدلة زرقاء كان أصدقائي ومنهم محمد عشري الصديق يسمونها بدلة مقابلة الحكام ... وكانت لهذه البدلة خصائص ممتازة من بينها أنها تظهر في الليل سوداء كأنها (اسموكنج) ...

وهرعت للميعاد ...

تغيير :

لم يفتني وأنا أقترب من دار الجريدة أن ألاحظ ما طرأ من تغيير محسوس عليها .. فقد انتشرت السيارات الفارهة أمام الدار وفي الأزقة والحواري التي إلى جانبها مما دلّ على كثرة الزوار ... هؤلاء الزوار هم الذين عناهم الأستاذ محمد زكي عبد القادر في أحاديثه بالبوصلة لأنهم يتجهون دائماً نحو نجمة القطب .

ودخلت فلما مررت بـالرواق الطـويـل استقبلني عـدد وفير من السـادة وطـلاب الـوظـائف وخطـاب الحـظ ، وأصحـاب الأعمـال والمستـوزرين .. والصحفيين والمخبرين .. وأخيراً وجدت نفسي في غرفة خـاصـة بكبـار القوم ، وكان الأستـاذ محمد صبيح يتصـدرهم وصوته الرخي النبرات ، المحمل بنغمـة التواضع المفتعل ، يتردد بين جـدرانهـا .. وصـافحني بحرارة وتـلاحقت الأيـدي تصـافحني بحرارة أيضـاً وعنَّ الصـديـق الكريم أن يبرني ويبر نفسه ، فقدمني بوصفي زعيماً سودانياً ، وذكر اسمي الأول (يحيى) .. ولما كان اسمي وشكلي وهندامي ينطبق على شخص آخر ارتفعت له شهرة في مصر - وهو يحيى الفضلي فقد أخـذوا يخاطبونني بهذه الصفة .

ولم يُعْنَ محمـد صبيح بـالتصحيح ولم أُعْنَ أنـا كـذلـك ، (لأنـه لبس تعـودت عليـه) وانطلق بخور عبق حـولي كلـه ثنـاء وتـزكيـات ، حـديث عن الجهـاد والنضـال والـوحـدة وما فعله السعديون من أجل السودان .. وتعلق السودانيين بالسعـديين .. وكانت الأكاذيب مقصودة أو غير مقصودة تعبر القاعة في سهولة ويسر وكان النفاق مرفوع اللواء .

كبرياء :

وانحسر عني شعور الارتياح بهذه الحفـاوة والإقبـال شيئـاً فشيئـاً .. لقـد أخـذ الوقت (يسرقنا) بسرعة .. وكنت على أهبة السفر بالطائرة في منتصف الليل .

وازداد توتر أعصـابي واشتـد ضيقي .. وكلمـا حـاولت أن أُسرَّ لمحمـد صبيح بموضوعي دفعتني أحاديث الحاضرين إلى مجالات عالية وخانتني الصراحة ، ولعبت بنفسي الكبرياء .

الباشا :

وفجـأة أقبـل من يقـول اليـاشـا حضر .. فـدفعتني المـوجـة ، ومضيت مـع الآخرين لأصافح إبراهيم عبد الهادي باشا ، وأجلس صـامتـاً إلى جـانبـه وجوانحي تغلي .. وعنـدمـا اقتربت الساعة من الحادية عشرة جمعت أطراف شجـاعتي ، واستـأذنت في الإنصراف وسط عاصفة من التحيات والسلامات والدعوة بالظفر .

ولعنت في نفسي كل مبادئ التشـابـه والحروف المركبـة منهـا ، وانحـدرت إلى فنـدق (الجزيرة بلس) لأجمع متاعي ، وأهيئ نفسي لرحلة العودة .

وقابلت عند بهو الفندق الخواجه جورج (المدير) وهو يوناني بجبوح وكنت قد وعدته بالبحث له عن عمل في مصلحة المرطبات السودانية بمرتب مجز ..

وكان لهذا السبب ينظر إلى أمري نظرة عاطفية ذات أبعاد .. وتقدم مني ووجهه يشرق بالابتسام وسألني في رقة : هل دفعت الحساب ؟ واجتاحتني موجة من السخط والتمرد فقلت له في عنف : اسمع أنا يحي الفضلي سكرتير حزب الأشقاء ... ونزولي على حساب الضيافة ؟ فهمت ؟ ؟ ونظر الرجل إلي في استغراب ... وقال : ماذا حدث لك .. أنت يحي عبد القادر صحفي من الخرطوم .. فكر كويس ؟

فأجبته في انفعال : فكرت كويس ، ووجدت ده أحسن ، أُمال كل واحد في جريدة الأساس يصر على أنني يحي الفضلي فأحرم من البحث عن وظيفة لا تدر أكثر من ثلاثين جنيهاً في الشهر على أحسن التقديرات ، وهنا في اللوكندة لأنني لازم أدفع ... تتفتح عيونكم ولا ترون هذا التشابه .. وأدرك الرجل اللماح الموقف الساخر وراقته المسرحية فارتفع صوته الغليظ بالضحك ثم اندفعت أنا بدوري أضحك ، ضحكنا من الأعماق ، وتماسكنا يداً بيد ، ومضينا ندور دورات سريعة ، طائشة (وكرشانا) تهتزان وتصطدمان ، ودار الخدم حولنا متسائلين حيارى ، لقد حسبوا أننا كسبنا البريمو وكان لهذا الضحك أثره ، فقد أبى الرجل الكريم المضياف إلا أن يبقي أجر اللوكندة ديناً علي ريثما أبعث به إليه من الخرطوم .. وأُقسمُ بأغلظ الأيمان إنني بعثتُ به كاملاً فيما بعد ولم ينسى أن يذكرني في آخر لحظة بالمنصب الذي يتوق إليه في مصلحة المرطبات ..

لقد انتقمت :

وعندما فاز الوطني الاتحادي عام ١٩٥٣ فوزه الكاسح في انتخابات الحكم الذاتي كنت أعمل على تركيب ماكينة طباعة باسم الحزب الوطني (الهندي) وذهبت أنا والشريف الحسين إلى شركة جلاتلي حيث ابتعنا دينمو قوة خمسة أحصنة لم يكن موجوداً غيره .. واختلف العمال في أمر صلاحيته ، وطريقة تركيبه ، وأردنا أن نستأنس برأي مهندس ميكانيكي كفء .

وقابلت موظفاً قبطياً من موظفي شركة جلاتلي في مكاتب وكالة السياحة (أبو

عفان) وكنت قد رأيته في الشركة مراراً فدعوته لزيارة مكتبي ، وكان إلى جوار الوكالة ولبى الدعوة ونظر الموظف على ما يظهر إلى اليافطة التي على باب المكتب وهي تحمل اسم (الحزب الوطني) وقارنها باسمي وتوصل إلى نتيجة ، فلما بحثت معه موضوع المهندس قال لي في حماسة ولا يهمك أنا سوف آتيك بمهندس حالاً وما هي إلا عشر دقائق حتى رن جرس التليفون ، وخاطبني الموظف وقال لي : إن مهندس الشركة المستر جيمس سوف يحضر في الحال لتركيب الدينمو وبهت ثم قلت : والأجر إنه ربما طلب كثيراً فأجاب : ولا مليم ... وجاء المهندس الكبير بسيارته ، وحملني إلى المطبعة وقام بكل (الشغلانه) وعاد بي إلى المكتب ، وبدلاً من أن أشكره ، شكرني ثم انصرف .. وراجعت نفسي وشعرت بأن المسألة غير عادية ... وفي النهاية فطنت فإن الموظف القبطي الذكي جداً .. حسبني يحي الفضلي المرشح للوزارة في ذلك الحين ، وخدمة صغيرة كهذه لوزير المستقبل - ليست بأمر شاق وعسير - وضحكت ضحكة عالية مدوية وبادرت من كان حولي قائلاً : لقد انتقمت - لقد أضرّ بي يحي الفضلي مرة ، وها هو اليوم يحسن إليّ ودقة بدقة ، والبادئ أظلم .

لا بديل عن الوباء

في عـام ١٩٥١ كانت عـلاقتي بجريـدة الأهرام قـد اهتزت اهتزازا شـديـدا . بعـد أن حرمتني الجريدة من كل مرتبي مدة عام كامل بحجة استيفاء ديون التوزيع وكانت التزاماتي العائلية كبيرة وكنت لم أزل أحرص على أداء هذه الالتزامات لا بدافع الواجب وحده وإنما بدافع الحب أيضا .

فإنه قل أن تربط بين أفراد أسرة واحدة ما تربط بين أفراد أسرتي من عاطفة فياضـة قوية تكاد تكتسح كل الحدود .

ولعل هـذه الرابطـة هي مصـدر النجـاح الوحيـد في حيـاتي كلهـا ... بل لعل هـذه الرابطـة هي مصـدر كل الحوافـز التي تـدفعني للجهـاد في سبيـل العمـل والـدأب عليـه بـل والإصرار على هـذا الـدأب رغم اشتـداد الظلمـات وانبهـام المعـالم وتتـابع الفشل ..... وكثرة العراقيل .... ورأيت في البقاء في العاصمة المثلثة متأبطاً رخصتي جريـدة السوداني اليوميـة وصحيفـة المستقبـل الأسبـوعيـة غير المنتظمتي الصـدور دون دخـل يستـوعب مرتبـات المستخدمين واحتياجاتي واحتياجات الأسرة ، أمر غير مقبول أو محتمل .

وهداني التفكير الطويل إلى قرع الباب الوحيد المفتوح أمامي ورأيت أن أقوم برحلة إقليمية بحثاً عن اشتراكات وكان الغرب ودنقلا هما المنطقتان الوحيـدتـان اللتـان لم أكن قـد ذهبت إليهما من قبل ..

المديريات الشمالية :

واقترح كثير من الأصدقاء أن أبادر برحلة الغرب وقالوا أنك ستعود منها بمـا لا يقل عن ألفي جنيه مما يمدك برأس مال تصدر به صحيفتك بضعة أشهر وأضافوا أمـا دنقلا فـإن العقيـدة لم تمكن جريـدة صـوت السـودان لسـان حـال طـائفـة الختميـة من تحصيـل قيمـة الاشتراكات رغم كثرة تجوال الخلفاء .

غير أن هؤلاء الأصدقاء طلبوا إليّ التريث في السفر فإن وباء السحائي كان قد اكتسح الغرب في ذلك الحين ... وكان عدد صرعاه في اليوم الواحد يعدون بالمئات وكانت رحلتي في مثل هذا الظرف إنما هي رحلة في ركاب الموت .

وقبلت شطرا من الاقتراح وهو السفر إلى الغرب ولم أقبل الشطر الآخر وهو تأجيل السفر إلى حين انحسار الوباء بسبب ما كنت أعاني من ضيق وعسر ماديين بلغا ذروتها .. لقد تجاوز موقفي طور الاختيار ...

ما جزاء الإحسان إلا الإحسان :

وشددت الرحال إلى الأبيض في مارس من عام ١٩٥١ يصحبني الزميل عوض علي عمر أحد رفاق الشدة ، وفي محطة الأبيض كان في انتظاري الزميل (الذي كبر بعد ذلك مكانةً لا حجماً) الأستاذ الفاتح النور وقد كنت أبرقت إليه ...

وأنزلني في فندق يجاور دار كردفان القديمة ، وفي صباح اليوم التالي مضيت إلى السوق ، وكنت لا أسمع إلا أحاديث السحائي وعدد صرعاه والأنباء المؤسفة التي تصل من أطراف الإقليم ... وكيف أن بعض المرضى قضى عليهم في الكرنتينات لا من المرض بل من العطش وعاونني السيد الريح السنهوري وهو شاب نبيل كريم الخلق على مهمتي معاونة مخلصة صادقة ذات إنتاج ..

ورغم أن مدينة الأبيض كانت في حالة بالغة السوء من القلق والإضراب فقد جمعنا حوالي ٦٠٠ جنيه في بضعة أيام ، إن الإشتراك كان يمثل في واقعه إكرام زائر ، وتقدير رسالة ، أكثر من الرغبة في قراءة الجريدة نفسها ... ودعاني الفاتح للكتابة عن بعض الشخصيات هناك في جريدته (كردفان) وكان أسوأ ما فعلت أنني كتبتُ عن الفاتح فإذا بي أذمه ، وهو مضيفي ... قد يصح أنني ذكرت بعض الحقائق ، فالفاتح حتى الآن كاتب غير جيد وغير صحيح اللغة والنحو ، والفاتح حتى الآن يكاد يكون قزما ، والفاتح حتى الآن يكا د يكون مثالا على شح الطبيعة في الخلق حيناً وبراعتها في سوء التنسيق .. حيناً آخر .

والفاتح حتى الآن يكاد يكون رجل المجتمع الذي يحسن المدارة إلى حدود تلاصق النفاق ولكن المناسبة ما كانت تقتضي مثل هذه الصراحة الجافة التي قد تجرح وتؤذي ..

وربما كان الفاتح قد ضاق بما كتبت لأن ما نشره لم يكن كل ما كتبت ... إن نفسي قد أحالت منها المتاعب والآلام والخيبات والحظوظ السيئة والكبرياء المهيضة وكرا أظلمت بعض جنباته فإذا هي تمتلئ بما يشبه الحقد على المجتمع ...

النهود :

وغادرت الأبيض باللوريات إلى النهود وقابلت القاضي الأهلي أبو رنات وشهدته وهو يحكم على كل من شابيْن بالسجن ستة أشهر لسبهما الدين وهما سكرانان ..... وشهدت صفوفا من الآبار الجافة المفتوحة التي يبلغ متوسط أعماقها حوالي المائة قدم والتي تعتبر خير وسيلة للانتحار غير المطلوب لعابري السبيل ليلا .. وكادت إحداهما تضمني إليها وأنا أسعى إلى منزل صديقي أحمد مختار الأصم وكان يعمل آنذاك موظفا في مركز النهود .. وأمضيت ثلاثة أيام غير سعيدة .. وفي طريق العودة إلى الأبيض قضيت الليل ، في مركز لتجميع اللوريات يقع في منتصف الطريق يسمى الخوى وكان المنظر شائقا فإن أضواء عشرات اللوريات المقبلة المدبرة حين تلتقي عبر الأجواء ودوي ماكيناتها وصخب راكبيها وقد تعالى ، تذكرني بمعركة حربية فتح فيها الجانبان النار وأخذت الطائرات تعاون المشاة على شق طريقها في جو محموم ضاج مليء بالحركة والعنف وأضواء الكشافات ..

الفاشــر :

ومن الأبيض ذهبت بالطائرة إلى الفاشر وهناك نزلت ضيفا على الصديق المرحوم الفاتح البدوي ، وبالسيارة إلى نيالا ... حيث وجدت من كرم أهل المنطقة وفي مقدمتهم (أهلي) الجعليون وعلى رأسهم السيد الشيخ إبراهيم فرح ما أطلق لساني بالشكر ... ثم بالطائرة إلى الجنينة لأقابل الرجل العظيم السلطان عبد الرحمن محمد بحر الدين .

لقد عرفته منذ سنين معدودات أثناء رحلة إلى القاهرة كما عرفته أثناء تردده على الخرطوم وكانت لي بوالده معرفة من قبل ونمت بيني وبينه صداقة وطيدة وعدت من الرحلة لأجد أن ابن خالتي عثمان قد أذاع عني أنني مُت بداء (السحائي) الرهيب ...

إشاعة موتي :

وقد آذى زوجتي وأبنائي وبناتي إيذاء شديدا ، ورغم وصول نبأ من قبلي لهم ، عن

طريق زميل الرحلة فإنهم لم يصدقوا إلا بعد رؤيتي مجسداً لحماً ودماً .

وقد كان لقريبي هذا فضل إماتتي في وقت آخر ... أيضا ولكن برقية وصلت في نفس اليوم جعلت تأثير الخبر المتسرع يتلاشى وذلك خلال رحلة قمت بها في الشرق الأوسط في وقت لاحق ولم يكن عثمان في كليهما سيء النية وإنما كان يتلقى الخبر فيصدقه ويذيعه ، دون أن تكون له القدرة على التحري وتمحيص ما يرد إليه .

عتباني :

وتعذر عليّ عند عودتي طبع الصحيفتين (الأنباء والمستقبل) أو إحداهما فإن المطابع القليلة الموجودة كانت ممتلئة بالعمل حتى الحافة وأخيرا وجدت ضالتي في مطبعة جديدة كان ينشئها الأستاذ محمد عبد الحليم العتباني ... وقد قبل أن يصدر (المستقبل) مرة في الأسبوع على أن يصفها لديه ويطبعها في مطبعة الرأي العام لأن ماكيناته لم تكن قد تم تركيبها بعد واتفق على ذلك مع ابن عمه السيد إسماعيل العتباني صاحب الرأي العام .

وصدف لسوء الحظ أن نشرت المستقبل في نفس هذا العدد كلمة للمرحوم الأستاذ صلاح الدين العتباني ، عني ..

ولم يكن في الكلمة ثناء عليّ بل فيها انتقاد وتحليل ، وكعادة صلاح وقع (عتباني) ويبدو أن الأستاذ إسماعيل العتباني قرأ المقال بعد أن أوشكت المطبعة على الفراغ من الكمية ، فساءه أن يظن قارئ أن نسل الآلهة قد كتب عن يحي عبد القادر (ولو شتيمة)

فأمر بإتلاف كل الكمية المطبوعة ، وإتمام اسم صلاح الدين العتباني ... ثم الطبع من جديد ولم يكتف بذلك بل أمر بعدم طبع المستقبل مرة أخرى وقد أخرت هذه العملية العدد عن الصدور في وقت مبكر .

وفي هذا الإجراء ثلاثة أخطاء الأول هو إطلاع إسماعيل على الصحيفة قبل صدورها ولم يكن هو الطابع قانونيا في واقع الأمر ، وإنما كان الطابع هو الأستاذ محمد عبد الحليم العتباني .

والثاني أنه أدخل يده بالإصلاح في الصحيفة دون استشارة رئيس التحرير والثالث أنه أمر بإيقاف طبع المستقبل فيا بعد ... ولا صلة لاتفاق الطبع بنشر المقال وقد كان في

إمكانه أن يشترط ألا يذكر اسمه في المستقبل مثلا أو إذا ذكر اسمه حف بمظاهر الألوهية والتجلة والوقار أو إذا ذكر هذا الاسم خررنا له ساجدين .

هذا وقد رد السيد محمد عبد الحليم العتباني لي بقية المبلغ الذي كنت قد دفعته له مقدما لطبع المستقبل بعد أن تعذر الاستمرار في الاتفاق وهكذا قدر أن يحكم عليّ بالفشل رغم عناصر النجاح ..

المقالة التي سببت الأزمة

كتب هذه الكلمة المرحوم صلاح الدين العتباني ونشرها في صحيفة المستقبل عام ١٩٥١ (أعرف يحي عبد القادر منذ سبعة عشر عاما أو أكثر حين جاء إلى الخرطوم لأول مرة ليقتحم ميدان الصحافة الوليد أو ليقتحم الصحافة في عهدها الجديد ممثلا في أول جريدة يومية تصدر في السودان وهي (النيل) وكنا نرمقه آنذاك بنظرات فيها شيء من الإشفاق والنفور ، وفيها شيء من الاحترام والتقدير ، ثم تلقفتنا الحياة بعد ذلك إيذانا بتعارفنا وارتيادنا الأندية والمجتمعات سويا .

لم يتغير فيه شيء يحي قبل سبعة عشر عاما هو يحي الآن وأحسب أنه سيبقى هكذا إلى أن يطلق الحياة ... لم يتغير سَمْتُه ولا شكله ولا لونه ولا حجمه ، كأن الحياة قد وهبته كل نصيبه في النمو دفعة واحدة ، وعندما استرجع تاريخ يحي أعجب كيف ظل شعره فاحما لا يبيض ، وكيف بقي خياله نشطا لا يخبو ، وكيف بقي جسمه قويا لا يهن وكيف بقيت آماله متأججة في نفسه تستدني كل عزيز المنال ، دون أن يعتريها يأس إذا حاق بها القصور أو الفشل . والصحافة في عهدها الأول كانت عناء ، وكانت استجداء وكانت أقل المهن احتراما عند الناس ، وأضعفها استجلابا لكسرة الخبز ، وهي في عهدها الأخير أكثر المهن كرامة وتقديرا لدى الناس وقد كافح يحي في العهدين كافح بإمكانياته ومؤهلاته ومعتقداته وميوله وأهوائه ، وكافح ضد هذه المؤهلات ... والمعتقدات والميول والأهواء ، فهو ينتقل من عاطفة إلى عاطفة ومن فكرة إلى فكرة ومن هدف إلى هدف ... ومن خط إلى خط بنفس القوة والاندفاع لا يحس بخطورة هذا التحول ولا يقف ليستجمع أنفاسه ، ولا يحفل بما يقوله الناس فيه ... والناس مختلفون في أمره ، وهم صادقون في أكثر ما اختلفوا فيه فهو خليط من العواطف المتباينة الشاذة منها والطبيعية ، فالقائل منهم أن

يحي لا يستقر على مائدة واحدة أو لا يثبت على رأي واحد ، صادق ... والقائل أن يحي لا يحيد عن رأيه ، صادق أيضا ، والذي يصفه بالطيبة والخجل صادق ، والذي يرميه بالجرأة والمكر صادق أيضا ولكن الشيء الوحيد الذي يتصف به يحي دون أن يكون له نقيض ، هو حيويته الدافقة ، ونشاطه المتدفق فبهذه الحيوية وحدها استطاع أن يعمل في الحقل الصحفي ما يقرب من العشرين عاما وسط الدسائس الظاهرة والمستترة وبهذه الحيوية وحدها استطاع يحي أن يكوّن لنفسه اسما ويترسم له أسلوبا بصرف النظر عن رضاء الناس أو سخطهم على أسلوبه أو اسمه فما كانت مقاييس الناس من الصواب ، حتى تؤثر في قيم الأشياء ، وبهذه الحيوية وحدها أيضا ، استطاع أن يقف على قدميه رغم الهزات العنيفة الكفيلة بزلزلة أي رجل غيره ، ولكنه إذا تعثر لا يلبث أن يقف وإذا اختفى لا يلبث أن يظهر ، والصفة الثانية التي لا نقيض لها عنده هي ظلمه للناس وظلمه لنفسه فإن يحي لا يحب أن يبدو إلا في الثوب الذي يكره الناس رؤيته فيه ، ولا يحب أن يظهر بالصورة التي تطابق ما في أذهان الناس ولو أنه بدأ بها لكانت أكرم له وأجدى عليه وكثيرا ما تسنح له الفرص ليعتدل ، وكثيرا ما تتوفر لديه أسباب القرب من الناس ، وإزالة الحاجز القائم بينه وبينهم ، فإذا به يزداد بعداً ويمعن نفورا لا تعففا ولا ترفعا من التقرب إلى الناس ، بل خضوعا لهذه الطبيعة التي عاش بها حتى اليوم ...

إنه هكذا خلق

الثقة قمة عالية والفشل هاوية سحيقة

في عام ١٩٥٢ توقفت (جريدة السوداني) التي كنت أصدرها ، وخلفت وراءها ديوناً تربو على الألفين من الجنيهات .

وتفاهمت مع الأستاذ حسن الطاهر زروق وكان يتعاون معي في الجريدة على أن ننشئ وكالة أنباء تمد مصر يومياً بأخبار السودان وتمد السوداني بأخبار مصر . وطرت إلى القاهرة وهناك بحثت عمن يتولى الإشراف على أعمال مكتب الوكالة في العاصمة المصرية ، وكان ذهني ينصرف إلى أن أجد زميلاً على طرازي يقاسمني الفكرة ويتجاوب معي في الصبر إلى أن نعثر على مخرج ، كما كنا نفعل أنا وحسن الطاهر زروق في الخرطوم ، ومثل هؤلاء الصحفيين المصريين غير قليل ... واستشرت في ذلك السيد أحمد أبو الفتح رئيس تحرير المصري يوم ذاك ... وتبادل أبو الفتح مع بعض الحاضرين الرأي في هذا الموضوع ثم استقر اختيارهم على شاب مصري يدعى الدكتور حسني خليفة (شقيق السيد إبراهيم خليفة المستشار الصحفي لسفارة مصر في الخرطوم سابقاً) .

وسرعان ما اتصل أبو الفتح بالدكتور حسني ، وعرض عليه الاقتراح ، فوافق في الحال ، وتم الاتفاق على أن أقابله في صبيحة اليوم التالي بمكتبه لمناقشة التفاصيل .

وخرجت وأنا على شيء من الضيق فإن الاهتمام البالغ الذي أعاره أبو الفتح وأصدقاؤه للوكالة ، والارتباط الأدبي الذي التزمت به للدكتور حسني ، جعلني أشعر بأنني ذهبت إلى مدى لا يحتمله (جيبي) ـ إن كان لجيبي في ذلك الوقت احتمال ـ .

وزاد من ضيقي أن أحدهم وهو الأستاذ عبد الحليم محمود الثري المعروف كان يخاطبني بوصفي أحد أقطاب حزب الأشقاء الكبار ... ولعله ظنني يحي الفضلي ـ والشبه بيني وبينه جسماً جد قريب ـ ونمت في ذلك المساء وأنا غير مرتاح الضمير .

واستيقظت في الصباح مبكراً ـ وكنت أنزل في فندق قصر الجزيرة بشارع مسبيرو ـ

وظللت أقرع التليفون هنا وهناك إلى أن اهتديت إلى ضالتي وكان هو السيد زين العابدين صالح وقلت في صوت المحرج : أحتاج إلى نقود ؟

ورد من الجانب الثاني في نغمة لا تخلو من تهكم : كلنا نحتاج إلى نقود ؟؟ وكاد يلقي بالسماعة إنهاءً للمحادثة لولا أنني رجوته أن ينتظرني في مقره إلى أن أحضر وأشرح له الخطب ، على أن يكون مستعداً لدفع أجرة التاكسي .

ووصلت إلى العمارة التي يوجد فيها مكتبه وهي تقع بالقرب من الأزهر ، فإذا به قد غادر المصعد على أهبة الرحيل : واستطعت أن أقنعه في أقل من دقيقة - وعاد إلى مكتبه وبعد محادثة قصيرة بالتليفون قال لي : أسرع إلى الدرديري وصاح بصراحته المعهودة : أتكون غريباً في القاهرة ، وتعتزم إنشاء مكتب مؤثث لوكالة أنباء ، وتبحث عن مدير وموظفين ، وتسكن في أرقى الفنادق ، وأنت لا تملك أجر انتقالك بالتاكسي ؟؟ فقلت له وأنا أشعر بشعور الغريق وهو يرى الأمواج تتعالى فوق رأسه ، وأنفاسه ترسم فقاقيع إلى سطح الماء ، وقد فقد القدرة على الخلاص ... إن بين الاختيار والضرورة فاصلاً تحسبه رقيقاً وأحسبه في سعة ما بين السماء والأرض ؟؟

ومضيت ... فوجدت الأستاذ الدرديري أحمد إسماعيل تحت ظل عمارة أبي العلا في شارع قصر النيل ... ومد إلي يداً رخوة ، وتبادلنا تحية فاترة ، ثم ناولني عشرة جنيهات ... وفي عينيه نظرة لم تعجبني .

وضممت المبلغ في يدي ضمة شديدة ، وتبخر ما بنفسي من ضيم ... وارتقيت التاكسي مرة أخرى ، وأنا أحس بأن الدنيا في قبضتي ...

لقد عشت دائماً للساعة الراهنة - ولم أنظر للغد ... فالغد بيد الله ...

وضعفي ينحصر في ثقتي المطلقة بنفسي وبالمستقبل وبمعونة القدر ، وقد عانيت من هذا الضعف في قسوة لأنه كثيراً ما دفعني للعمل بغير تمهيد أو استعداد مما جعلني فريسة سهلة للفشل المريع ... إن الثقة المطلقة قمة عالية والفشل هاوية سحيقة ويا ويل من ينحدر منها إليه .

وذهبت إلى موعد الدكتور حسني - وفوجئت بمكتب فاخر يشغل أجمل شقة في

أجمل عمارة بشارع الملكة ، ويشتمل على عدة غرف ، ويزدحم بالموظفين والعمال ، وتكاد كل قطعة فيه تحسب في عداد النفائس ، وتجثم في أدنى العمارة سيارة فارهة علمت أنها للدكتور .

كما علمت أنه يصدر نشرتين يوميتين أخباريتين إحداهما بالفرنسية والأخرى بالإنجليزية يستفيد منها مئات الجنيهات شهرياً ، وكان بين موظفيه الأستاذ حسن صبحي أول رئيس تحرير لجريدة النيل والرجل الذي شغل السودان قاطبة حيناً من الزمن وتصلبت عضلات وجهي ... وانتابني ذهول ، وسألت نفسي هل أكون رئيساً لمثل هذا الرجل ؟ وكيف ؟ وبم ؟ وجلست وقد حافظت على هدوئي ... وحاولت أن أبتسم ... وأن أندمج في التمثيلية حتى النهاية ، وليكن بعد ذلك ما يكون ... وتذكرت حسن الطاهر زروق بقميصه وبنطلونه إياهما بالخرطوم ، وقد أخذ يشحذ ذهنه ، لعله يعثر على طريقة للوصول إلى داره بأم درمان ؟؟ وقلت في عبارات أحسنت اختيارها :

من الخير أن نتكلم عن المشروع مباشرة فإن لدي أعمالاً كثيرة ينبغي أن أصرفها اليوم ، واعتدلت في جلستي كشأن أرباب الأعمال ، وحاولت أن أحجب حذائي فإن منظره لم يكن منسجماً مع الجو العام ؟ وانصرفنا إلى المشروع واطردت الأرقام وتراكمت حتى خيل إلي أن حجم رأسي تضاعف عدة مرات .

ولاحظت في دراسة خاطفة أن محدثي وهو دكتور في الاقتصاد السياسي من جامعة تشيكية ، ومتزوج من تشيكية أيضاً ... ويعيش في مستوى معيشي مرتفع ، تلهبه الرغبة في أن يقوم بمغامرة تكسبه الكثير من المال ... وقد وجد في شخصي (لقطة) ربما حققت له مطمحه .

وكان يضع مبلغ المائة جنيه بين النفقات كأنه يضع بضع مليمات ... وتغير الموقف فجأة ، فإن تأميني على كل مطلب تقدم به ، وإشاراتي لمعونات غامضة من حكومتي مصر والسودان والأحزاب نفث في روعه أنني مسنود بسند عظيم - فإذا به يقترح في النهاية أن يشاركني وانتهينا بعد جلسات عديدة ومآدب دسمة دفع تكاليفها بسخاء ، إلى عقد اتفاقية تجعل الأعباء بيننا مناصفة ، والأرباح وهذا هو المهم بطبيعة الحال في نظره ، مناصفة أيضاً .

وكتبنا إلى وكالة الوزراء لشؤون السودان خطاباً وقعنّاه معاً نطلب فيه العون ... ووعدت بأن يكون نصيبي إنجاز معونات السودان وهي كثيرة وضخمة . وفشلنا في الوصول إلى مكاتب العقد العقاري في الوقت المناسب لتوثيق العقد . ولعل الفشل كان مرتباً لحاجة في نفس الدكتور حسني .

وعدت إلى السودان في مساء نفس اليوم وأنا أعيش في حلم ... لم أستيقظ منه إلا عندما رأيت وجه الزميل حسن الطاهر زروق ؟؟

صحفي من القاهرة

أشرت في ذكريات سابقة إلى اتفاق تم بيني وبين الدكتور حسني خليفة من القاهرة على أن ننشئ وكالة أنباء سودانية مصرية تصدر نشرة في الخرطوم مشتملة على أخبار مصر ، وتصدر نشرة في القاهرة مشتملة على أخبار الخرطوم وأتابع الحديث فيما يلي : ـ

سر وراء الإلحاح في فض الشركة ؟!

لم تتعسر علي العودة من القاهرة إلى الخرطوم فقد تذكر الأستاذ الصديق محمد عبد الهادي وكان عضواً في لجنة السودان التابعة لوكالة وزارة شؤون السودان أن لي صلة بسيادة الشريف الهندي وأنني صحفي سوداني يشار له بالبنان ... فاحتسب أجر مقامي بالفندق طيلة شهر ونصف الشهر ضيافة على الحكومة المصرية كما أرسل لي تذكرة على الخطوط الجوية المصرية مجاناً ...

وأقسم أنني لم أسع لشيء من ذلك وإنما جاءني طائعاً مختاراً ـ وما لي على ذوي الريبة من سبيل ... ثم استطعت أن أحصل على بعض الإعلانات لكتابي ـ شخصيات من السودان ـ (الجزء الأول) (وقد طبع على نفقة مطبعة مصر) من السيدين المرحوم ميرغني عثمان صالح ، وعبد المتعال محمد عبد الله وهما رجلان شهمان تعرفهما وأنت غريب أكثر مما تعرفهما وأنت قريب ... وقد توفر لي بفضل هذا العون أن أحمل للأولاد كسى ولعباً وقفصاً من العنب وأن يبقى في يدي قدر من المال أتحسسه بين الحين والحين فيطمئن قلبي ، وترتاح نفسي وأشعر بأنني أقف على أرض صلبة ؟؟

وقد وقع حادثان قبل مغادرتي القاهرة كان من السهل أن يحطما أعصابي لولا جريان الأمور لصالحي في سرعة لم أكن أتوقعها ... أما الحادث الأول هو اختفاء زميل سوداني من الفندق الذي أنزل فيه بعد أن مكث ثلاثة أشهر ، طعم فيها وتجرع الخمر ، واستدان من المدير مالاً وعاش في بذخ الأمراء والسلاطين وكانت حصيلة حسابه سبعمائة جنيه ولم يترك

غير حقيبة جردها من الملابس على دفعات وغضب أصحاب الفندق من الحادث وساء ظنهم بالزعماء السودانيين المقيمين وكنت أعتبر منهم وأخذوا يراجعون دفاترهم ويواظبون على إرسال فواتيرهم للمتأخرين في الدفع فتصل إلي وهي تفح وكأنها رؤوس الثعابين ، أما الحادث الثاني فبطله زميل أيضاً ولكن من غير السودانيين فقد زارني في الغرفة وتركته للحمام المرفق بها ، وعندما عدت وأخذت أرتدي ملابسي ونقلت نقودي من جيب الجاكتة المعلقة داخل الدولاب إلى جيب الجاكتة المعلقة على جسدي ، وجدتها تنقص سبعة جنيهات ، فعرفت في الحال أن المبلغ قد تحول إلى جيب الزميل ولم أثر أو أثقل على الزميل بالتهم بل شعرت بشيء من الارتياح ، إذ كان اكتفاؤه بما دون الربع مما أملك دلالة على حسن تقدير ورعاية وذوق ... ورافقته دون أن يلحق التغيير وجهي أو حركاتي ... وطلبت إليه كوداع أن يشتري لي سجاير على حسابه وأن أحمل بعض الفاكهة معي إلى الفندق على حسابه وأن أبتاع صحفاً على حسابه ، ولعله أدرك أنني علمت فلم يتردد ودفع في طواعية ... وإذعان (يحسد عليهما) وأحسست باغتباط خفي في أن أسترد الجزء الأكبر من نقودي شيئاً فشيئاً وتواعدنا للغد ... وكنت معتزماً تكرار ما فعلت ذلك المساء لولا أنه انقطع واقتنع بما بقي له من نصيب ...

وبدأت نشاطي في الخرطوم بمجرد وصولي حيث تلمست الأحزاب والهيئات والصحف لأتعرف على مدى ما يمكن أن تقدم من معونة لوكالة أنباء تربط الخرطوم بالقاهرة والقاهرة بالخرطوم ، فلم أجد غير وعود جوفاء وتثبيط للهمم ونصائح لا يلتمع فيها بريق من أمل . واعتصمت بالصبر حليفي دائماً ـ فكان حسن الطاهر زروق يرمقني كعادته بعينين واسعتين صافيتين كأنها قاع الغدير وهو لا يتجشم حتى مؤونة أن يسأل ... لقد فلسف الحياة واستوى عنده الوجود والعدم والغنى والفقر ... وقد حددنا لإصدار النشرة ميعاداً ونشرنا في الصحف المصرية إعلانات بهذا الخصوص وصدرت نشرة واحدة ثم توقفت لا لأنني تأخرت عن موافاة مكتب القاهرة بالأنباء ... ولا لأن ما بنفسي من يأس مريع سطرته في مكتوب وبعثت به إلى الدكتور حسني ... بل لأن مكتب القاهرة غيَّر رأيه فجأة لأسباب لا أعلمها .

وجاءني إخطار تليفوني من الدكتور حسني خليفة يفيد بأمر التوقف ويذكر أن

خطاباً مسجلاً في طريقه إليّ ... ولم أشعر بكبير أسى لهذا التحول فإن طبيعتي غير السريعة الاستجابة للانفعالات الطارئة تمدني بزاد من اللامبالاة لا ينفد ... لقد تعودت على أن أجتر متاعبي قطعة ... قطعة ... فلا ينمو الشعور بالحزن إلا في بطء غريب ثم يستقر في أعماقي فلا يظهر منه على صفحة وجهي أو حديثي أو تصرفاتي إلا أثر باهت لا يكاد يبين ... وتلقيت الرسالة الموعودة فإذا بالدكتور حسني يكتشف بقدرة قادر ومن تجربة يوم واحد فقط ، أن النشرة لا تجد قبولاً على الإطلاق ، وإنه لذلك يرى فض الشركة ... وشغلت عن الرد فإذا برسالة مسجلة أخرى تصلني ثم تتلوها ثالثة فرابعة ومن يعرفونني يعلمون أنني سريع البادرة وأنني قلّ أن أنظر إلى الجانب المظلم من الأشياء ... ففاتني أن أفطن إلى ما وراء هذا الإلحاح في فض الشركة ، وأن أفطن إلى هذه الضرورة الكبرى التي تحتم أن أكتب للدكتور بالموافقة على هذا (الفض) .

ولذلك فقد سجلت على نفسي ما أراده الدكتور حسني وبعثت به في رسالة عادية دون أن أتعنت أو أتشبث ... ولقد استجبت لهذه السهولة التي وسمت بها حياتي ولم أذهب إلى التعقيد وما هو إلا أمد قصير لم يتجاوز أشهراً معدودات حتى تكونت وكالة الأنباء المصرية لصاحبها الدكتور حسني خليفة ، واشتركت فيها وكالة الوزارة لشؤون السودان بمبلغ ضخم كفل لها ثباتاً واستقراراً ... وافتتح الدكتور حسني مكتب الوكالة في الخرطوم ، فتحاشاني ودعا كل من هب ودب لحفلة الافتتاح ولم يدعني ... وقابلني صدفة ذات مرة فأبت عليه نفسه إلا أن يومئ إليّ إيماءة صغيرة يسيرة كأنه ملك يرد على تحية أحد رعاياه ولكن أين هي وكالة الأنباء الآن وما هو مصير الدكتور حسني ؟ وهل أفلح في جمع المال الذي أحبه وآثر وضحّى من أجله بالكثير من القيم ؟؟

إن الدكتور حسني ما لبث أن أقصي من وكالة الأنباء وأقصي معه السلمابي مدير الوكالة في الخرطوم .

وغادر الدكتور مصر إلى أمريكا حيث ظل يعيش هناك ربما حتى الآن .

وتبخرت كل أحلام الثراء والوجاهة والقفز إلى الدرجات العليا من سلم المجتمع ...

أسرار السلمابي

أشرت إلى الاتفاق الذي تم بيني وبين الدكتور حسني خليفة في القاهرة سنة ١٩٥١ لإنشاء وكالة أنباء مصرية سودانية وكيف أننا وقعنا عقداً وعندما عدت إلى الخرطوم جاءتني رسائل متتابعة منه يطالبني فيها بإلغاء هذا العقد وقد فعلت وفاتني أن أذكر أننا كنا نعتزم تسجيل العقد في مكتب العقد العقاري بمصر وقد حددنا أنا وحسني الساعة الحادية عشرة قبل الظهر للقاء في مكتبه لكي نذهب للتسجيل ولم يحضر الدكتور حسني إلا بعد الثانية عشرة وهو الموعد الذي يغلق فيه العقد العقاري أبوابه ، ولما كنت مسافراً في نفس اليوم فقد أجلنا التسجيل إلى فرصة أخرى .

وأنا رجل - فيما أعرف عن نفسي بسيط فلم أفطن إلى سوء النية الكامن وراء تخلف حسني عن الميعاد ولم أفطن بالتالي إلى طلبه فيما بعد بإلغاء العقد .

وهي غفلة تكثر في حياتي أمثالها وهذه الغفلة وإن كشفت عن طيبة أحياناً فهي تكشف في كل الأحيان عن ضعف .

لقد كان على المرء وهو يعيش في عالم يتعاوره الخير والشر أن يكون دائماً على أهبة وحذر واحتراس .

وكالة أنباء

وأنشأ الدكتور حسني وكالة الأنباء المصرية على نفس الخطة التي كنا وضعناها سوياً تمد الصحف المصرية والإذاعة المصرية ومراسلي الصحف الأجنبية في مصر بأخبار السودان وتمد الصحف السودانية والإذاعة السودانية بأخبار مصر .

وقد أعفيت الوكالة من نفقات المحادثات التليفونية ، وهي تكاد أن تكون النفقات الرئيسية للوكالة من حيث أن (الأنباء) كلها (سواء من السودان أو مصر) تنقل عن

طريق التليفون ... وقد تضخمت أرباح الدكتور حسني من الشهر الأول ، فاشترى أجهزة ريكوردر في القاهرة والخرطوم وكان وكيله في الخرطوم هو الأستاذ محمد أحمد السلمابي (٥٠ جنيه مرتباً) ونائب الوكيل هو الأستاذ عبد العزيز حسن (٢٠ جنيه مرتباً) وكان الدكتور حسني قد تجنب أن يدعوني في حفلة الافتتاح التي دعا لها كل من هب ودب في الخرطوم .

وذات يوم قابلته بالقرب من مقهى (الجيبي) وكان يسير على قدميه وكأنما عز عليه أن يتجاوزني بغير تحية فأومأ بيده إيماءة قصيرة مختصرة ثم اتجه بنظره إلى الأمام ومضى .

ولم أغضب فقد تصورت ضعف البشر وخيل إلي والدكتور يتقفز في سيره قد ازدهاه ما أوتي من حظ أشبه ما يكون بحمل الخريف .

ولكم أشفقت عليه يوم ذاك ؟

السلمابي

والسلمابي صحفي استقلالي نظيف لا أشك في ذلك على الإطلاق .

ولا يضيره أنه قد خالف بعض المبادىء حيناً فقد باع بسعر السوق .

ولهذا السبب فإن أخبار السلمابي إلى القاهرة عن طريق الوكالة لم تكن (مشجعة) وقد اعتبرت ذات ميول غير ودية نحو مصر وأهدافها في السودان .

ولفت نظر السلمابي في رقة أولاً فقد كان رئيس تحرير صوت السودان الناطقة باسم الختمية (ومثله يجامل) ثم لفت نظره في خشونة ثانياً ثم أنذر في عنف ثالثاً ولكن السلمابي مضى في طريقه ولم يرتدع ويبدو أن الدكتور حسني خليفة ولم يكن واعياً لما يدور حوله وفاته أن يحصن نفسه أو لعل كثرة المال غطت على بصره وسمعه فلم ير ولم يسمع وحدث الانفجار فجأة حدث دون توقع فقد سحبت رخصة الوكالة .

وصودر مكتب الدكتور حسني خليفة صودرت الريكوردرات والأجهزة الأخرى المشابهة وكل ثمين وغال .

ورخص لوكالة الأنباء المصرية بعد أسبوع بالعمل من جديد ، ولكن بغير الدكتور

حسني خليفة في القاهرة وبغير السلمابي في الخرطوم وقد خلف الأخير الأستاذ عبد العزيز حسن .

ولم يلبث السلمابي إلا قليلاً حتى طرد من جريدة صوت السودان كذلك وخلفه أيضاً الأستاذ عبد العزيز حسن . ولهذا فقد سميناه على سبيل النكتة (الخليفة) لم أشمت على الدكتور حسني فقد كان حاله حتى بعد النكبة خير من حالي بكثير .

رجل في محنة

أعطيت في منتصف عام ١٩٥٢ رخصة جريدة يومية باسم « أنباء السودان » (الأولى) وحاولت أن أحصر غريمي التقليدي (الفشل) فلا أدع له منفذا يتسرب منه إليّ .... وكان الاسم نفسه من بين أسلحة الحصار ، فهو إذ يصلح لصحيفة يصلح لوكالة أنباء ... وأغريت الشريف عبد الرحمن الهندي حتى وافق على جمع تبرعات من مريديه في الجزيرة لتمويل المشروع ، وقضيت شهرا أطوف على القرى ... ومعي عونا الشريف الأمين كريته لاستلام المال ... وعلي الفضل لكتابة الإيصال .. لقد كنت كالمسن أشحذ ولا أقطع ، والمعنى في بطن الشاعر .... وبلغت حصيلة التبرعات حتى خروجي من المعمعة بعد أن نضب معين صبري ما يقرب من الألف والثلاثمائة جنيه .... وطرت إلى القاهرة حيث ابتعت ماكينة طباعة وسكينة وكنت أملك حروفا فضممتها إليها .. وعدت من رحلتي وأنا أزهو بما بلغت من النجاح .. وخلت أن الدهر قد دان لي .. ألست صاحب السيطرة على مطبعة وجريدة .... وظهيري طائفة ذات مريدين وأتباع ؟؟؟ غير أن الفشل عليه اللعنة حطم جميع أسباب الحصار ، وانطلق يعربد في طريقي ... كان السوق العربي قد هدم ، وأصاب التجار السعار فلم يبق مكان يصلح لفتح دكان إلا استولوا عليه .. ولبثت شهرين أبحث عن مقر للمطبعة فلا أجد ؟؟؟ وضاقت الحلقات شيئا فشيئا حتى أصبح بيني وبين إلغاء الرخصة أسبوع واحد .. وأخيرا هداني السيد عبد القادر الأمين الشايقي ، وكان يدير مطبعة الطابع السوداني إلى مخرج وهو أن نصف الحروف في (بدروم) تحت الأرض في دار المطبعة وأن يتولى هو الطبع على ماكينته .... ووافقت ، والغريق قد يتشبث بالقشة .. ولم تفلح المحاولة إذ كان البدروم حارا ضيقا عتيقا ... وكان العمال يفرون من العمل فيه ، وقل إنتاج من صبر على أهواله منهم .. وزاد من متاعبنا أننا اضطررنا إلى وضع منضدة التوضيب وغطاؤها من صاج في الحوش حيث شمس الصيف المهلكة تكوي عامل التوضيب من أعلى وغطاء الصاج يكويه من أسفل ... ولم يعد في

طوقنا أن ننظم عملنا فأخذت الجريدة تصدر في غير ميعاد معلوم ... وتدهورت منذ عددها الخامس .. وحدث أن صدر العدد ذات يوم في منتصف الليل وحاولنا أن نغير التاريخ فلم يفعل العامل فلما راجعناه في الصباح قال في صفاقة يحسد عليها .. ما الفرق ومصير العدد عادة مخزن المرتجعات سواء صدر بتاريخ الأمس أو اليوم أو الغد ... ؟

وكان في هذا المعنى نهاية التهكم وكان كذلك نهاية في هبوط الروح المعنوية للعاملين معنا .. وكثيرا ما ضاق الصدر (بالبهدلة) فتخطينا يوما أو يومين في غير مبالاة ولا اهتمام .

السقف المتواطئ :

ولم يجد سقف البدروم مناسبة صالحة لينهار فيها غير فترة وجودنا تحته ، رغم أنه ظل صامدا ثلاثين عاما أو يزيد ... فقد سمعنا ذات صباح « طقطقة » أعقبتها هزة تلاها انقلاق العمود الرئيسي الذي يحمل السقف .. وهرع العمال إلى الخارج يتدافعون ويتصايحون ثم يتضاحكون لقد كانت مأساة ترتدي ثوب المساخر .. وعالج عبد القادر السقف فرفعه (وثبته) بركائز وعاد العمال إلى أماكنهم وعيونهم معلقة إلى السقف .. وظللنا نتحدى القدر وسوء الحظ يرابط حسن الطاهر زروق (كالمسيح على الصليب) من الصباح إلى المساء يكتب المقالات ويصحح البروفات و (يفبرك الأخبار) ويشتم العمال وصاحب الجريدة ، ومحرريها وبائعها وشاريها وحاملها والمحمولة إليه - وأبدأ أنا يومي في البحث عن قوت المطبعة ، وقوت الجريدة وقوت العيال ، ولا يفتح الله إلا بالقليل .. وكان الدكتور مشعال يتولى أمانة صندوق الحزب الخالي ...... ولكنه كان يديننا إذا أرضينا نزعته إلى الظهور فملأنا الصفحات بأعماله الجليلة .. وكان يغضب أحيانا إذا أهملناه أو لم يحتل اسمه مكان الصدارة فيثور ويثير الشريف ، ونصبح فإذا بمعظم أبواب الرزق قد أغلقت .. وأذهب إلى لجنة الأحزاب المؤتلفة لأُمثل الحزب الوطني وذهني مشغول بالمتاعب المالية الحادة المزعجة ... فلا أفهم مما يقال حرفا ...

ويتسرب إلى نفسي شيء من الحقد الاجتماعي وأنا أهبط من دار الصحف الاستقلالية بعد الاجتماع فأخوض وسط السيارات الفارهة التي يملكها زعماء الأحزاب .. ومظاهر الرفاهية والترف التي تبدو في ملابس أصحابها ووجوههم وعيونهم وأحاديثهم .. وأقف لعل

أحدهم (يحس) فيقوم يتوصيلي لأعود إلى عشي في الخرطوم بحري وتتجاوزني السيارات الواحدة تلو الأخرى ... وأنا أعاني مرارة الكبرياء المهيضة والإهمال الشنيع ... وتثقل على نفسي وطأة هذا الموقف الأليم فأظل مأخوذاً بخواطر محمومة ... ويمضي الوقت دون أن أشعر بمروره وأتحرك في بطء كمن يمشي على الشوك .. وأعبر الشوارع في غير ما هدف وأمضي ساعة أو بعض ساعة إلى أن تبرد هذه النار المتأججة في صدري .. ورأسي .. وأستسلم للقدر وأعيش في الواقع ... وأعالج موضوع العودة للدار .. وماتت الجريدة بعد مضي شهر واحد ... ولم نكن قد أصدرنا منها غير ثمانية عشر عددا ... وظللتني الحيرة وانتابني السأم وفقدت كل حافز لمحاولة جديدة .... لم يعد في طوقي أن أدور على الصحف أنتجع عملا ولم يعد في طوقي أن أذهب إلى الأحزاب أسألها العون للجريدة وأنا سكرتير حزب منافس لها ...

ولم يعد في طوقي أن أحتمل مذلة (التليفون) الذي لا يستجيب في مقر صاحبي ؟؟ وكم لهذا التليفون من أعاجيب ؟؟؟

كما لم يعد في طوقي أن ألتزم عقر داري لأملأ البطون الخاوية بالحصى والتراب .. لقد ولدت المتناقضات التي أعيش في دوامتها وضعاً كان من العسير احتماله ...... وكثيرا ما كنت أتخيل أن كل واحد في الدنيا يهزأ بمأساتي .... ويشير إليّ في استهانة وتحقير ....

حزب الشريف

ليس كالفشل محفز للقوى لو أدار المرء للماضي ظهره ، واتجه ببصره نحو المستقبل وصعّد بإرادته ولم يسفل بها ، وقد حاولت في نهاية عام ١٩٥١ بعد أعيتني أسباب الرزق في الصحافة ، وسئمت مرارة إعراض الجمهور عن صحفي ... أن أخوض ميدان السياسة ... فقد وفرت السياسة يوم ذاك للذين يتعاملون فيها حياة ناعمة راضية وقصة هذه المحاولة تدخل في صميم التاريخ لأنها ذات تأثير عام ولأنها لا تنحصر في شخصي الضعيف ولأنها مملوءة بالمتناقضات والطرائف مما يسلكها في عداد الروائع الروائية . وقد بدأت فكرة هذه المحاولة ذات صباح . فقد قابلت ساعتئذ الزميل الساخر علي حامد رئيس تحرير العلم آنذاك أمام مقهى الحلواني في المكان الذي تستقر عليه الآن (طربيزة) الأخ موسى لبيع الصحف .. وتبادلنا الحديث فقال (علي) بعد أن سألني عن (مصيري) : إن المرء منا نحن الصحفيين السودانيين أشبه بالعبد الرقيق في الأزمنة الماضية كلما كبر سنة وتقدم عمره ، قل سعره وتضاءلت الرغبة فيه . وأجبته بكلمات مرحة رغم أنني شعرت بأنه لم يقل هذا الكلام من ظاهر لسانه بل عبر به عن معنى دفين رسب في أعماق نفسه ... ولم يكد يغادرني حتى ردّدت في خاطري ما أشار إليه من معنى أليم ورغم أنني استقبلت كثيرا من الأصدقاء وضحكت ضحكاتي الضخام ملء شدقي وحنجرتي ، فإن ذلك المعنى لم يتبدد بل ظل يستقر ويرسخ كأنه خنجر مسموم غرس في بطءٍ ووحشية بين جوانحي وقضيت أياما في حيرة عمياء ثم طرأ بذهني فجأة أن أعمل بالسياسة .... ولكنني ترددت ... فهل عساني أنجح في حقل لا أملك شيئا من مقوماته ... في حين لاحقني الإخفاق في الحقل الذي كنت أظنني أملك فيه قدرا من التجربة بحكم المراس الطويل .. إني رجل غير خطيب .. وغير صاحب فلسفة ولست من حملة الرسالات أو الشهادات .. ولست شعبيا ولا أعترف لنفسي بمقام تفكيري ممتاز بل ولست بالمتحدث اللبق الذي يحسن التوصل لأغراضه أو أغراض سواه في

مجال خاص أو عام .. كما أني باعتراف الجميع غير ذي تبعية أو عصبية فأي سلاح تراني أحمله ؟

زيارة

ويشاء الحظ أو لعلها الغريزة أن أزور سيادة الشريف عبد الرحمن الهندي لأحصل منه على اشتراك عن كتابي (شخصيات من السودان) ودار حديث بيني وبين سيادته حول الأحزاب الصورية كحزبي (وحدة وادي النيل والأحرار) ... وكيف وجدت عناية من الصحف والناس وكيف كسب القائمون بأمرها لأنفسهم مراكز تمثيلية ذات وزن واعتبار .. وسألت الشريف : لم وأنت زعيم طائفة معروفة لا تفكر في إنشاء حزب يرفع من اسم بيتكم ويجعلكم تساهمون في العمل لتحرير السودان ؟

فأجاب بأنه سبق أن فكر في مثل هذا الموضوع وهو لا يمانع إن كان هذا مستطاعا .. فقلت : ولم لا ، فالأحزاب تعتمد على المؤيدين وأنتم لا تبحثون عنهم وطائفتكم قائمة ... وانخرطنا في حديث (دقاق) سرعان ما تفاهمنا فيه على قيام الحزب والأسلوب الذي ننتهجه وفي هذه اللحظة بدأ ميلاد الحزب الجديد الذي أسميناه فيما بعد الحزب الوطني . وتوليت أنا سكرتاريته ... وكان مخرجا من ورطتي ، ومسرحا لنشاط جديد وبابا نفذت منه إلى السياسة ، دون أن أحتاج للبحث عن المواهب المفقودة ـ فرؤساء وسكرتيرو الأحزاب ليسوا بحاجة لتلك المواهب عادة إذ يكفي أن توجد في التابعين وتابعي التابعين .

إلى مصر

ومرت أشهر وأصدر سيادة الشريف بيانا وعقد اجتماعاً ضخماً في الحوش وكان حزب الأمة والجمهوريون الاشتراكيون ـ والاتحاديون قد لبوا دعوة مصر عقب الثورة في عام ١٩٥٢ وناقشوا مستقبل السودان ووقعوا اتفاقيات في هذا الصدد . فأرسل الحزب الوطني برقيات حملت اسم أتباع الشريف من النظار والعمد والمشايخ والأعيان في مختلف أنحاء البلاد تطلب بأن يكون للحزب مكانه إلى جانب الأحزاب الأخرى في اتفاقيات مصر .. واسم الشريف الهندي واسم طائفته لهما رنين الذهب الأصيل في الخارج عامة وفي مصر خاصة ،

وكان لتلك البرقيات أثرها ، فدعينا لزيارة مصر . ولم يكن للإنجليز يد في هذه الحركـة إذا كانوا يرغبون أن ينضم الشريف للحزب الجمهوري الاشتراكي ، وأعددنا وفـدا للسفر إلى مصر وكنت أنـا من أبرز أعضـائـه .. وضممت إليـه في اللحظـات الأخيرة الـدكتور عبـد القـادر مشعال وهو ابن عمتي وكان الوداع ضخما فقد حضره من أتبـاع الشريف في الجزيرة الآلاف وأثقل رأسي بالأحلام وأثقلت جيبي مكارم الشريف ومضينا إلى القاهرة . تختال بنا طـائرة ضخمة من طائرات شركة مصر للطيران ، ونحن فيها أشبه بآلهة الصيد عند قدمـاء المصريين عيون متطلعة وقوس مشدودة ورجاء في رحمة الله ....

الحادث الذي هز أعصابي

وصلنا إلى القاهرة في نوفمبر ١٩٥٠ واستقبلنا في المطار الأستاذ الدرديري أحمد إسماعيل ولفيف من السودانيين وآخرون ونزلنا في فندق (هليوبلس) بمصر الجـديـدة وهو من أفخر فنادق مصر ، وأكثرها امتلاء بالسياح .

ولم نكد نستقر في الفنـدق حتى أقبل الـدرديري ودعـاني إلى نـاحيـة ، حيث انفردنـا ساعة من زمان ، وتحدث معي عن مطالب الحزب وقوته وتأثيره في الانتخـابـات والـدوائر التي يحتمـل أن يكسبهـا ومـدى إمكانيـة تعـاونـه .. وقـال لي بعـد أن انفرج وجهـه الصغير المتجهم عن ابتسامة كالحة ، وأرسلت عيناه الغائرتان الدقيقتان ومضـات سريعـة ثم انسـدل جفناه كالطائر المتعب ـ سترتاح سنعمل لك مرتب .. لكي أمشي كويس .

وكان يقف إثر كل مقطع ليختبر وقع كلماته .. وكأنه كان يحس بسحر مركزه وفتنـة مقامه فيزداد عن نفسه رضا ويترجم هذا الوصف إلى تحركات صغيرة فتحسبه يهتز . وقضينا في مصر عشرة أيام وقبيل انتهاء الرحلة وقع لي حادث لم أزل أشعر بوطأتـه على نفسي حتى هذه اللحظة وبخاصة وقد جاء من ابن صديق كريم كم أثقل عنقي بفضلـه ، وكم كان مثـالا لروح الخير والأريحيه ؟ لقد كنت في القاهرة قبل أشهر مضت من هذه الزيـارة وأرسل لي الشريف الهندي حوالة تلغرافية بمبلغ خمسة وعشرون جنيهـا لأعود بهـا إلى الخرطوم ، وهي عبارة عن قيمة تذكرة الطائرة ـ إذ كانت شركة مصر للطيران آنـذاك تخفض للصحفيين ربع القيمة ـ وبعض المصاريف الشخصية .

ولم أستطع صرف هذه الحوالة لأن أحد حروف اسمي جاء مغلوطاً ، فاستدنت المبلغ من السيد محمد محمود أبو العلا ، وكان يتولى الوكالة عن شركة أبو العلا في القاهرة .

واسترد سيادة الشريف الحوالة في الخرطوم ولم تتح لي الفرصة لرد المبلغ إلى الشركة ، ولم أكد أصل إلى القاهرة في هذه الرحلة حتى تلقيت مكالمة تليفونية من السيد محمد محمود أبو العلا يطالب بالدين ، فأفضيت إليه بجلية حالي وقلت له إنني لا أملك شيئا الآن فنظره إلى ميسرة .. ولم يصدق أقوالي وتفوه بعبارات عن تمويل مزعوم .

وبعد ساعة من هذه المحادثة اقتحم الفندق شخص وأخذ يطالبني بالدين في صوت عال وبألفاظ جارحة . ولم يزل يواصل صياحه حتى اضطر البوليس للتدخل وإخراجه .

ولم يكن المقصود بطبيعة الحال هو استيفاء الدين ـ فقد علم السيد محمد محمود أبو العلا بأنني لا أملكه ـ ولكن كان المقصود هو التشهير والتهزيء وقد أفلح فيهما ... لقد انتقل الضجيج والإساءات إلى كل شخص في الفندق الكبير ... ورددته ردهاته وكان ثمة مطارق تقرع رأسي في قوة وجحيم يسري في أعصابي ورغم أن السيد محمد محمود أبو العلا استوفى دينه مضاعفا من كرامتي .. إلا أنني أيضا دفعت هذا الدين كله على أقساط إلى شركة أبو العلا بالخرطوم عندما عدت .

والسيد قرشي أبو العلا يشهد على ذلك ...

في مسرح المهدي

عاد حزب الوفد الوطني برئاسة الشريف عبد الرحمن الهندي في السابع من ديسمبر عام ١٩٥٢ إلى الخرطوم من القاهرة وكان الاستقبال حافلاً كما كان الوداع وعدت كما ذهبت خالي الوفاض بادي الانفاض وشغلت بمشكلتي الأبدية ، وهي كيف أعيش وأعيش هذه النخبة المحترمة من فلذات الأكباد .. كيف أعيش هذه الدائرة الضيقة التي قسرت حياتي جميعها ـ لا أستثني عهداً من العهود ـ على الدوران حولها فلا أرفرف بأجنحتي في الآفاق البعيدة ولا أنطلق بذهني وراء المعاني الكبيرة ... وكثيراً ما شبهني أصدقائي بحمار الطاحون يدور ويدور ولا يكف عن الدوران ـ وكل هدفي أن أملأ معدتي ومعدة من أعول .. ولو حاولت أن أتحرك ما استطعت فإن الثقل الذي يربطني بهذا المصير كان أقوى من كل محاولاتي ـ حياة قاحلة عاطلة تفقد المرء كل الحوافز العظيمة ، وتدفع به إلى منحدر يجرده حتى من مسؤوليته ككائن بشري راق ، له ذوق وشعور ورسالة .. وقدم إلى مكتبي بعمارة قطان في اليوم التالي من وصولي حفنة من الأصدقاء ـ أذكر منهم الزملاء صالح عرابي ورحمي محمد سليان ومنصور خالد ومحمد إبراهيم طاهر ـ وكادوا يكللوني بأكاليل الغار .. فقد كان النجاح كما توهموا ساحقاً والرحلة موفقة ... وجاملت حتى ظمئت نفسي إلى الحقيقة وأوشكت أن أجهر بكل ما يكمن في أطوائي لولا شيء من الحياء والكبرياء حماني من الإنفجار .. وشكا لي بعضهم همومه ومتاعبه .. وتمتعت بلحظات لست فيها مسرح المهدي (بغير مال ولا أفضال) ما أجمل أن تحسّ ولو في الخيال أن لك اليد العليا وإنك غير مقيد بالحاجة ـ لعنها الله ـ إلى سواك .. وتقدمت بوعود ماكرة ـ هازاً كتفي شامخاً بأنفي متصنعاً التواضع في ألفاظ لا تترجمها أفعال .. غير أن الحقيقة الرهيبة ما لبثت أن انفضحت وأصبحت كما كنت مادة من طين .. وبردت لهفة الأصدقاء بعت مروحة المكتب بست جنيهات للسيد زين العابدين صالح وكان ثمنها تسعة جنيهات بحجة أن الدنيا برد وليست ثمة ضرورة لها .. ولم يكن زين العابدين في حاجة إليها لولا أنه أراد حفظ كرامة

صديق .. وظللت أداور صاحب العمارة والبيت في الإيجار .. وأختفي كلما رأيت بدلة خاكية ، فشبح المحضر عادة يبعث في نفسي الجزع والاضطراب .. ومضيت من جديد أجمع اشتراكات كتابي (شخصيات من السودان) هذا الكتاب الذي قاتني عامين ، وأطالب من جديد بترخيص (صحيفة) الملجأ الذي لا ملجأ غيره وكان أحمد يوسف هاشم ، ممثل اتحاد الصحافة في لجنة الترخيص بالصحف يقف حجر عثرة في طريقي غير متناسٍ أحقاده متذرعاً باشفاقه عليّ وما كان يوماً عليّ بذي إشفاق .. وفي هذه الفترة كنا نجد لحظات نضحك فيها ملء قلوبنا بسبب بعض المتناقضات ..

يفد اليّ رحمي ليستدين جنيهاً فيقد خمسة وسبعون قرشاً كانت هي كل حيلته .. وتنساب « القطيعة » من بين شفتي في غير حرص تزجية لوقت الفراغ في الحلواني ـ ويسمع بها صالح عرابي فيهرع إلي مغتاظاً ليحاسبني لأنها كانت عنه ، فإذا ما التقينا وتواجهنا ذاب غيظه ، كما يذوب الثلج إذا سلطت عليه حرارة عالية ، واضحك ويضحك وننصرف كلانا إلى « القطيعة » في الآخرين .

بيني وبين الشريف الحسين الهندي

في عام ١٩٥٣ .. قبيل انتخابات الحكم الذاتي وكنت أتولى سكرتارية الحزب الوطني (الهندي) ـ قابلت صدفة الشريف حسين الهندي في مخبز السيد محمد الجندي .. وجلسنا نتحدث فقال لي الشريف : إن اصرار أخيه الشريف عبد الرحمن على إبرام الأمور دون أن يستشير إخوانه الأشراف دفع بثلاثة منهم إلى أحضان حزب الأمة .

ولم أعر الأمر كبير أهمية لولا أن أكد لي الشريف عمر بعد ذلك أنه هو والشريف الحسين قد تفاهما فعلاً مع ذلك الحزب وأن الشريف الحسين سيصبح احتياطي قسم السيد وسافرت إلى جزيرة الفيل لحضور اجتماع من مريدي الشريف للإتفاق على مرشح يمثل الحزب الوطني (الهندي) في دائرة الحوش .. وفي هذه الدائرة يتركز عدد كبير من أنصار الطائفة الهندية .. وكنا نعتقد انها في اليد ، وأن الفوز بها مضمون مائة في المائة ..

وحضر الاجتماع الشريفان حسين وعمر ، وكانا يصران وتناصرهما جماعة من قبائل الأشراف والأحامدة واللحوبين على أن يكون الشريف حسين هو المرشح بينما كان الشريف عبد الرحمن شيخ السجادة وممثلوا قبيلة الكواهلة « بوصفها الأكثر عدداً تصر على أن يكون المرشح أحد الكواهلة » .

وكان رأيي من رأي الشريف عبد الرحمن وقبيلة الكواهلة ، لا عتبارات منها أن الشريف حسين لم ينضم للحزب الوطني (الهندي) إلا في جريدة الرأي العام ـ وأنه في حقيقة الأمر متعاون مع حزب آخر .

وبعد جدل طال في ذلك اليوم أقرت أغلبية الحضور أن يكون المرشح هو الشيخ عثمان جاد الله الكاهلي .

وفيما كنت جالساً في أحد الغرف أقبل الشريفان الحسين والهندي وكانا يتحدثان عن موضوع الترشيح .

فابديت في صرامة الرجل الذي يعبر عن مشيئة حزب ، رأيي في ضرورة الانصياع للقرار وترددت على لساني كلمة (الخيانة) .

وهنا انفجر الشريف حسين انفجاراً عنيفاً .. فوصفني باللصوصية والخسة والدناءة وسوء الأدب والتطفل ..

وهم بالاعتداء عليّ ، لولا أن حال بينه وبين بغيته الشريف الهندي وبعض الحاضرين . وكان الشريف عبد الرحمن غائباً ..

وتألمت كثيراً ، فقد لاحظت أن الجميع لم يظهروا العطف عليّ ، أو الرثاء لما حل بي ... ولعلهم رأوا تلك الشتائم الكبار على مقياسي .

وخرجت إلى قاعة الاستقبال وأنا في حالة تجمع بين القلق والسخط والشعور بالوحدة .

وانتظرت الشريف عبد الرحمن على أحر من الجمر

ولم تكد تقف سيارته أما باب الدار ، حتى أسرعت ونفضت إليه جلية الحادث ، وكنت أتوقع أن يغضب .. وأن يحمل على الشريف الحسين .. ولعلي فكرت في أنه ربما أمر بطرده .

ولكنني فوجئت بأنه استقبل كلامي بأذن غير مصغية .. وبشعور غير حار .. ومالبث أن انصرف عني ليتحدث إلى المريدين .. ولم تمض ساعة من زمان حتى اجتمع في مصطبة أمام غرفته الخاصة بالشريف الحسين وبعض أخوته .. فإذا حديث مرح طيب يتعالى .. وضحكات رنانة تتبادل ...

لم يذكر الشريف عبد الرحمن أن لي حرمة بوصفي سكرتير حزبه وضيفه وصديقه .. وإنني لم أهن إلا لأنني كنت أحمل رأيه ، وأذود عنه ...

وفي تلك الليلة تلقينا من الشريف الحسين رسالة يعلن فيها قرار بترشيح نفسه في الدائرة ضد مرشح أخيه الشريف عبد الرحمن ومرشح حزبه .

وفي صباح اليوم التالي وافق الشريف عبد الرحمن على توزيع منشور بامضائه

يتضمن تأييده الكامل لترشيح الشيخ عثمان جاد الله ومعارضته لترشيح الشريف حسين .

ومضى وقت قصير وإذا بمنشور آخر يحمل إمضاء الشريف عبد الرحمن نفسه أيضاً يؤيد ترشيح الحسين وجرت الانتخابات وسقط الشيخ عثمان جاد الله والشريف الحسين ... وكل مرشح آخر للحزب وعدنا نحصي أخطاءنا ونبكي ما ضاع من الفرص .. ثم نصلح من وضع خدودنا لتلقي المزيد من الصفعات ...

عمالقة وأقزام

كان النضال داخل الأحزاب المؤتلفة في أوائل عام ١٩٥٣ على أشده على الرغم مما كانت تنتشره الصحف عن التآلف والتفاهم بينها .. وقد كان حزب الأمة والحزب الجمهوري الاشتراكي في جانب والحزب الوطني الاتحادي في جانب ... أما الحزب الوطني (حزب الشريف) الذي كنا نمثله فقد كان أدنى إلى الفريق الأول .. وكنا أشبه (بكمالة) العدد لا نوضع موضع الاعتبار إلا عند التصويت .. لقد ارتضت الأحزاب الثلاثة الرئيسية أن ينضم حزبنا إلى اللجنة لتوقيعنا على اتفاقية مع الحكومة المصرية وهو اعتراف رسمي بنا كقوة داخلية .. وكان من الممكن لو أهملنا أن نستغل في الطعن على تمثيل الأحزاب الثلاثة .. لجميع السودان .

كنا نجلس أنا والدكتور عبد القادر مشعال في اللجنة ، فينصرف الكل عنا بحديثه ، وإذا عبرنا عن وجهة نظر لم يصغ إلينا أحد ، بل ربما أشاحوا بوجوههم عنا .. لقد كانوا يقبلوننا على مضض ، وقد كان ضعف حزبنا وتخاذله وبعده عن أن يقوم بحركة ـ ولو تهريجية ـ لاثبات وجوده ـ وبهوت شخصيتنا إزاء قوة شخصيات أقطاب الأحزاب الثلاثة .. بل وضآلة مستوانا العقلي بالنسبة للكثرة من أولئك الأقطاب .. وقلة ما نحمل من زاد في ميدان المناورات والجدل السياسيين وأخيراً قلة ما نملك من مال ومنصب أو بالأصح عدمه ، كل ذلك جعلنا أشبه بقزمين في أرض العمالقة .. وكان رجال الأحزاب الثلاثة الرئيسية رغم اختلافهم الشديد في الرأي ، وكيدهم لبعضهم البعض في السر والعلن يرون في أنفسهم أنداداً أو يكادون بينما يرون المسافة بيننا وبينهم شاسعة .. لقد كنا دونهم حتماً .. وكنا نحن بهذه (الدونية) .. ويزيد (التعقيد) من هذا الاحساس فيتضاعف ويكبر الوهم في نفسي أحياناً أثر لفظة أو لفتة من أحدهم (لعلها غير مقصودتين) فأشعر بضغط وتصلب في أعصابي .. وأهم بمغادرة المائدة ضنا بنفسي عن هذا الهوان الطويل المدى .. ولكن باعثاً آخر أقوى من الأول ـ لعله الرغبة في التشبث باذيال صانعي التاريخ

كما دار في وهمنا يوم ذاك ومحاولة الدخول معهم من الباب الكبير ـ يمنعني فتلتصق قدماي بالأرض .. ويثقل جسدي على المقعد ، ولا أتحرك حتى يتحركوا منصرفين .. وأعاود الاجتماع مرة أخرى وفي نفسي من الكراهية ما لا أكاد أحتمله لقد كانت تحيط بنا في لجنة الأحزاب المؤتلفة يوم ذاك خلاصة العقل السوداني وكنا ندفع فنندفع في موكب لا نملك فيه غير كلمة (نعم) فنقولها برضانا أو بكرهنا وحسبنا أن نعد من أفراد الموكب حسبة لا حساباً كما لا كيفاً . وليس هذا في نصيبنا المتواضع المغرور بقليل .

تقاليد المهنة والمرض ... والعرض

عندما اشتركت في المحادثات التي جرت في الخرطوم عام ١٩٥٣ لتسوية الخلافات بين الأحزاب السودانية توطئة لتوقيع ميثاق يعتمد عليه الجانبان الانجليزي والمصري لإبرام اتفاقية الحكم الذاتي وتقرير المصير ... كنت أمثل الحزب الوطني الذي يرأسه المرحوم الشريف عبد الرحمن الهندي ـ وكان وضعي عسيراً بعض العمر ... فقد كنت في ذلك الحين (خالي شغل) بالمعنى الحقيقي لهذه الكلمة إذ أن الصحيفة التي أتولى تحريرها كانت متوقفة ، وكانت أعبائي العائلية كبيرة ، ولم أكن أعتمد في حياتي إلا على اشتراكات كتاب (شخصيات من السودان) وهي غير كافية ، وكنت أذهب للاجتماعات في ثكنات الجيش المصري كسير النفس غير مرتب الذهن يثقل تفكيري إحساس بالمشاكل العائلية التي خلفتها وراء دون حل وبعضها ربما كان يتصل بأشد الضروريات إلحاحاً ... وكان المجتمعون هم السادة الصديق المهدي وعبد الله خليل وعبد الرحمن علي طه رحمهم الله عن حزب الأمة والمرحوم إبراهيم بدري عن الحزب الجمهوري الاشتراكي المرحوم إسماعيل الأزهري والدرديري محمد عثمان أطال الله عمره ـ والمرحوم محمد نور الدين عن الحزب الوطني الاتحادي وأخيراً كاتب هذه السطور بالإضافة إلى المرحوم الصاغ صلاح سالم ممثل الحكومة المصرية .

وفي الاجتماع الأخير الذي تم فيه التوقيع تغيب المرحوم السيد إبراهيم بدري وحضر بدله السيدان زين العابدين صالح والدرديري نقد كما حضر السيد خضر حمد من ضمن أعضاء الحزب الوطني الاتحادي ... والتقطت صور سجل فيها هذا الاجتماع وكان جميع المجتمعين كما كنت أتصور قد كفوا الحاجة وارتفعت عنهم مسؤوليات العيش بسبب وضعهم المالي المستقر فهم والحالة هذه خليقون أن يفكروا فيحسنوا التفكير ويناقشوا فيحسنوا النقاش وخليقون أن يقضوا يومهم كله في محادثات طويلة دون أن تقلقهم ضرورة السعي في سبيل الرزق وأنّى لي ذلك ... ؟ وبقية اليوم لا كفاية له في الدار ... وصباح الغد لا كفاية له ... دع الظهر ... والليل بعدهما .

والتجزئة هنا فيها إيضاح الحقيقة المرة (لا عن قصور في التعبير) فإني كنت أعيش حياتي حينذاك بالقطاعي (لا بالجملة) ... وفي هذه الإشارة ما يغني وكان همّي في الاجتماعات التي لم يكن (زملائي) ينظرون إليّ فيها نظرة المكترث ..... أن أفرغ بأسرع وقت ممكن وأن أمضي إلى حيث أبحث عن قوت العيال ؟

وكانت السيارات الفارهة تنزلق أمامي فينمو في نفسي شعور وقتي من الحقد الاجتماعي لم أستطع كبحه ... رغم أني من هذه الناحية عادة في صحة نفسية مكتملة .

وتم الاتفاق بين الأحزاب الذي كان جهدي فيه مختصراً على التأمين على أقوال الآخرين ، والتوقيع والسير في هذا الركب الكبير الذي يشمل الزعامة السودانية من كل أطرافها ... وأعقب هذا التوقيع احتفال خطب فيه الزعماء وأذيعت خطبهم من راديو أم درمان .. وكان المتكلمون بترتيب الحروف الأبجدية السادة إسماعيل الأزهري عن الوطني الاتحادي الصديق المهدي عن حزب الأمة وأحمد جمعة المحامي عن الحزب الجمهوري الاشتراكي ويحي عبد القادر عن الحزب الوطني ... وقد كان يمكن أن أعزى وترتفع روحي المعنوية وأشغل عن واقعي لحظات تقصر أو تطول لو أن الصحف السودانية كانت صادقة أمينة .. لقد كانت تتحدث عن الاجتماعات فتقول الأحزاب الثلاثة .. ولا تذكر الرابع ولم تضطر إلى هذا (الذكر) إلا عند نشر وثيقة الأحزاب وإن كان بعضها حرّف اسم الحزب الوطني إلى اسم حزب الوطن .. ولم يكن ثمة بد من هذا (الذكر) لأن الوثيقة بدأت بالإشارة إلى الأحزاب الأربعة وأكدتها في صلب الكلام ثم ختمتها بتوقيعات ممثلي هذه الأحزاب (الأربعة) .. وكذلك اضطرت إلى هذا (الذكر) عند وصف الاحتفال الكبير الذي تكلم فيه ممثلو تلك الأحزاب وأذيع من الراديو ...

قد أفهم أن تعترض الصحف على تمثيل حزب صغير أو تهون من شأنه .. ولكن الذي لا أفهمه أن يجتمع أربعة أحزاب فتصر الرأي العام وتصر السودان استلر (وكان رئيس قسم الأخبار فيها بشير محمد سعيد) وتصر الصوت الخ ... على أن الاجتماع كان يضم ثلاثة أحزاب ويتكرر هذا الإصرار إلى أن يصادف حاجزاً لا يستطيع تخطيه فيتم الاعتراف في صفاقة (يحسد عليها) بهذه الحقيقة .

ولا يدخل هذا في باب الشرف الصحفي بحال ولا تقره تقاليد المهنة ولا الأخلاق العامة ولا العرف ... ولكن ماذا تفعل مع فئات يقودها المرض والغرض ؟ ؟

حقائق تاريخية

دعا الصاغ صلاح سالم الأحزاب السودانية الأربعة (الحزب الوطني الاتحادي - حزب الأمة - الحزب الجمهوري الاشتراكي - الحزب الوطني) في صبيحة يوم الثلاثاء ٦ يناير ١٩٥٣ لكي يتم الاتفاق على تذليل العقبات التي وضعها الانجليز في طريق المفاوضات المصرية البريطانية لحل مشكلة السودان وقد حضرت تلك الاجتماعات ممثلاً للحزب الوطني .. (حزب الشريف) .

وكان الانجليز يرون وضع صياغة تجعل للحاكم العام سلطة خاصة بجنوب السودان ، كما كانوا يعارضون في الجلاء ذي الأجل القصير بحجة الانهيار الداخلي .

وأذكر بوضوح كلمة قالها الصاغ صلاح سالم في الاجتماع فقد تحدث عن الظروف الدقيقة التي تجتازها مصر والسودان والفرصة الدولية التي لو لم ينتهزها القطران لحل قضيتهم أفلتت ، والمسؤولية التاريخية التي تقع على عاتق الجميع أمام هذا الجيل والأجيال المقبلة وتحدث السيد الدرديري محمد عثمان فقال عبارته المشهورة : هل قدر لنا ونحن قادة البلاد وأصغرنا تجاوز الأربعين أن يعلمنا الوطنية شاب في الثالثة والثلاثين قادم من مصر ؟ ؟

وفي يوم الخميس ٨ يناير خرج المجتمعون دون اتفاق لأن الحزب الجمهوري الاشتراكي وكان يمثله المرحوم السيد إبراهيم بدري كان مصراً على التحفظات وخاصة فيا يتصل بضرورة تأخير الجلاء خوفاً من استعلاء جحافل أنصار حزب الأمة على البلاد عند مغادرة قوات دولتي الحكم الثنائي للبلاد .

وأجل الاجتماع من يوم الخميس ٨ يناير ١٩٥٣ إلى يوم السبت وقد بذل الصاغ صلاح سالم والدرديري محمد عثمان جهوداً متنوعة مع أعضاء الحزب الجمهوري الاشتراكي وجاء يوم

السبت ولم يجئ إبراهيم بل استبدل بالدرديري نقد وزين العابدين صالح حيث وقعا على وثيقة الأحزاب المؤتلفة في سهولة ويسر ...

أما السر الذي ملك به الصاغ صلاح سالم والدرديري محمد عثمان قلوب الجمهوريين فغيروا سياستهم وغيروا مندوبهم ، وأحدثوا هذا الانقلاب الكبير فأمر يدخل في ذمة التاريخ وقد يكشف عنه النقاب ذات يوم .. وبأيدي الجمهوريين الأحياء المطلعين من يستطيع أن يتكلم إذا أراد ؟ .

بيني وبين الصاغ صلاح سالم

الصاغ صلاح سالم شخصية غير عادية ... كان يؤمن بنفسه ويؤمن بقدرته على العمل لمصلحة وادي النيل في الإطار الذي يعتقد أن هذه المصلحة تتحقق عن طريقه .

كان جريئا ... مقداما ، قويا ، سريعا ، حاسما ، واثقا بأنه يملك المفتاح السحري الذي يطوّع له الإرادات ولقد لعب الصاغ أدوارا خطيرة في حياة السودان وكانت له صلة بي على نحو ما ، وقد رأيت أن أسجل عنه بعض اللقطات في غير ترتيب أو تسلسل أبدأها بما يلي :

مياه النيل :

ذات مساء في عام ١٩٥٣ قدمت إلى دار مفتش عام الري المصري بالخرطوم لكي أزور الصاغ صلاح سالم بمناسبة وصوله ... فوجدت الصاغ يجلس في القاعة الرئيسية ومعه المرحوم الأستاذ أحمد يوسف هاشم وعن كثب منهما السيدان المرحومان محمد يوسف هاشم ومحمد نور الدين وكان الأولان منهمكين في كتابة رد على مقال كان قد نشره في جريدة النيل ، السيد عبد الرحمن عابدون عن مياه النيل يتهم فيه مصر بالإجحاف .. وتوقف الرجلان عن الكتابة عندما رأياني ... وأزاح الصاغ الأوراق وعدد جريدة النيل حانيا وصافحني في غير حرارة وفي غير ترحيب .

وجلس الصاغ جلسة تحفز ، وأحد قدميه تهتز ولم أكن سريع البديهة كعادتي فلم أفطن إلى جو الوجوم الذي ساد القاعة .

وظللت جالسا ... وظل الوجوم سائدا وأخيرا فطنت .. وحاولت أن أستأذن في الانصراف ولكن الخجل ؟ ربطني إلى المقعد لا أكاد أجد إلى الحراك سبيلا ... وأخيرا تحرك السيد محمد نور الدين ودعاني لكي أصحبه إلى غرفة مجاورة ...

واستجبت لندائه وكأنما فككت من عقال .. إذ سرعان ما وجدت صوتي وإرادتي فانطلق لساني بالاستئذان وبدلا من أن أتبع السيد نور الدين إلى الغرفة الجانبية انطلقت خارجا وكأنما كانت سهام العيون وهي تشيعني تجرح ظهري ..

جهل

وفي ذلك العام طرت إلى القاهرة وزرت في مساء يوم وصولي جريدة الأهرام .. ولما كنت زميلا قديما للأستاذ نجيب كنعان سكرتير تحرير الجريدة ، فقد جاملني بنشر خبر وصولي في مكان بارز بوصفي سكرتيرا للحزب الوطني ، وذكر أنني نازل بفندق قصر الجزيرة وتلقيت في الساعة الثامنة صباحا ـ عقب صدور الجريدة ـ مكالمة تلفونية من السيد لبيب الشاهد تشريفاتي القصر الجمهوري يدعوني لمقابلة اللواء محمد نجيب رئيس الجمهورية في الساعة العاشرة من نفس الصباح .. وكان لدى لبيب ـ كما علمت فيما بعد ـ أمر مستديم باستدعاء أي سوداني بارز يزور القاهرة لمقابلة الرئيس دون الرجوع إليه .

لقد كان اللواء يريد في فترة الخلاف بينه وبين زملائه أن يلتف السودانيون من حوله .. ولم أكد أتلقى المكالمة حتى أسرعت فارتديت ملابسي وهرعت إلى القصر الجمهوري وعندما اقتربت منه ، وجدت الوقت مبكرا فعرجت على وزارة الإرشاد ومكاتبها قائمة في الجناح الشمالي من القصر الجمهوري وكانت شرفة مكتب الصاغ صلاح سالم مشرفة على مدخل القصر ..

ولعل الصاغ قد رآني وأنا مقبل فقد فوجئت عند خروجي من المصعد بأحد السعاة يدعوني لمقابلة اليوزباشي أبو نار مدير مكتب الوزير ، فلما ذهبت إليه ، قال لي : (إن الوزير يطلبك) وما هي إلا دقائق قليلة حتى أدخلت عليه ، رغم كثرة الزوار المنتظرين ..

وقد استقبلني الصاغ بظهره إذ كان واقفا منتصب القامة ينظر من النافذة ويداه معقودتان وراءه .. ولم يلتفت إليّ إلا بعد فترة طالت وأثرت على أعصابي حتى حسبتها دهرا .. واستدار أخيرا ليرحب بي في عبارات تلغرافية سريعة ..

وقال وكأنه يريد أن يفتح باب الحديث : قرأت مقالاتك في الأهرام .. لا بأس بها (كنت أنشرها بعنوان سودانيات) .. وفي هذه اللحظة دق جرس التليفون وكان المتكلم من الطرف الثاني السيد الدرديري نقد من الخرطوم وبعد أن سأله الصاغ صلاح سالم عن حالة الحزب الجمهوري الاشتراكي وعما إذا كان الاجتماع قد تمّ ، ثم عبر عن عدم رضائه عن الموقف .

ثم طلب أن يتحدث إلى السيد زين العابدين صالح الذي كان على ما يبدو يجلس إلى جانب السيد الدرديري ..

وتبادل الصاغ مع السيد زين العابدين حديثا مختصرا عن بعض أعمال الحزب ، ثم انتقل الحديث إلى مبلغ من المال تأخر سداده يطلبه السيد زين من الجيش المصري ، قيمة أبقار كان قد صدرها ... وانتهت المكالمة ليتصل الصاغ صلاح سالم بإدارة الجيش ويأمر المتكلم في عبارات نارية أن يعجل بدفع المبلغ المطلوب في الحال وتحول صلاح إليّ فسألني في رقة عن الحالة في السودان ، وعن الحزب الوطني الاتحادي ، وعن موقف السيد إبراهيم بدري من الحزب الجمهوري الاشتراكي ، وعن الشريف الهندي ، وفلتت مني كلمات فضحك وضحكت ، ولما رأيت الجو صالحا قلت : لصلاح علمت أن جريدة الجمهورية سوف تصدر عن مطابع المصري ، وهي تحتاج إلى مراسل في السودان وطلبت إليه أن يتوسط لكي يعينني في هذا المنصب .. فوافق وكتب رقعة ناولني لها ... وقال اذهب للسيد أنور السادات يعينك في المنصب .

وصرفني فانصرفت .. وساءلت نفسي وأنا خارج من الوزارة عن السبب الأساسي الذي جعل الصاغ صلاح يدعوني لمقابلته متخطيا بي كل هذا الزحام من المنتظرين وبمثل هذا الأسلوب الفذ النادر .

وأخيرا اهتديت إلى رأي وهو أن الصاغ في اللحظة التي شاهدني فيها ربما كانت أعصابه قد ضاقت بمن يجتمعون حول مكتبه من ذوي الحاجات .. فتوسم أن يجد في لقائي مخرجا من هذا الجو القاتم .

انقلاب

ومضيت إلى موعدي مع اللواء نجيب ، قال لي لبيب الشاهد أن المقابلة لن تزيد على عشرة دقائق لأنها غير موضوعة في الأجندة وهي مقدار الفترة بين موعدين .

وقابلت اللواء نجيب وتبسط معي في الحديث فأفضيت إليه بنبأ زيارتي للصاغ صلاح سالم وأريته الرقعة التي أعطاني لها وسألته أن يعمل على تعزيز توصية الصاغ صلاح سالم لدى أنور السادات .. ومضيت إلى مكاتب جريدة الجمهورية في قلب القاهرة .. حيث طلبت مقابلة البكباشي أنور السادات وسلمتني سكرتيرة إلى أخرى ثم إلى ثالثة وأخيرا قابلت الرجل وهو أسمر اللون ، رياضي التكوين ، عذب الحديث ، كثير المجاملة ، مشرق الصفحة ، أنيق ، ظريف ، لبق ، يمثل الرجولة ، والوسامة ، والأدب الرفيع .

وقدمت إليه الرقعة ، فرحب بي مراسلا للجمهورية في السودان .. وطلب إلي أن أبدأ العمل بكتابة مقال لمجلة التحرير التي كانت تقع تحت إشرافه أيضا .. وخرجت وأنا راض عن نفسي ، فقد أغلقت كل باب ينفذ منه الفشل .. وعدت في اليوم التالي ومعي مقالات عديدة لمجلة التحرير ، وسألت عن أمر تعييني ، فقيل لي تعال بعد أيام ... ومضى أسبوع كامل دون أن أظفر بما أطلبه ، وحاولت في هذه الأثناء مقابلة الصاغ صلاح سالم أو أنور فلم أتمكن ... وعلمت أن مقالاتي في الأهرام قد أوقفت ..

وقابلت الأستاذ صلاح هلال المحرر بجريدة الأخبار وأفضيت إليه بجلية حالي فأجرى اتصالات علم بعدها أن كل شيء بخصوصي قد ألغي ، ذلك أن اللواء محمد نجيب كان قد تكلم بشأني ، ويكفي تدخل اللواء نجيب لكي يكون نصيب طلبي الرفض ، وأن أحرم من الكتابة في الأهرام ، وأن أوضع في القائمة السوداء .. ولقد كنت بعيدا عن مصر وعن الشؤون الداخلية فيها ، وكان الخلاف بين نجيب من ناحية وزملائه من ناحية أخرى قد وصل إلى حد ، أصبح فيه أصدقاء طرف ، يعتبرون بغير مقدمات ، خصوما للطرف الآخر .

وهكذا أفسد عليّ جهلي ، كل شيء .

وكانت محاولتي سد كل الأبواب التي ينفذ منها الفشل قد أدت على النقيض ، إلى فتح كل الأبواب على سعتها لكي يدخل منها في موكب فخم عريض .

و (المقالات) التي كنت أنشرها في (الأهرام) هي شيء آخر غير (المراسلة) التي انقطعت منذ عام ١٩٥٢ .

وكان نجيب كنعان سكرتير التحرير (وهو آخر الرعيل التقليدي الذي خلفه الجميل وجبرائيل تقلا) قد اتفق عليها معي كمظهر من مظاهر التعاطف معي ، بعد أن فصلت فصلا تعسفيا يناقض تقاليد الجريدة .

الصاغ صلاح سالم وحكومة الحكم الذاتي

سقط الحزب الوطني (حزب الشريف) في انتخابات الحكم الذاتي ١٩٥٣ سقوطا فاحشا وعاد الشريف الحسين الهندي يجرر أذيال الفشل بعد أن أضاع كل شيء إلا الشرف .... ورأى الشريف أن يستفيد من جريدة أنباء السودان في توجيه حملة شعواء على الحكم الأزهري الجديد وتعاونت معه على إصدار عدد قوي عنيف مملوء بروح الحقد الأسود .

ولم يصدر العدد التالي إذ أن رسالة مستعجلة من وزارة الداخلية أخطرتنا في نفس يوم صدور العدد بإلغاء رخصة الجريدة ، ورضخنا للأمر الواقع ، وانصرفنا للبحث عن وسيلة للرزق وأدرنا مطبعتين تجاريتين إحداهما مطبعة الحزب الوطني والأخرى مطبعة الطابع السوداني ، ولم يكن الدخل يفي بالضروريات .. وذات صباح وكنت قد خرجت لبعض شأني علمت من العمال أن الزميل صالح عرابي سأل عني ولم أعر الأمر كبير اهتمام فرغم شوقي لمقابلة الزميل بعد فترة غياب طويلة قضاها في مصر ، إلا أن مشاغلي الخاصة كانت تطغى على كل تفكيري فلا أكاد أنظر إلى أبعد من أنفي ... وأصبح بيني وبين العاطفيات حاجز غليظ ، كما أنني لم أكن مغرم بالجري وراء الفقر وإن كان دائما يتبعني وكان صالح يمثله في ذهني دائما ! ... ومر يوم وإذا بصالح يقبل مرة أخرى ، وكان قد تغير تماما ... كان يلبس بدلة أنيقة .... ويتكلم بحروف كبيرة ... ولا ينظر إلى الأرض إلا نظرات عابرة ، ثم يفلتها إلى السماء وأنا أعرف الناس بصالح ، فإن المال شفاف لديه ومن صفاته عندما يتلبسه (الطزينة والكرم) وكنت في ذلك الوقت محتاج إلى صفة من هاتين الصفتين وهي الكرم ... وثارت عواطفي فجأة ، وهجمت عليه لكي أعانقه فردني بلطف وخاطبني بعبارات ملؤها الوقار .... والعظموت قائلا : إنه جاء في أمر هام .

وفي دقائق علمت من صالح أنه بصدد إصدار جريدته التلغراف يومية (كانت

أسبوعية) مع الاحتفاظ بالعدد الأسبوعي وتدعيمه وأنه يرغب في أن أتعاون معه فرحبت بالعرض وودعته إلى خارج المطبعة فوجئت بسيارة سوداء ذات سائق تقف في انتظاره .

وصفرت بفمي باستغراب وتساءلت في نفسي : من أين لصالح كل هذا ؟ وقد عهدته أفلس من الفلس نفسه ....

وخالجني شعور من الحسد ، وصدرت التلغراف يومية ـ بالإضافة إلى العدد الأسبوعي الممتاز ـ من مطبعة مصر قبل أن يتسلم (صالح) الترخيص رسميا ... إذ كان يتردد في طلبه على السيد مبارك زروق (رحمه الله) وزير الداخلية بالإنابة ، في الوقت الذي كانت فيه الجريدة توالي الصدور فعلا دون أن يعترضها أحد مما يدل على قوة نفوذ القاهرة على الحاكمين آنذاك .... وكانت الجريدة تعمل بتوجيهات الصاغ صلاح سالم ، وكان دخل صالح الصافي من (العملية) يتجاوز الألف جنيه شهريا (حسب تقديري) وكان صالح يؤجر منزلا في المقرن من المرحوم صالح حسين بيومي يدفع عنه شهريا خمسة وأربعين جنيها ويقتني ثلاثة من الخدم ، ويعيش في بحبوحة تحكي قصص المهراجات وتغص داره بكبار القوم .... ثم ما لبث أن اشترى عزبة في سوبا .

وكان الدخول إلى مكتب صالح ... بالإذن وقصارى القول كان صالح يعيش في دوامة من النجاح المادي . وقد تلقى ذات يوم حوالات على بنوك السودان من كل المجالس المحلية في مصر بوصفها اشتراكات في الجريدة ، وقد تجاوز رقمها بضعة آلاف من الجنيهات وقد حاول أن يحسب هذه المبالغ مستعينا بأخيه طنطاوي (طيب الله ذكره) مدى ساعة من الزمان ، ثم مل الحساب أو استهان به فأجله إلى وقت آخر ، ولم يصرف هذه الحوالات فورا وإنما أودعها بعد تمهل حسابه في البنك .... وكأنما أصابته كثرة المال بالتخمة .... فلم يعد حريصا عليه هذا الحرص الذي سبق أن كسر من أجله كل قيد .... وسافر صالح إلى مصر ثم عاد ، وهو يحمل آكلشيهات بها صور ووثائق ضد بعض كبار رجال الحكم من الاتحاديين ، وقيل أن المقصود بها كان الضغط على السيد يحي الفضلي (عطر الله ذكراه) لأنه لم يكن واضح الولاء وكانت الأقاويل عن تمرده على القيادة المصرية واستقلاليته تتواتر .

ومهما يكن من شيء ، فإن هجوما مركزا في جريدة التلغراف بدأ ضد يحي الفضلي ، وقد أخذ أولا طابع الغمزات ، ثم تعريضا ثم سفر فأصبح تجريحا .... وانتقلت الحملة شيئا فشيئا من يحي الفضلي إلى الوزراء ككل في صورة انتقاد لبعض أعمالها ، ثم انتقاد لبعض رجالها ثم انتقادا للمرحوم أزهري نفسه ...

ولم يهتم الناس أولا بهذه التحركات الغريبة في سماء السياسة ... ولكنهم اضطروا إلى الاهتمام حينما ارتفع الهمس إلى ضجيج ، لقد كان التحول فجائيا وسريعا وعنيفا تتجلى فيه عصبية الصاغ صلاح سالم وما فطر عليه من وضوح في حالتي الصداقة والعداوة فلا يداري ولا يداجي ولا يتئد .

وقد علمت من الصاغ صلاح سالم نفسه فيما بعد أن الأسباب التي أدت إلى تدهور العلاقات بينه وبين حكومة الحكم الذاتي كثيرة من أهمها أن الحكومة البريطانية كانت قد دعت في عام ١٩٥٤ السادة إسماعيل الأزهري رئيس الوزراء ويحي الفضلي وزير الشؤون الاجتماعية وعلي عبد الرحمن وزير العدل لزيارة لندن ... وكان الصاغ صلاح سالم بوصفه المشرف من قبل مصر على الوضعية في السودان لا يرغب في أن تلبى هذه الدعوة ثم عندما لبيت ، كان يرغب في أن يعرف كيف تمت الدعوة وماذا حدث فيها ؟ ولماذا انفرد السيدان أزهري ويحي الفضلي برئيس وزراء بريطانيا وحدهما وماهو هذا الشيء الذي انفرد بمعرفته السيدان الأزهري ويحي الفضلي (رحمهما الله) من دون زميلهما علي عبد الرحمن ؟ ولماذا ؟

وهل ثمة اتفاق جنتلمان بين هذا الثنائي ورئيس وزراء انجلترا ؟.... الواقع أن الصاغ صلاح سالم كان يؤمن بأن انتصار الاتحاديين في الانتخابات من صنعه ، وأنه هو الذي جاء بهم إلى كراسي الحكم بعد أن أنفق من أموال مصر بضعة ملايين ، ولم يكن يتصور قط أن الزمام يفلت من بين يديه ، أو أن حكومة أخرى تستطيع أن تنتزع منه هذا الزمام ... وكان معتادا منذ البداية أن يتم الاتفاق بينه وبين الوزارة السودانية على السياسة التي ينبغي أن تتبع ، ولو في الخطوط العريضة . وكان صلاح سالم خياليا وكان رغم وفرة ذكائه غير ناضج وغير مجرب ..... وغير خبير بألاعيب الرجال ... وكان صاحب قلب مفتوح ونفس صريحة ، فظاهره يشبه باطنه حتى لتكاد أقدس أسراره تقرأ لجليسه ، من

أساريره ونوبات الغضب والرضا التي تعتريه عند ذكر الأشخاص والأحـداث ، وكان يؤمن بالناس ويثق فيهم ... وكان إيمانه بأزهري بـالغـا وكان يعتقـد أن تفـاهمـه معـه واسع فلما تجوهل في هذه الزيارة وتكشف لـه أن الهوى قـد تحول ، صـدم في عنف عنيف .. ثم ازداد شعوره بالمرارة حين نمى إليـه أن السيـد علي عبـد الرحمن وهو رجل كان معروفـا بصـداقـة مصر لم يخص بالأسرار التي خص بها نفسيهما أزهري ويحي ووضعا بينـه وبينهما حجـابـا ، ثم ازداد هـذا الشعور مرارة حين قـام السيـد أزهري برحلـة إلى اركويت عقب زيـارة لنـدن لمقابلة سير روبرت هاو حاكم السودان العام يومئذ ..... وقيل أنه في هذه الرحلة قد أطلعه على ما تم الوصول إليه في لندن وتفاهم معه على طريقة التنفيذ ..... الحاكم العـام الانجليزي يعرف والصـاغ صلاح سـالم المصري لا يعرف !! ترى مـاذا وراء الأكمـة ؟ ومـاذا يـدبَّر في الخفـاء ؟؟ ولم يعـد في قوس الصبر منزع وهكـذا غـام الجـو وتلبـدت السحب !! وتكاثرت النذر !! وأخذت إذاعة صوت العرب تهاجم !! وأخذت جريدة التايمز تهاجم !! وأخـذت الصحف المصرية تهاجم !! وجندت الإذاعة السودانية قواها أيضا وردت على الهجوم بـالمثل وعين عبد الماجد أبو حسبو المحامي قائدا لمعركة الدفاع من قبل الحكومة السودانية وجندت الصحف الاتحادية والصحف المواليـة للحكومـة قواهـا ومضت تهاجم أيضـا !! بل جنـدت الصحف الاستقـلاليـة المعـارضـة كثيرا من الأقـلام للهجـوم على مصر ولتـأييـد الـدعـوة الاستقلالية ووقف الشعب السوداني قـاطبـة وراء حكومتـه وسـاندهـا في إصرار !! واشتـد النضـال ! ولعل صلاح سـالم كان يعتقـد بـأن الخلاف لن يتجـاوز مهما طـال ، الأسبوع أو الأسبوعين ثم يتـدخل العقلاء ويحسم الأمر بـإزالـة الأسبـاب التي أدت إلى هـذا الخلاف !! وتعود المياه إلى مجـاريهـا !! بل ولعلـه كان يعتقـد أن ثورة داخل الحزب الوطني الاتحـادي سوف تنشب ، تضطر الوزارة إلى تغيير منهجها الجديد !!

ولكن شيئا من هذا لم يحدث !! لقد كان تنكر الاتحاديين أكبر مما كان يقدر .... بل أخطر ممـا كان يقـدر !! فـإذا بـالبكبـاشي خلف الله خـالـد يعلن دعـوة الاستقـلال في القضارف .... وإذا بيحي الفضلي يعلنها في الخرطوم !! وإذا بالشعب كله يقف وراء دعوة الاستقلال والصوت الوحيد الذي كان ينطلق باسم صلاح سـالم في الخرطوم ، وهي جريـدة التلغراف، ما لبث أسكتت دون مبالاة ، فقد أصـدر وزير الـداخليـة أمرا بسحب رخصتهـا

بحجة إساءتها لدولة صديقة هي إثيوبيا ، وسمعت يحي الفضلي في اجتماع عقب سحب رخصة التلغراف يترنم بالبيت التالي :

إني وقتلي سليكا ثم أعقله　　كالثور يضرب لما عافت البقر

واختلف الناس في المعاني الكامنة وراء هذا البيت ولكنهم اتفقوا على أنه يشمل إنذارا من الحكومة السودانية للحكومة المصرية بأن سحب رخصة التلغراف إنما تعني اتخاذ خطوة ضد المصالح المصرية ، فإذا لم ترتدع ، فقد تتخذ خطوات أشد عنفا تشمل مؤسسات حيوية كمصلحة الري المصري مثلا .

ولم تبق لمصر في السودان غير صحيفة واحدة نصف شهرية ! هي الشروق لصاحبها أحمد جمال الدين ، وقد أصدرتها مطبعة مصر واجتمع محررو جريدة التلغراف وآخرون حولها وكانت مرتباتهم تبلغ ثمانمائة جنيه شهريا ...

وكان إخفاق صلاح سالم في سياسته السودانية قد أعان خصومه في مجلس قيادة الثورة بمصر على البطش به ، وإبعاده عن المجلس .

وقد سمح له بعد ذلك بزيارة السودان للتهنئة بقيام الاستقلال وقابلته مرارا ، وكان مكسور الخاطر حسير النفس ، شاعرا بأن دوره قد انتهى ، وأن مطامحه العظيمة قد تحطمت على صخرة الواقع الصلبة .

ورأيته بعينيّ وهو يبكي في حرارة قبل سفره بيوم واحد كأنه طفل صغير ... وكنت قبل ذلك قد أهديته نسخة من كتابي شخصيات من السودان وقد تضمن فصلا أنصفته فيه وهاجمت خصومه .

ذكاء

زار الصاغ صلاح سالم وزير الإرشاد ووزير الدولة لشؤون السودان (البطانة) في صحبة الناظر محمد حمد أبو سن ناظر الشكرية خلال جولات الصاغ السياسية في فترة الحكم الذاتي . وكان الصاغ شديد الاعتزاز بانتصارات الثورة المصرية وما حققته لمصر والسودان من أهداف كبيرة .

ودفعه فخره بدور مصر إلى القول في ساعة حماس وهو يحاور الناظر : نحن المصريين أذكى من السودانيين .

وأجاب الناظر على الفور ، بذكاء السّناب ومكرهم المشهورين : بلحيل يا معالي الوزير . المصريون القدروا يرقّصوا القرد ما في ذكاهم شك ! .

ملحوظة : السودانيون عندما يريدون أن يمتهنوا المصريين يلقبونهم بالحلب (أي الغجر) والغجر كما هو معروف أساتذة في تدريب القرود على فنون الرقص !! .

خمسون ألف جنيه من أجل فلتة لسان ! !

هنـاك حقيقـة أعرفهـا عن نفسي ، وهي أنني لست حقـوداً ولا حسـوداً ولا متعصباً .. أنسى السيئة بسرعة ، وأطوع مشاعري للغبطة ، بما يصيب الآخرين من خير ، ولا أسرف في العداء وإن أسرفت في الصداقة أحياناً غير أنني في أول عـام ١٩٥٤ حين خرج الحزب الـوطني الاتحـادي منتصراً في الانتخـابـات ، وحين آلت إليـه مقـاليـد الحكم ، وحين أصبح معظم (زملائي ؟) في لجنـة الأحزاب المؤتلفـة يشكلـون الـوزارة ـ وحين أصبحت سياراتهم الفارهة تخترق شوارع العاصمة المثلثة مقبلة مدبرة ...

غير إنني حينـذاك لم أستطع كبح جماح عـواطفي وأنـا مفلس متخلف ، متعطـل ، لا أملك قوت يومي .. وقد وقعت على متاعي (الحجوزات) وأمرت بـإخلاء المنزل الـذي أسكنه . فلقد سيطرت الكراهية على كل مشاعري ، وانزوت روح التسامح في نفسي مجهدة جريحة ... وقضيت أكثر من عام كامل لا تنتقل قدماي إلى دار من دور الحكومة ، ولا إلى منزل من منازل الحاكمين ... بل ولا إلى منزل من منازل المشتبه في ولائهم للحاكمين ...

مقاطعة :

وكدت أقاطع الشريف عبد الرحمن الهندي والدكتور عبد القادر مشعـال رغم وثـاقـة علاقتي بهما لترددهما على دار رئاسة الوزراء ومنزل السيد الأزهري ، استنجازاً لوعود لم تنفـذ في ذلك الوقت ولا بعده ..

الهزيمة :

وجمعت الهزيمـة والمرارة بيني وبين الشريف حسين الهنـدي .. قررنـا إعـادة تكوين الحزب الوطني ... وأنفق الشريف الحسين الكثير من المال لإعداد مطبعة الحزب ثم أصدرنـا جريدة أنباء السودان ... وكان العدد الأول منها كالقنبلة ، تقطر كل كلمة فيه سماً وضغينة

ومقتاً ... هاجمنا الحزب الوطني الاتحادي ، ورميناه بالخيانة والمروق ، ودمغناه بالتبعية لمصر ... وكان أكثرنا تطرفاً في مهاجمته الشريف حسين .

وفيما نحن نعد مواد العدد الثاني متحمسين ... جاءنا خطاب (يولول) من وزارة الداخلية على غير انتظار ، بإلغاء رخصة الجريدة ...

وكان صاحب امتيازها يوم ذاك هو الشريف عبد الرحمن الهنديّ ..

وقوض الخطاب الكثير من الآمال ... وإن كان قد هدانا إلى الموضع الذي هبت منه الرياح فإن الشريف عبد الرحمن لم يكن راضياً عن مسلك المعارضة السافرة لحكومة أزهري .

وكان الدكتور مشعال بطبيعة ظرفه ـ وهو موعود بمنصب كبير ـ غير راضٍ عن هذا المسلك أيضاً لأنه متصل بالحزب الذي أعلن دمجه ، وعلى جثته نال ما في الأعناق من وعود ... الخ .

ولم يكن عسيراً علينا أن نفهم أن الرجلين قد اتصلا ، وقلبا وجوه الرأي ، ثم خاطب الشريف عبد الرحمن بوصفه صاحب الامتياز ، الجهات الرسمية لاتخاذ الإجراءات الكفيلة بإطفاء هذه الشعلة المشبوبة .

ويدعم هذه النظريّة رفض سيادته القيام بأية محاولة لإعادة الترخيص من جديد ...

وواجهنا الشريف حسين وأنا هذا الحدث بالصبر والإذعان ، وكرسنا جهودنا لإعداد مطبعة الحزب الوطني ثم ضممنا إليها مطبعة الطابع السوداني ، يعاوننا الشريف مرتضى صديق نديم ...

وكنا نأمل أن تكون المطبعتان نقطة وثوب إلى أعمال للدعاية والنشر تمكن للحزب وتحييه ... غير أننا ـ ثلاثتنا ـ كنا من الحماقة بحيث لم نفطن إلى أنه كان من العسير علينا أن ندير منشأة تحتاج للدقة في التصرف ، والاقتصاد في النفقات ، والجمود في العواطف ، واتباع سياسة الدفع مقدماً ..

إذ ما لبثنا أن وجدنا المطبعتين مثقلتين بالديون .. ديون عليها وديون لها .. ومن بينها ثلاثمائة جنيه على صاحب جريدة الناس ، ومائة على جريدة الطليعة التي كان يتولى الإشراف عليها الشفيع أحمد الشيخ ومحمد الحسن أحمد وتخليت عن إدارة المطبعتين للشريف زين العابدين يعاونه أحد الفنيين ذوي الخبرة ... ولكن المطبعتين انتهتا إلى الإغلاق ...

إن الشريف زين لم يكن مسيحاً ليحيي الموتى .

في ميدان السياسة :

وظل يراودنا الشريف حسين وأنا ، الحلم القديم في إعادة تكوين الحزب المندرس ، واللعب به في الميدان السياسي .

حسين ذو الفقار :

وقابلت ذات يوم السيد حسين ذو الفقار ممثل مصر في لجنة الحاكم العام ... واقترح خلال الحديث بأن يعمل على تمويل الحزب ... وقدر الدفعة الأولى التي تمكن الحزب من النهوض بخمسين ألف جنيه .

وخطط بعض المعالم ، منها تأليف لجان الخرطوم والجزيرة وشرق النيل الأزرق والجبال وحددت ميعاداً حضره الشريف حسين .

وأذكر أن السيد حسين ذو الفقار صارح الشريف حسين بأنه لا يثق به كثيراً لتجارب ماضية في مصر ، كان السيد يحيى الفضلي طرفاً فيها .

غير أنه أضاف : ولكن لا بأس من المحاولة مرة أخرى . وأطلعنا الشريف عبد الرحمن الهندي عقب عودته من الجزيرة على هذه الخطة فوافق عليها وباركها .

لسان فلوت :

وفجأة قرأنا في صحيفة الاستقلال المعلومات التي لم يكن يعلم بها غير أربعتنا وهي محددة كاملة مع حذف الأسماء والاكتفاء بالإشارة إليها إشارة دالة .

وتحريت فعلمت أن الشريف الحسين ولسانه كما يعلم أصدقاؤه فلوت ... أفضى بالسر

لصديقه الأستاذ عبد الماجد أبو حسبو الذي كان قد حرم من سبعين جنيهاً - مرتباً شهرياً - بعد أن اكتشفت الكلية القبطية ... فجأة وبعد خلاف الحزب الوطني الاتحادي مع مصر - أنه لا يواظب على الحضور إليها .

ومن الأستاذ عبد الماجد تسربت المعلومات إلى الجريدة الآنفة الذكر .

وسابق معرفتي بالمصريين عامة وبالسيد ذي الفقار خاصة جعلتني لا أطمئن بعد هذا النشر إلى إمكان السير في هذا المشروع .

أعصاب :

وفي صباح يوم باسم خرجت من داري في الخرطوم ثلاثة ، في الساعة الثامنة والنصف ولم أبعد حتى فوجئت بسيارة الشريف حسين تقف أمامي وتذكرت عندئذ ميعاداً كان قطعه لنا السيد حسين ذو الفقار في الساعة العاشرة من نفس الصباح . وكان من المتوقع أن نستلم فيه المبلغ المقدر لبدأ العمل .

وذهبنا مع الشريف إلى سنت جيمس وطلبنا إفطاراً ومضيت في تناول الطعام غير أن أعصاب الشريف وكان في أعلا الموجة ، لم تدعه يستمرئ هذه (الحبسة) ، فدفعني عن مقعدي ، وقادني إلى السيارة ، وفمي لم يزل يمضغ الطعام ... ومضى يطوف بي في شوارع الخرطوم مراراً دون هدف .

لقد كان ينتظر خمسين ألفاً من الجنيهات ... ولن تثبت أعصاب ، إزاء هذا الرقم ، ولو كانت من حديد وحلّت ساعة الصفر ، ونزلنا من السيارة وسرنا في خطوات خلته يغرسها في الأرض غرساً حتى لا تندفع فتكشف عن عجلة ورعونة .

وقابلنا الرجل بعد انتظار دام نصف ساعة كانت كأنها نصف قرن ظللتنا خلالها سحابة من التشاؤم ، ثم أقبل وجلس وحيا تحية فيها مبالغة لم أرتح لها ... ثم تنقل في موضوعات شتى لا تتصل بموضوعنا من قريب أو بعيد ...

ثم أمسك بجريدة الأيام ، وقرأ فقرات منها تصف السيد محمد نور الدين وزير الأشغال يوم ذاك بأنه سيد القابضين (وتساءلت في نفسي عن المناسبة ؟) وأخيراً استطعنا

أن نزج به في دائرة المنطقة المحرمة ... وكان الشريف الحسين يذهب إلى المبالغة في تقدير ما ينبغي أن يدفع من مال .. كمأثور طبعه .

غير أن السيد حسين ذو الفقار لم يتركنا نتوغل في وادي الأحلام طويلاً إذ ما فتئ أن جاهرنا بما أطفأ جذوة حماسنا وردنا إلى أرض الواقع كالحطام وذلك عند قوله : (إن موضوع الحزب الوطني لم يزل تحت البحث) .

وصدم الشريف حسين صدمة شديدة ظهر أثرها في أسارير وجهه جلياً .

أما أنا فقد تعودت على الفشل . واستقبلت ما تفوه به السيد حسين ذو الفقار بما أستقبل به قوتي اليومي .

وضحكت .. لأصرف هذا الصمت المؤلم الذي ساد الغرفة ، ثم وقفت إيذاناً مني بانتهاء المقابلة .. فإن المرء في ساعات الحرج ينبغي على الأقل أن يكسب احترام نفسه .. وانصرفنا موقرين بالحسرة والأسف والحديث عن الوطنية وعن اللسان الفلوت الذي توازي زلته خمسين ألف جنيه ..

منافقون في القاهرة

كان اشتراكي في ١٥ مارس من عام ١٩٤٩ في البعثة الصحفية السودانية إلى مصر حدثا هاما في تاريخ حياتي ، وقد انطبعت آثاره في نفسي انطباعا قويا لم يضعف منه مرور السنين ، ذلك أنها كانت المرة الأولى التي أخرج فيها من السودان وكانت المرة الأولى التي أركب فيها طائرة .

وكانت المرة الأولى التي أواجه فيها عالما زاخرا بالحركة والحياة وأسباب الحضارة ولو في حدود .. وكان زملائي في الرحلة هم : إسماعيل العتباني عن الرأي العام ومحمود الفضلي عن الأشقاء وبشير محمد سعيد عن سودان استار ومحمد أحمد السلمابي عن صوت السودان ومحمد عثمان جودة عن السودان الجديد ومحمد أمين حسين عن الإذاعة المصرية وخاطر أبو بكر عن الإذاعة السودانية والفاتح النور عن مجلة مودفان وقد مثلت أنا مكتب الأهرام في الخرطوم ، ومجلة المستقبل .

أيام حافلة :

وقد استقبلنا في القاهرة استقبالا حافلا حماسيا ، ولم نكد نغادر مطار ألماظه قاصدين إلى القاهرة حتى شدهت برؤية هذه العمارات العالية ذات الطوابق العديدة ومظاهر الحضارة التي لم يسبق لي مشاهدتها . وظللت أسأل محمود الفضلي ، وكان إلى جانبي في السيارة وهو العليم بمصر (دي شنو ودي شنو ؟) .

فلما أكثرت عليه من السؤال قال لي في ضجر مهذب : اسمع ما تجرسنا دي مصر كلها كده ... عاين بعيونك وأسكت وفطنت إلى موقفي ولذت بالصمت وعيناي لا تفتآن تتحركان في ذهول وإعجاب .

وقضينا في مصر أسبوعين كانت مليئة وحافلة وكنا ندعى في اليوم إلى أكثر من حفلة شاي وإلى أكثر من مأدبة غداء وعشاء .

جدل :

ولقد اضطررنا أحيانا لكي نرضي جميع الذين دعونـا من الهيئـات والصحف أن نجزئ أعضاء الوفد إلى قسمين كل قسم يلبي دعوة .

وكان من نصيبي أنـا وبشير محمد سعيـد في أحـد الأيـام زيـارة دار أخبـار اليوم ودار جدل بيني وبين مصطفى أمين أحد صاحبي الدار .

وكان بشير يمثل فيه دور الحجاز وكان الجدل حول الوحـدة بين مصر والسودان وهل هي طبيعية وهل معنـاهـا الاستقلال ؟ كما يقول مصطفى أمين أم الاستعمار كما أقول أنـا ؟ وكنت قد أرسلت نفسي على سجيتها وأخذت أتحدث كما كنـا نتحـدث في جريـدة النيل في الخرطوم .... وأقول : يا أخي يكون حظنا أحسن من حظ النوبيين الذين لم يصل واحـد منهم حتى الآن إلى منصب مدير مكتب ؟

وكنت أقذف ببعض العبارات كالحجـارة فتقع موقعـا سيئـا ولم أكن في تصرفي حكيمـا ولا مهذبا فقد كنا ضيوفا على مصر ، وكنت أمثل جريدة مصر ، وكان التهجم على المبـادئ التي تقدسها مصر فيه جرح لمشاعر أولئك الذين أكرمونا واحتفوا بنـا وفتحوا لنـا صـدورهم بل لم يكن ثمـة مبرر لهـذا الهجوم وانتهت زيـارة أخبـار اليوم وعنـدمـا انصرفنـا لفت بشير نظري إلى مـا فعلت ... فشعرت بوقر ثقيل وأنبت نفسي في شـدة ... ووعـدت بـألا أعـود لمثلها ... وزاد من ضيقي أنني كنت الوحيد في الوفد الذي يمثل صحيفة مصرية كبرى هي الأهرام كما أسلفت .

المنافقون :

غير أن ما حدث بعـد ذلـك جعلني أشعر أن محـاولتي في التعبير عن وجهـة نظري في صراحة كان عملا طيبا فقد أقـام السيـد إبراهيم عبـد الهـادي رئيس مجلس الوزراء يوم ذاك مأدبة عشاء تكريما للبعثة ... وفجأة قفز خلال المأدبة السيد محمـد المهـدي الخليفـة عبـد الله وأخـذ يهتف بحيـاة ملـك مصر والسـودان وحيـاة وحـدة وادي النيـل .. ثم تبـارى بعض المنـافقـون من السـودانيين المقيمين في مصر في إظهـار ولائهم لجـلالـة ملـك مصر والسـودان وحكومته ... ورغم أننا دفعنا إسماعيل عتباني لكي يخطب باسم البعثة وكان كعادته معتـدلا

فطنـا يقـدر مسـؤوليتـه إلا أنـه كان غير متمكن من فن الخطـابـة ، وكانت ألفـاظـه متعثرة ووقفاته بين كل عبارة وأخرى كبيرة ، إلا أن آخرين ومنهم الأستاذ محمـد أمين حين انبعثوا يزجوننا في مضمار السيـاسـة ذات الاتجـاه الواحـد وفي الهتـاف بحيـاة الملكيـة والوحـدة بين القطرين .. وقـد أصبنـا بـذعر وحيرة وارتبـاك من جراء هـذا الـزج غير الكريم .. فـإن معظمنا لم يكن من دعاة الوحدة بل كان ضدها ، ولكننا كنا إلى جانب ذلك ضيوفـا على مصر ، وكان يجب أن نراعي مشاعر أهل الدار فلا نمس مبـادئهم وإحسـاسـاتهم ولا نواجههم بما يكرهون ..

وظللنـا نعـاني من هـذه الحـالـة المضطربـة طيلـة الأسبوع الأخير لإقـامتنـا في مصر تقريبا ، مما كاد يفسد الرحلة ، غير أننـا واصلنـا الضغـط على أعصـابنـا وتركنـا الحبل على القارب لكل أولئك الذين أرادوا انتهاز الفرصة والتعبير عن ولائهم والتفاني في ذات الجلالـة الملكية المفدى علما بأنها وسيلة ارتزاق لا أكثر .

والغريب أنني اكتشفت قبيـل عـودتنـا إلى الخرطـوم أن الأستـاذ فكري أبـاظـة كان يضيق ذرعا بأحد السودانيين المنـافقين الـذين يملأون الجو تهريجـا في كل احتفـال .. وقـال أمام ملأ من الناس وهو يضحك :

تلـك هي بضـاعتكم ردت إليكم فخـذوهـا وعليّ ثمن التـذكرة ... غير أنـه لاحـظ في وجوهنا أننا لم نكن نرحب بالبضاعة المزجاة وإننا لم نبادله ضحكا بضحك .

ضرب ثلاثة صحفيين

في أوائل الأربعينيات عين الأستاذ عبد الله عبد الرحمن نقد الله مساعداً لرئيس تحرير جريدة النيل ، ونظرا للصلة الوثيقة التي تربط نقد الله بآل المهدي عامة وبالإمام عبد الرحمن خاصة ، فإن الأستاذ أحمد يوسف رئيس التحرير قد انزوى ثم تقلص نفوذه شيئاً فشيئاً حتى كنا لانراه إلا عندما يفد ليستلف من مرتبه ، أو يقبض ما بقي منه في نهاية كل شهر ... وقد أخذ يحصر جهوده في مجلة السودان الجديد الأسبوعية ويعمل على تحسينها من حيث التحرير والطباعة وكان نقد الله شديد الحماسة كثير الاجتهاد ، عنده فكرة واضحة عن العمل الصحفي ... وقد شعرت نحوه بارتياح شديد ، وتعاونت معه بإخلاص وأذكر أنني كسرت روتين الجلوس على الكراسي وذهبت إلى معمل ألبان كافوري حيث طفت به ، وتحدثت إلى مديره جبرائيل كافوري . وكتبت ريبورتاجا حيا نشرناه على دفعتين كما أجريت حديثا مع مدير الأشغال بحضور السيد ميرغني حمزة وآخر مع مدير المعارف . وزاد من تقديري لنقد الله إنه شاب عف اللسان ، مهذب الأسلوب لا يعرف الدس الرخيص ولا السعي الخفي ، وإنه عادل يعرف للناس أقدارهم وحقوقهم ... ولا يحاول أن يغتصب مجهود الآخرين ليبني به نفسه ، وإنه يجاهر بما يعتقد ويعتقد بما يجاهر .

وكان الفارق بين عهد الأستاذ أحمد وعهد الأستاذ نقد الله عندي كبيرا فقد احترم الأخير أقدميتي ، وجامل كبريائي ، فلم يفرض عليّ رئاسته فرضا ولم يكن يقرأ أمرا دون أن يستشيرني وقد يخلق الحسنات خلقا ليقوم بها ضعفى .. أما الأول ـ عليه الرحمة ـ فقد كان عاتبا قاسيا لم يذكرني بالحمد في مناسبة واحدة ، وكثيرا ما نال مني بألفاظ كوخز الإبر .

وكثيرا ما جردني من بعض أفضالي على الجريدة لينسبها لنفسه في غير ما حاجة ولا

ضرورة ... وكثيرا ما بذر الأشكالات أمامي ، وسمّم الآبار ، وأحال حياتي إلى قلق متصل .. وقد توطدت الصلة بيني وبين نقد الله منذ ذلك الحين .... ثم ضرب الدهر ضرباته واختلف بنا الطريق ... وفي عام ١٩٤٩ تكونت جماعة من الفدائيين وقد قررت تلك الجماعة ضرب ثلاثة صحفيين هم صالح عرابي رئيس تحرير التلغراف وعبد الله رجب رئيس تحرير الصراحة ويحي محمد عبد القادر رئيس تحرير المستقبل . واتهمتهم هذه الجماعة بالخروج على التقاليد السودانية في عدم توقير الزعامات الدينية ... وضرب صالح عرابي في شارع الحرية بالقرب من لوكندة كيشو ، وكسرت يده ...

ويصف السيد إبرام سوريال ـ وهو شاهد عيان ـ الحادث فيقول : إن ثلاثة من الشبان انهالوا على صالح بالهراوات الغليظة ، وهم يصيحون (راسو راسو) وكان صالح يصرخ صراخا يصم الآذان دون أن يأتي لنجدته أحد ... وضرب عبد الله رجب ضربا مبرحا أمام المحطة الوسطى ولاحظت أنا تردد عدة أشخاص إلى مكتبي لغير ما سبب واضح ـ وكان بعضهم يطل من الباب ثم يختفي وكنت أسير دائما ومعي حراس ثلاثة هم صلاح أحمد ومحمد صالح وخالد العجباني وكلاهما ضخم عريض مخيف المظهر ثم عصمت يوسف . وعلى غير انتظار أقبل على مكتبي ذات يوم الأستاذ عبد الله عبد الرحمن نقد الله ودعاني للخروج ، فلم أتردد وصحبته وركبنا سيارة كان يقودها ، ومضينا مسرعين إلى مكتب وكالة أخبار السودان (ويشغل الآن المكتب الأستاذ علي محمد إبراهيم المحامي) ووجدنا في انتظارنا السيد محمد الخليفة شريف ـ عليه رحمة الله ـ والأستاذ محمد أحمد عمر صاحب الوكالة وثالثا لا قيمة لذكر اسمه الآن .... وقال لي نقد الله : صالح السيد محمد فإنه غاضب عليك ، وصاح بي السيد محمد ... يا حلبي مالقيت شيء تكتبه غير شتيمتنا .

ودهشت .... وسألت عن هذه الشتيمة وأين كانت من الصحيفة ، فأشار إلى خبر عن خطبة مرفوضة في الخرطوم بحري ، لم أكن أقدر أنها سوف تثير الرجل إلى هذا الحد ... لقد تقدم السيد محمد لخطبة سيدة من آل راجي كانت قد طلقت حديثا من السيد محمد عثمان الميرغني ـ شمبات فلم تقبل الأسرة حفاظا على علاقتها برئاسة الختمية وتلقيت الخبر فنشرته ، محفوفا بالبهارات ، وكانت بيني وبين السيد محمد مودة ... وكان رغم ألفاظه الغليظة أحيانا طيب القلب (في نظري) وزال توتر الموقف سريعا فإن السيد محمد وهو

معروف بسرعة الغضب وسرعة الرضا ، ما لبث أن استأنس وتبسط ، وساد المكتب جو من المرح والانشراح وانصرفت وأنا أتساءل :

لم جاء بي نقد الله وطلب إلي مصالحة السيد محمد ؟ وأخيرا خيل إليّ (ولعلي مخطئ) أنني اهتديت إلى جواب فقد عزّ على نقد الله أن يضرب صديقه وزميله القديم فعمل على أن يسوّي الأمور بطريقته الخاصة .... وقد سواها .

من عنده يعطى ويزاد ومن ليس عنده يؤخذ منه

أسئلة حائرة :

قبل أن أمضي في سرد ذكريات الفترة التي أتعرض لها الآن من عام ١٩٥٦ أود أن أستعرض بعض الموضوعات التي شغلت أذهان هيئة تحرير جريدة أنباء السودان عند صدورها يومية في ٨ أغسطس من ذلك العام .

لؤم :

فقد لاحظنا مع الأسف الشديد والقلق الشديد أن الصحف الكبيرة كلها لم تستقبل جريدة أنباء السودان كما يقضي عرف المهنة ، بكلمة المجاملة الترحيبية .. كنا نقلب الصحف فلا نجد فيها اشارة إلى الأنباء ولو من بعيد .

الرأي العام :

ولم أبال (بالرأي العام) فإن صاحبها أبطره النجاح المطرد ، ولم يحتمل حمياه وكان التفاهم معه غير ميسور في المسائل التي أتخذ فيها قرارا ، إذ كان النشر عن الصحف في (الرأي العام) ممنوعاً في ذلك الحين ؟؟

(ألغى هذا القرار مؤخراً بعد أن تساوت الرأي العام مع صحف أخرى في حجم التوزيع ، ولم تعد منفردة بالسوق ومكره أخاك لا بطل) .

الأيام :

وقابلت ذات يوم الزميل محجوب محمد صالح أحد رؤوساء تحرير الأيام وصديق قديم نسبياً ومن منطقتنا (الخرطوم بحري) وأعطاني كالعادة ابتسامة غير واسعة .... وكلمة طيبة ، ونكتة على الماشي ، لا تفهمها إلا بعد تفكير .. ولا تضحك منها إلا بعد أن تغادره ..

ونـاقشتـه في موقف (الأيـام) من أنبـاء السودان ، وكيف أنهـا تجـاهلت صـدورهـا تجاهلاً كاملاً .. فقال : أنكم أنـ الذين تجاهلتم (الأيام) فلم تبعثوا لها بعدد (المبادلة) ومـا كان ينبغي أن نشتري من الباعة ..

ووعد بالكتابـة عن (الأنبـاء) ولكنـه لم يفعل .. وحرصت أن أسـأل بعض موظفي (الأيام) عن السبب في عدم الكتابة . فقيل لي بوضوح أن بشير محمد سعيـد يرى أن النشر في (الأيـام) وهي أوسع الصحف السودانيـة انتشـاراً يمثل مصلحـة لجريـدة أنبـاء السودان وذلك يدخل في باب الإعلان وفي هذه الحالة ينبغي أن تـدفع (الأنبـاء) لكي تنشر الكلام الذي تريده ولم يكن محجوب من السلطان في ذلك الحين (وقـد كان صغيرا) بحيث يعصي أوامر تصدر إليه من أعلى .

ثورة :

وتألمت أن يكون مقام الزمـالـة بهـذا الهوان في الوسـط الصحفي السوداني وتـألم معي طه محمد طه سكرتير تحرير أنباء السودان وكتب مقالة نارية ، وصف فيهـا موقف الصحف الكبرى بأنه يشف عن خوف من صحيفة جديـدة متحررة نـاشطـة تكسب كل يوم مزيـداً من القراء ... وأكـد أن (الأنبـاء) سـوف تشق طريقهـا رغم تثبيـط المثبطين ، وحقـد الحاقدين ، وروح الشر الكامنة في بعض الأنفس ، وأنها لامحالة منتصرة ولو بعد حين ؟

مجتمع غير متآلف :

وفي الحق أن المجتمع الصحفي في ذلك الحين خاصـة ، لم يكن مجتمعـاً متـآلفـاً متعـاونـا يسنـد بعضـه بعضـاً ، وإن نفراً من أصحـاب الصحف الـذين اعتقـدوا أنهم قـد وصلوا .. لم يكونوا يحبون الخير لـزمـلائهم .. أمـا لأنهم أصبحـوا يشعرون بشعـور الآلهـة فـلا يطيقـون التعدد والمنافسة ، وأما لأنهم يكرهون الأقلام الجديدة التي ربما خدمت أرباباً غير أربـابهم ، ونزعت من رؤوس صحفهم تلك الهالة من القداسة التي يدعونها .

صحيفة من تراب تتمرد :

وكما يقول المثل السـوداني (ابن آدم أكلـه يـابس مـا تبلـه) فـإن صحيفـة أسبـوعيـة

صاحبها ليس من نسل الآلهة بل من الطينة التي خلقنا منها نحن الكادحين في عالم النكد والصحافة لم يكد توزيعها يرتفع حتى اعتراه الدوار الذي اعترى زملاء له من قبل فقد نمى إلى علمنا أن أسم (أنباء السودان) حذف من مقال صاحب الصحيفة المحترم إذ حسب في ذكر أسم (الأنباء) دعاية لها .. وماذا في الدعاية للأنباء لو صح ما توقع ؟ ولكن ماذا نقول في خبث الطوايا وفي النفوس التي شوهتها العقد والالتواءات ؟

ألفى أيده القلم :

وكانت الحكومة واقعة تحت سيطرة أصحاب الصحف الكبيرة في تلك الآونة ... فلما أصدرت تعديلاً لقانون الصحافة .. ومنحت الصحف بعض الامتيازات في السفر والمحادثات التليفونية جعلت هذه الامتيازات تكاد تكون وقفاً على الصحف الكبيرة الغنية المركزة التي شبعت وارتوت لأن أصحابها هم الذين استشيروا (وألفى أيده القلم ما يكتب نفسه شقى) .

وقد اشترط القانون ألا تنال الصحيفة هذه الامتيازات إلا إذا تجاوزت من عمرها عامين ؟ وصدرت طوال هذه المدة بانتظام ؟؟

وتدارسنا أنا وطه محمد طه سكرتير التحرير الموقف بعد صدور القانون ، واتفقنا على أنه لم يأت بفائدة (للأنباء) .. وشعرت بمرارة وخيبة أمل ..

ذلك أن الصحيفة لو قيض لها أن تصمد وتصدر بانتظام مدى عامين كاملين ، فإنها تكون في واقعها قد خرجت من طور الاحتياج والتشجيع .

وإن الصحف الناشئة أو المتعثرة التي كان ينبغي أن توجه إليها العناية أهملت تماماً في تلك الامتيازات .. لقد قال المسيح : من عنده يعطى ويزاد ومن ليس عنده يؤخذ منه .

وليس هذا فحسب بل أن الأمتيازات التي أغدقت على الصحف اليومية .. لم يمنح منها للصحف الأسبوعية إلا فتات الموائد .. مع أن النفقات الأساسية في الصحف اليومية والأسبوعية تكاد تتساوى عادة .. كايجار المحلات والمكالمات التليفونية والموظفين المركزيين - محاسب - سكرتير تحرير ، مصحح ... الخ ..

العدالة :

ولسوء الحظ ان المجتمع الصحفي الذي يقضي واجبه صيانة روح العدالة ومراقبة توزيعها على الناس . والعمل على ترسيخ قواعدها كان يفتقد هذه العدالة (في أبسط مظاهرها) بين أفراده .

وثمة مبدأ قانوني يقول :

(فاقد الشيء لا يعطيه)

في جريدة الاستقلال

كان محمد أحمد السلمابي يصل الجريدة في الساعة السابعة صباحاً .. وكان يبدأ العمل بمعركة مع عمال المطبعة المتأخرين أو العمال الذين لم يؤدوا واجباتهم في اليوم السابق .. وكان عنيفاً لا يرحم .. ويدخل مكتبنا المشترك وهو يصيح :

(ياجماعة أنا عندي سكري ... والزعل يمرضني ... أنتو عايزين تموتوني) وابذل جهداً جباراً حتى اهدئ من ثائرة سلمابي لكيلا يموت .. أعني لكيلا يمرض .. أعني لكي يجلس على الكرسي ويكتب .. ويقول بسم الله الرحمن الرحيم وتمر هذه الأزمة بسلام ولا تخلف وراءها عادة إلا شتائم مهموسة يقولها العمال ويقولها بعض الموظفين .. وكانت هذه المعركة تزاول يومياً وكنا ننتظرها باعتبارها ظاهرة لابد من حدوثها كما تشرق الشمس أو تغيب ومن عادة سلمابي أن يقف على كل شيء بنفسه فلا (ينزل) مقال ، دون أن يراه .. أما الأخبار فقد ترك لسكرتير التحرير الخارجي منها .. أو الداخلي غير ذي الأهمية .. ورغم أنه كان مشغولاً في « دار الإعلان » التي كان قد أنشأها يوم ذاك إلا أنه كان حريصاً على مسؤولياته في الجريدة حرصاً مثالياً .

ورغم اشرافه على تحرير جريدة حزبية ، إلا أنه لم يكن مع الحزب ، لا بقلبه ولا بلسانه .. ولا بقلمه ...

وكثيراً ما صرفنا بعض الوقت في القطيعة وفي التعيينات التي لا تفضي بها مصلحة العمل وهؤلاء الذين كانت لديهم حصانة ضد الفصل .. فلا يكاد الموظف المسؤول يطردهم ، حتى يعودون في نفس اليوم يحملون خطاباً بتعيينهم من جديد .. وفي أمر المراسلة الصغير المدلل وفي الأشخاص الكبار وتصرفاتهم أو بالأصح هفواتهم التي لا يستطاع ابتلاعها إلا في عسر شديد .

وكان الجسر الذي يربط سلمابي بالحزب هو العلاقة القائمة بينه وبين رئيسه السيد ميرغني حمزة .. وهي العلاقة التي نمت وتطورت منذ أن كان سلمابي رئيساً لتحرير صوت السودان .

اليمين واليسار وصحيفة مصورة

•

ماهو السر ؟؟؟

إن سر قوتي أحياناً أن عزمي يتجدد وإني سرعان ما أنفض عن نفسي عوامل الضعف وألوذ بطبيعتي المرحة وأنطلق على سجيتي متفائلاً ضحوكاً .

زميل قديم :

وأذكر أنني قابلت بعد احتجاب أنباء السودان ببضعة أسابيع زميلاً قديماً هو (كمال م . ب .) وكانت عليه مظاهر عزيز قوم ذل إذ أن البنطلون الذي كان يرتديه ليس في حجمه تماماً وقد بدا عليه الهزال كأنه خرج من مجاعة .

وسألته عن حاله فقال لي أنه قدم من الهند وأنه بسبيل البحث عن عمل .

وجرنا الحديث إلى جريدة أنباء السودان وكيف لاحقها الفشل في مرحلة تهيأت فيها كل سبل النجاح .

فقال لي بالانجليزية: [There is some thing Wrong]

أي أن هناك خطأ ما .

اليمين واليسار

وناقشني في مبادئي وذهب إلى أنني يميني في شعب يذهب نحو اليسار ... وخالفته الرأي وقلت أن الشعب يميني مائة في المائة ولكن طريقة عرض الأمور عليه تدفعه أحياناً على الضيق (باليمين) .

إذ يبدو له أن (اليمين) أصبح خضوعاً وذلة واستعماراً وذيلية للغرب وليست هذه هي الحقيقة إذ أن الإسلام وهو دعوة يمينية متطرفة استطاع أن يجعل من معتنقيه قوة

مسيطرة تقهر الشعوب وتتحكم في رقابها وتدمغها بطابعه ، وبدلاً من أن نحلل أنـا و (ك) الموقف تحليلاً موضوعياً جرفتنا الخلافات المذهبية والعاطفية وافترقنا على غير وفاق .

حلم قديم :

وقمت بجولـة إقليميـة عـدت منهـا بمبلـغ من المـال وراودني حلم قـديم وهـو أن أصـدر صحيفـة أسبوعيـة لهـا مزايـا الصحف المستوردة ذلـك أننـا نحن الصحفيين السودانيين كثيراً ما شعرنا بكبريـائنـا تجرح في عمق ، حين نرى مـا وفقت إليـه تلـك الصحف من طبـاعـة جميلـة وتحرير راق وحين نراهـا تستـأثر بـالقراء السودانيين بل وتفرض عليهم عن طريـق التكرار والإيحاء آراء غربية لا تتصل بمصالحهم ولا بواقعهم ولا بمثلهم ولا بعقائدهم .

عدد الخارجية :

واقترح علي منصور أحمد الشيخ رئيس قسم الصحـافـة بوزارة الخـارجيـة أن أستـأنف إصـدار الجريـدة بعـدد خـاص عن وزارة الخـارجيـة فهي حـديثـة التكـوين وتحتـاج إلى تعريف .

وتحدثت إلى السيـد محمـد عثمان يـاسين الوكيل الـدائم للخـارجيـة في الأمر فوافق على معاونتي في تحريرها ، ولكنـه رفض المعـاونـة المـاديـة وبعـد لأي قبل أن يشتري كميـة من النسخ توزع على ممثلي السودان في الخارج وغامرت وأصدرت العدد الخاص وكان جملة المبلغ الذي استلمتـه من وزارة الخـارجيـة أقل من القيمـة التي دفعتهـا عن أكليشيهـات صور هـذه الوزارة .

ومع ذلك فإن جريدة الأيـام أثـارت أزمـة كما كتبت صحيفـة أسبوعيـة تمس الوكيل الدائم للخارجية مساً غير رقيق .

وذكرتني الأزمة التي أثارتها الأيام من أجل شراء ألف نسخة من العدد الخـاص بوزارة الخارجية بالعون الذي قدم لصحيفة تصدر بالإنجليزية عن عـدد خـاص أصـدرتـه من أجل وفد سافر إلى الخارج ، وألف جنيه عداً نقـداً قبضهـا رئيس تحرير جريـدة يوميـة مكافـأة لقيامه بأداء واجب وطني ... إن بعض الناس يرون القشة في عينـك ولا يرون الخشبـة في أعينهم .

من هو المسؤول ؟

أصدرت أول عدد من جريدة أنباء السودان في ٥ أغسطس ١٩٥٦ وكانت يومية مسائية تطبع في مطابع شركة الطبع والنشر وقد اشترك معي في التحرير نفر كريم من كبار محرري الصف الأول أذكر منهم عوض عبد الرازق وطه محمد طه وشيبون ويحي مصطفى والأخير كاتب مصري كبير ... وخصصت لقسم الأخبار طائفة من الشبان الخفيفي الحركة هم التوم البدوي المبارك وشعبان والجعلي والطاهر حميدة .

(وقد تولى أبو صلاح تحرير صفحة الجريمة) وملأت الإدارة بالموظفين .

إقبال

وقد وجدت الجريدة في البداية إقبالاً منقطع النظير كانت تتخطف من باب المطبعة ... وكثيراً ما حدثت مشاجرات بين الباعة في أيهم يظفر بنصيبه أولاً ثم بين الباعة وخفير المطبعة لتزاحمهم على الباب وسدهم الطريق وإزعاجهم السيد المدير .

وزاد تفاؤلي ...

زين العابدين

وكان السيد زين العابدين حسين شريف مدير المطبعة أبعد ما يكون صلاحية لهذا المنصب ، ما من شك في أنه رجل حلو الشمائل لطيف المعشر حسن الخلق ، وما من شك في أنه رجل مثقف قد تلقى العلوم والمعارف في إحدى جامعات لندن ، ولكنه لم يكن بالآمر المطاع بين العمال فيحسن تنظيم العمل وتوقيته وتنفيذه لقد بدأت الجريدة نصف نهارية تصدر في الساعة الثانية عشر ظهراً ثم أصبحت تصدر في الواحدة فالثانية فالثالثة ثم تدرجت حتى صدرت ذات يوم في التاسعة مساء فلما أرسلناها لأصحاب الأكشاك وجدناهم يغلقون أكشاكهم ... وربما ذكر السيد زين العابدين في معرض دفاع أن السبب الرئيسي

في التأخير كان عدم الانتظام في الدفع . وهي حجة لا تقنع أحداً لأن (التـأخير) مـا كان ليحل الإشكال بل يزيـده تعقيـداً ، لقـد كان الإجراء الصحيـح إذا كان عـدم الانتظـام في الـدفع هو السبب أن يوقف طبع الجريـدة ... بـل كان في تركي (أنـا) للجريـدة تستمر في الصدور في مواعيد متأخرة وغير منتظمة عمل غير سديد ، فقد كان الأحرى أن أوقفها حتى أستطيع الاتفاق مع مطبعة أخرى أو نحزم أمرنـا في مطبعـة الطبع والنشر ونعمل بـأسلوب جديد ، غير أنني ... لم أفعل !!

فمن عيوبي أحياناً عدم الاعتراف بالواقع والسير إلى المصير الذي تدفعني إليه الظروف معصوب العينين .

فشل

لقد فشلت الجريدة في هذه المرحلـة بسبب المطبعـة ولعلـه لولا ذلـك لكان لهـا الآن شأن آخر في عالم الصحافة .

عوض عبد الرازق

لقد ساء حال الجريدة منذ شهرها الأول فبالرغم من أن مرتبـات محرريهـا وموظفيهـا فقط قد بلغت الأربعمائـة جنيـه شهريـاً فـإن دخلهـا من التوزيع والإعلانـات لم يصل إلى نصف هـذا القـدر هـذا فضلاً عن أجور الطبع وثمن الورق وغير ذلـك من النفقـات الكثيرة المتعددة الأبواب والنوافـذ وكان عوض عبـد الرازق معتـاداً على العمل الحكومي حيث كان يتناول مرتبه في نهـايـة كل شهر فيفي بـالتزامـاتـه في السكنى والمـأكل والمشرب ... إلخ ... وجاء نهاية الشهر فلم ندفع كما لم نـدفع في أول يوم من الشهر الجـديـد وفي المسـاء رن جرس التليفون فإذا المتكلم عوض ولم يكن قد لقيني في المكتب طيلة اليومين المـاضيين وانهـال على بقوارص الكلم لم يدع الماضي ولا الحاضر وكان لسانه والحق يقال أحـد من المشـارط ، وختم الحملة العنيفة الثائرة المروعة بأن أمرني بانتظاره حتى يجيء فيضربني وانتظرت فلم يجيء ولم يكن انتظاري بطبيعة الحال ، لأنني أردت أن يقع بيني وبين عوض اصطدام من نوع مـا ، ولكنني فضلت أن ألتقي به لأشرح له بعض الحقائق فعوض قبل كل شيء صديق .

وقد بلغ استيائي من نفسي ذروته فما كان أغناني عن هذا الموقف ، لماذا ارتبطت بكل هذا العدد من الموظفين بغير دراسة كافية للدخل المضمون ؟

ولماذا أحسن الظن دائماً بمستقبل يأبى إلا أن يكون مظلماً ؟ ولماذا أحرص على مهنة لم تحرص عليّ ؟ وخرجت مع الطاهر حميدة وهو فتى متفائل لا تكاد الابتسامة تفارق شفتيه وسرت من مكتبي في عمارة السواحلي بالسوق العربي حتى وصلت إلى سراي المهدي حيث ودعت الطاهر وركبت طراحة للخرطوم بحري وأنا مثقل النفس بالهموم .

الاعتراف بالفشل :

كان ينبغي أن أعترف بالفشل وأوقف جريدة أنباء السودان في أكتوبر من عام ١٩٥٦ بعد صدورها بثلاثة أشهر ذلك أن حقائق ثلاثا كانت تدفع إلى هذا الإيقاف .

الأولى : أن مطبعة الطبع والنشر لم تكن قادرة على إصدار الجريدة في المستوى المطلوب والمواعيد المقررة .

الثانية : أن مطبعة أخرى لم تكن في المتناول للتحول إليها لمواصلة الصدور على الوجه الذي نريده .

الثالثة : أن كل يوم جديد كان يزيد من تراكم الديون واضطراب الأحوال .

غير أن الاعتراف بالفشل ليس هو كل المشكلة ذلك أن ثمة سؤالا خطيرا كان يطن في أذني ويخلق في حياتي جوا من القلق والقتام .. وهو : ماذا بعد إيقاف أنباء السودان ثمة مصير مجهول يخشى المرء حتى من التفكير فيه .. كنت في الماضي والشباب فوار والطموح يملأ النفس ويبعث فيها الثقة ، أطمئن للمستقبل وأحسبه طوع البنان وأكاد أحتقر الحاضر وأستهين به أما الآن وقد وهن العظم وطال الطريق ولم تبق في العمر سعة وكثرت الأعباء والمسؤوليات فالأمر يختلف لم أعد شجاعا إزاء الغد ، فما في يدي أحاول في يأس وحرص وعناء التمسك به حتى لا يفلت .

تضحيات :

لقد ضحيت ببعض المقتنيات الشخصية الثمينة ذات الطابع العاطفي لكي أجد شيئا من المال أؤجل به القدر لفترة ما .

وكان عدد المحررين قد تقلص فلم يعد معي غير طه محمد طه وشيبون وبابكر محمد عبد الباقي وعلي الخليفة وشعبان وإسماعيل محمد أحمد والطاهر حميده والفيل .

فرنسيون :

وخلال الاعتداء الثلاثي على قنال السويس ذكر لي إسماعيل محمد أحمد أن أحد موظفي (الأيام) اتصل بالجريدة وقال : إن بعض الفرنسيين مروا بهم وسألوا عن صحيفة يتعاونون معها ولم أسمع بعد ذلك شيئا عن هذا الموضوع ولكنني تعجبت هل كان يمكن لامرئ في ذلك الحين مهما كان الظرف الذي يجد نفسه فيه أن يدافع عن ذلك الاعتداء ولماذا ! لكي يستفيد مالا ؟ هل المال يبلغ أحيانا هذا القدر الكبير من الاعتبار ؟ لقد كنت أود أن ألقن بعضهم درسا لن ينساه ، ولكنهم على ما يبدو جبنوا عن مواجهتي .

إننا في نضالنا السياسي عندما كنا نهاجم مصر ، لم نكن نكرهها ولكننا كنا نحب السودان أكثر ، ومهما يبلغ ما بين الشقيقتين من خلاف فإنها إبان المحنة يد واحدة .

وجه جديد

وتركنا مطبعة الطبع والنشر عن تراضٍ واتفقت مع أبو زيد خليفة صاحب مطبعة التمدن على أن يصف لي أربع صفحات من حجم الأخبار (أنترتايب) وأن نحاسب بالأسطر وأن يتم الدفع في نهاية كل يوم .

واتفقت مع المطبعة الوطنية على أن يتم التوضيب فيها بواسطة عمال تابعين للجريدة وأن نستفيد من ماكينتها في الطبع لأن ماكينات التمدن مشغولة لقاء أجر معين يدفع يوميا مقدما وهي عملية معقدة ومرهقة .

الدعاية :

وخفضنا سعر الجريدة إلى خمس مليمات ولم يحس القارئ بهذا التخفيض لأننا لم نستطع الإعلان عنه ولأن متعهدي بيع الصحف لا يعنون عادة إلا بالصحف الكبيرة التي تدر أرباحا مجزية فكلما احتاجت الصحف إلى هذه العناية كلما قلت هذه العناية بها عمليا والعكس صحيح .

وصبرت وصابرت ومضيت أكافح في بسالة إنه نضال من أجل الرزق والكرامة والمصير كنا نواصل النهار كله وجزءا كبيرا من الليل ولم يكن الجزاء يتكافأ مع ما كنا نبذله من عناء وحرق أعصاب .

انتقام :

وفي صبيحة أحد الأيام قدم علي الخليفة من منزله وهو مكفهر الوجه ظاهر العبوس وطالب بمبلغ من المال فلما لم يجده ، ولم أكن أملك كل أسلحة اللطف واللباقة لتفويته ثار وهدد واشتد بيننا الجدل وخرج من عندي وهو يصيح سأنتقم ولو حتى بيدي وقلت له افعل ما بدا لك ... وذهب غير طويل وعاد وقد انفرج وجهه عن ابتسامة ماكرة وقال : إنني أخذت من المطبعة كل الاكلشيهات وأخفيتها ... ونظرت في وجوه الحاضرين من المحررين والموظفين وبعض العمال فإذا فيها معنى التمرد والمشاركة وهذا يفسر لماذا لم يحاول أحد من العمال منع علي من أخذ الاكلشيهات ... بل لعل الفكرة فكرة العمال لأنهم كفنيين يعلمون أن الجريدة بغير هذه الاكلشيهات لن تصدر .

انهيار :

ومضيت إلى البوليس فقيدت بلاغا ضد علي الخليفة وفيما أنا عائد قابلني شعبان وكان ظاهر الرثاء لي ، وأكد لي أن الجميع قد أضربوا وأنهم لن يعاودوا العمل بغير نقود .... وهنا فقط انهارت مقاومتي وتبخر كل أثر من حماستي وشعرت بإرهاق لم أشعر به قط في حياتي وكان كل همي أن أتوارى عن المجتمع كله الذي طردني بغير رحمة .... وانصرفت إلى داري في الخرطوم بحري بعد أن استدنت سبع جنيهات من مدير مكتب المعروضات المصرية ، وقضيت أسبوعا لا أخرج إلا إلى السينما مساء ...

وتوقفت الجريدة بعد أن عاشت كجريدة يومية ستة أشهر كاملة خضنا فيها العديد من المعارك كانت أعتاها معركتنا نحن مع أنفسنا ومع المجتمع أعني معركة المصير .

الانتاج المحلي في صناعة الفكر

ظهرت أنباء السودان في مايو من عام ١٩٥٧ بعد أن احتجبت عن قرائها ثلاثة أشهر صحيفة أسبوعية مصورة وقد طبعت طباعة فاخرة في مطبعة مصر ، وكان عدد قرائها كبيرا غير أن الصعوبة التي واجهتنا منذ الوهلة الأولى هي أولا ارتفاع أسعار صنع الأكلشيهات بدرجة غير محتملة ولا معقولة وحسبي أن أذكر أن قيمة صنع أكلشيهات عدد واحد ـ وهو العدد الخاص الذي أصدرته عن وزارة الخارجية دعاية لها بمناسبة قيامها ـ تجاوزت المائة جنيه .

ثانيا : عدم وجود مصور يتتبع الأحداث ويلتقط الصور المناسبة التي تثير تطلع القراء وكان كل ما أحصل عليه من الإعلانات ـ وقد جاهدت جهادا شديدا في سبيل الظفر بأكبر قدر منها ـ ومن البيع ومن كل وجه آخر يذهب إلى هذه البئر التي لا قاع لها ، فيختفي دون أن يكون له كبير أثر .

كنا نحتاج للمال باستمرار : ولم يكن القارئ السوداني يحس بما نتكلفه من نفقات باهظة ـ لكن نخرق العادية في العمل الصحفي ، ونأتي بالجديد المبتكر .

إن ميزان تقديره قد اختل بهذه الصحف المستوردة الفاخرة الرخيصة نسبيا .

والقارئ السوداني ربما لا يفطن إلى أن الصحيفة السودانية تبيع بضعة آلاف قليلة ـ في حين أن الصحف المستوردة تبيع مئات الألوف .

وأن الصحيفة السودانية تشتري ورقها أسبوعيا ـ في الأغلب ـ أو شهريا على أحسن تقدير من الوكيل المحلي ، نظرا لوضعها المادي المتعسر ـ في حين أن الصحف المستوردة تستند إلى رأس مال ضخم يمكنها من استيراد الورق من الخارج لأمد كبيرة فتوفر فرق سعر الجملة وفرق سعر الوسيط .

وإن الصحيفة السودانية تعتمد على الماكينات البطيئة القديمة الطراز ، وقد تطبع في غير مطبعة خاصة وبأجور عالية لا تطاق ... والصحف المستوردة تعتمد على الماكينات الخاصة السريعة الجديدة الطراز . والأخيرة أرخص إنتاجا بطبيعة الحال .

وإن الصحيفة السودانية ليس لديها الكفاية من الموارد الإعلانية وغيره مما يتوفر للصحف المستوردة .

يضاف إلى ذلك أن أجور الإعلانات التي تعطى للصحيفة السودانية يعطى أضعافها للصحف المستوردة وأن الحكومات توفر للصحف المستوردة العون المالي وتعينها في النقل ، والاتصالات التليفونية والبرقية الخ ... في حين أن الصحيفة السودانية لا تجد من ذلك إلا اليسير النذر وبثمن قل من يقبل بدفعه .

ولذلك كله صح أن تربح الصحف المستوردة ، وتخفض من سعرها ، وتنفق على خدماتها التحريرية والخبرية والتصويرية وترفع من مستواها الطباعي ، في حين أن الصحيفة السودانية تبلغ أقصى غايات الأمل ، إذا وفقت إلى الانتظام في الصدور والوفاء بالتزاماتها في أضيق الحدود ، ومعاونة العاملين فيها على العيش فيما دون الكفاف ... وأن يكون مخاض كل عدد عسيرا .

ولذلك صح أيضا أن تصدر جريدة أنباء السودان في طباعتها الفاخرة نسبيا وصورها الجميلة ، وخطوطها الرائعة ، وتوزع في السوق في نفس الوقت الذي يستصدر فيه السيد عثمان المشلي وكيل عمارة غطاس أمرا من القاضي بإخلاء مكاتب الجريدة وأن أحضر فأجد العاملين فيها يقفون في عرض الطريق وأثاث المكاتب والمرتجعات والدفاتر مبعثرة هنا وهناك وقد سادهم وجوم اليم وخجل واضطراب .

وبسمة ساذجة معبرة قدرية ترضى بهذا المصير ترتسم في فم السر محمد أحمد الذي كان يتولى في الصحيفة عدة وظائف في وقت واحد . كانت كافية لكي تصور لي الموقف بكل أبعاده ... دون أن أحتاج إلى مزيد من التفصيلات .... وكان مثيرا حقا أن نصدر عددا كاملا بعد ذلك .. عددا فاخر الطباعة ونحن لا نجد مأوى .

لقد حررناه من الشارع ... لقد كان كل همنا .. كل لذتنا ، كل مشاعرنا ، منصبة

في اتجاه واحد ، وهو أن نواصل التهافت على هذه النار ... لا نبالي بما يصيب ذواتنا مادمنا نرضي هواياتنا .

إن الولع بالعمل الصحفي يصبح عند بعض الناس أحيانا ضربا من الجنون .... بل هو أفدح ضروبه وأعصاها على العلاج .

وكتبت يوم ذاك إلى جهة مختصة أطالب باعتباري ممثلا لمهنة تريد أن تنتعش وينتعش من ورائها الكثير من المواطنين .. أطالب بالحماية من المنافسة الأجنبية التي تتمثل في صحف معينة مستوردة ملأت علينا الآفاق وجعلت الصحفي السوداني غريبا في بلاده ..... ووصفت هذه الصحف بأنها تمثل غزوا فكريا خطيرا .

وزعمت فيما كتبت بأن هذه الصحف المستوردة غير مأمونة وإنها تحمل السم في الدسم .

وركزت على أنه من الأحوط دائما فيما يتصل بصناعة الفكر أن نعتمد على الإنتاج المحلي فهو على مقياسنا .

استقالة السلمابي

كنت في عام ١٩٥٤ ضمن خطباء المعارضة في الليالي السياسية ... وكنت أمثل الحزب الوطني الهندي (حزب الشريف) .. ويبدو أن الهجوم العنيف الذي شننته يوم ذاك أعجب القائمين بأمر جريدة الاستقلال وهي إحدى ألسنة المعارضة الناطقة باسم حزب الاستقلال فاتصل بي الأستاذ محمد أحمد السلمابي رئيس التحرير وطلب إليّ العمل في الجريدة وكنت في ذلك الوقت شبه متعطل ... فقد صدر أمر إداري بسحب رخصة جريدة التلغراف التي كنت أعمل بها ... ورغم أن مرتباتنا ظلت تدفع بانتظام من (الجهة المعيّنة) إلا أننا لم نكن مقيدين بمواعيد في الحضور إلى المكتب أو الخروج منه ما عدا إشباع غريزة الغرور المأثورة عن الزميل صالح عرابي صاحبها .

ولم يكن إشباعها يكلفنا الكثير من الوقت ...

رضاء

وقد وافقت على العمل في الاستقلال ورضيت عن سلوك السلمابي معي فقد كان مهذبا وكان كما عهدته صحفيا بمعنى الكلمة .. همه أن يخرج جريدة يقبل عليها القارئ بما يوفر لها من زاد الرأي الصريح والخبر الصحيح والتعليق النزيه ...

وبعثني هذا السلوك على النشاط فكتبت كلمة (عنيت بها عناية خاصة) عن التقاء السيدين الميرغني والمهدي .. كما كتبت عن بعض الموضوعات الأخرى التي كانت تشغل الأذهان في ذلك الحين ... وجهدت في تلمس المظان المختلفة حيث أعددت طائفة من الأخبار الهامة وقد صغتها صياغة مختارة ... وحرصت على الإشارة إلى الابناط التي تصف بها ، وإلى وضعها في برواز أو دون برواز أو على عمود .. أو اثنين ، أو ثلاثة ... حسب ما رأيت من قيمة الخبر .

تنازع البقاء :

ولاحظت عند صدور العدد أن أخباري نشرت .. أما المقال فلم يحظ بالنشر ..... وحدث في العدد الذي يليه ما حدث في العدد السابق فقد نشرت الأخبار ، أما المقالات فلم تنشر .. وفيما كنت أبحث بعد أيام في أحد الأدراج عن ورق يصلح للكتابة - إذا بي أجد مقالاتي ملقاة داخل الدرج - وقد تمزق جانب من الورق الذي كتبت عليه ، واسودت أطرافه مما يدل على تنقله بين عدة أيد ..

وعرفت في الحال الحقيقة بعد أن رتبت تصرفات متفرقة إلى جانب بعضها البعض لقد كان زين العابدين أبو حاج وهو شاب طموح وشغوف بأن يصبح صحفيا كبيرا ووريثا للسلمابي في الجريدة - لا يريد أقلاما تقف إلى جانب قلمه ... وتزاحمه ...

وقد شعرت عند توصلي إلى هذه النتيجة بهوان شديد ... ورأيت أن أكف عن كتابة المقالات واكتفى بالأخبار !

أولا : لأنني أكره معارك تنازع البقاء ، فهي تحيل البشر إلى حيوانات وتفقدهم إنسانيتهم وكراماتهم وقيمهم الخلقية ...

وقد عانيت من هذا التنازع في حياتي الصحفية كثيرا وسئمته ومججته ..

ثانيا : ليس هناك تكافؤ في المنافسة فإن زين العابدين أبو حاج مع احترامي لشخصه غير كاتب ولا مفكر ولا صحفي .

والسبب في ذلك أنه لم يبدأ من البداية كما ألححت عليه أن يفعل - عندما عمل معي في جريدة السوداني - (إذا أراد أن يكون صحفيا وهو المنفذ الوحيد أمامه) ... لقد كان الواجب يقتضيه أن يقرأ حتى يحصل على زاد من الألفاظ والمعاني .. وأن يتعرف على مصادر الأخبار ويتدرب على كيفية استلالها من هذه المصادر ... أما محاولة الوثوب إلى مركز الصدارة في الجريدة بكتابة مقالات مهزوزة هزيلة غير مستكملة العناصر ... والاستعانة بالوساطات و (الدافوري) فأمر مضحك وثقيل ... وإذا نجحت هذه المحاولة في حالة .... فإنها فاشلة لا محالة في كل الحالات بعد ذلك ... وقد وقع هذا فعلا .

الانتهاء إلى البداية :

وسرني أن جريدة الرأي العام أجبرته على الرجوع لنصيحتي بعد ثماني سنوات إذ أرسلته للمحاكم ليسجل أخبارها ، ثم مكنته من وضع ريبورتاجات عن بعض الموضوعات التي تهم الجماهير ... أي أنه انتهى إلى البداية ..

ولم أخطر السلمابي ـ في ذاك الوقت ـ بما وقع فأنا أكره الشكوى وممن ؟ إنه أحد أبنائي .. كما أن الموضوع من الحقارة بحيث كبر علي أن أتعرض له حتى في حديث خاص ....

شخصيات

وعرض علي السلمابي ذات يوم أن أكتب عن الشخصيات البارزة ففعلت ولكنني كنت أسلمها للسلمابي يدا بيد .... وكانت تنشر يوميا .... ولقد لفتت الأنظار ....

ووصفني الأستاذ إسماعيل العتباني بأنني محرر الشخصيات في جريدة الاستقلال ... وكتبت في أحد الأعداد عن يحي الفضلي وهو من أعضاء الحكومة وقلت عنه أنه قوي .. وأنه استطاع أن يهزم منافسيه ويحطمهم كما يحطم المارد أعشابا جافة بأقدامه الغلاظ ولم أكن قد نظرت إلى الموضوع من الناحية الحزبية ... ولم ينظر إليه السلمابي من هذه الناحية كذلك ـ عندما أجازه ـ إذ كان قصارانا أن نقدم مادة صحفية يتناولها القارئ بشغف لما فيها من تنويع وتجديد وإثارة .

وفي المساء ذهبت إلى مكتب المرحوم السيد صالح حسين بيومي أمين الصندوق لعلي أحظى بسلفية وكنا نتردد عليه دائما في مثل هذا الوقت حتى إذا أنسنا منه ارتياحا وهشاشة طالبناه فدفع ... أما إذا رأيناه ثائرا لسبب من الأسباب ـ وكثيرا ما يثور ـ تسللنا منصرفين انتظارا لفرصة أنسب ، وعندما وصلت إلى المكتب وجدت أمامه السيد ميرغني حمزة فلما رآني نهض وعبس وبسر ... ثم صاح بي في عنف لم أعهده فيه من قبل وقد تجمد وجهه ، وبرزت عروقه ، وبدا أشبه بآلهة النقمة : أفي الجريدة التي أصدرناها بدماء قلوبنا تمدح (يحي الفضلي) الرجل الذي لم تظهر الجريدة إلا لمحاربته ؟؟ (والله هممت أن أذهب وأجمع على الأعداد التي صدرت وأحرقها بالنار) .

ونفحني في نهاية الكلام ـ بعبارات جارحة .. ولم يتح لي فرصة للرد .. فقد كان أشبه بالمدفع الرشاش .. لم يتوقف حتى أفرغ كل ما في صدره .... ثم لوح بكلتا يديه .... وقفز إلى السيارة التي كانت في انتظاره وانصرف .

وقد وعد في نهاية (طلقاته) بأنه سوف يكون له موقف مع السلمابي .

استقالة

ويبدو أن هذا الموقف كان صاخبا .. إذ علمت من السلمابي في الصباح أنه قدم استقالته من الجريدة ... مضحيا بمرتبه الشهري البالغ المائة من الجنيهات .

وفاتحته في أن أستقيل فألح علي في ألا أفعل لأنني رجل (محمول) ولم أكن حريصا ـ حقا ـ على الاستقالة إذ أنني لم أكن أستطيع الاستغناء عن مرتبي ... يضاف إلى ذلك أنني لم أتعود من نفسي اتخاذ القرارات السريعة تحت وحي العواطف الطارئة ...

غير أن خروج السلمابي من الجريدة جعلني أشعر بأن أمر الاستغناء عني أصبح مفروغا منه وأن تنفيذه أصبح وشيكا .

فالمسألة لا تعدو أن تكون مسألة توقيت .... وقد خرجت فعلا بعد شهر من جريدة الاستقلال عقب تولي الدكتور محي الدين صابر مهام رئاسة التحرير خلفا للسلمابي .

السلمابي

لبى نداء ربه أمس الأول في القاهرة المرحوم محمد أحمد السلمابي أحد رفاق المسيرة الصحفية منذ ما يقرب من ثلاثين عاما .

والأسف لفقد السلمابي أسف شامل فقد كان رجلا متعدد الجوانب خصب الإنتاج عمل بقوة وصلابة وتركيز في مهنة الصحافة وفي ميدان الكلمة ، وفي النشاط الوطني ، وفي دنيا الأعمال ، وفي عالم البر والإحسان .. وتفوق في كل هذه الحقول . وقدم خدمات جلى وأحدث انطباعا عظيما ..

بدأ السلمابي الكتابة إلى الصحف في عام ١٩٤٥ حينما نشرت له مجلة آخر ساعة المصرية قطعة تتضمن مغامرة خليط من الجنود المرابطين في القضارف ، وكانت في أسلوبها وتناولها ومعالجتها لقضية محلية هادفة ، فتحا في مجال النشاط الصحفي السوداني لفت إليه الأنظار ..

وكانت فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية حيث اشتعلت الحركة الوطنية وتكونت الأحزاب وتعددت الصحف ، من الفترات التي ازدادت فيها الحاجة إلى الأقلام الواعدة ..

ولم يلبث السلمابي أن تلقى عروضا للعمل من بينها عرض من جريدة الأمة والآخر من جريدة الرأي العام ، وقد آثر الأخيرة لحيدتها وانتشارها ..

وقد ظل حريصا على السير في منهاج أسرة الرأي ، فلا قلمه يجمح ولا أسلوبه يشتط ولا مقاله يطول ..

وترك جريدة الرأي ليرأس تحرير جريدة صوت السودان فطبع الصوت الملتهبة بطابعه المزدوج .. الهادي الرصين حينا ، القوي العنيف حينا آخر ، الموضوعي دائما ..

واصطدم بالمرحوم الصاغ صلاح سالم عضو مجلس قيادة الثورة المصرية ووزير

الإرشاد وشؤون السودان ، بسبب إصرار السلمابي على خدمة السودان وحده دون شريك . فإذا به يفصل من الصوت ، ويفصل من وكالة الأنباء المصرية السودانية التي كان يشرف عليها ..

وكان السادة الدرديري محمد عثمان وميرغني حمزة والبكباشي خلف الله خالد في صفه فأعانوه على شق طريقه (ما وسعهم) في مؤسسته الإعلانية ...

ثم رأس تحرير جريدة الاستقلال التي أصدرها حزب الاستقلال بقيادة السيد ميرغني حمزة غير أنه لم يلبث أن استقال منها لخلاف نشأ بينه وبين الحزب حول مقال كتبه كاتب هذه السطور ذكر فيه أن يحي الفضلي يحطم خصومه كما يحطم المارد أعشابا جافة تعترض طريقه بأقدامه الغلاظ ..

إذ كان السلمابي يرى لكي تنتشر الجريدة أن يفسح فيها لأقلام عديدة ذات وجهات نظر مختلفة مع خدمة المجموعة التي تنتمي إليها الجريدة في حدود ..

بينما كان يرى الحزب أن الجريدة أنشئت لتحطيم يحي الفضلي وأمثاله فلا مكان فيها لتمجيده ..

وطلق السلمابي بعد ذلك الصحافة كمحرر ثابت وانصرف إلى إدارة مؤسسته الطباعية والإعلانية والتغليفية وغيرها ، مواصلا ليله بنهاره لا يهدأ ولا يني ....

وحدث شرخ في بنيانه الصلب .

فقد مات ابنه الوحيد - بين تسع بنات - وهو في الخامسة من عمره ، وكان مرشحا لخلافته في امبراطوريته الكبيرة .

لقد انتابه دون شك وهن شديد ولكنه غالبه بعزيمته القوية .

وانبثق من مصابه معين ثر من الأعمال الصالحة .

وكانت ذكرى ابنه تؤرقه .

وتزوج من جديد لعل وعسى !!

والرجل الذي تعود النجاح دائما لا يحتمل الفشل إلا ريثما يعوضه .

وكان هم أسرته من همومه الكبار .

وأذكر أنني والسيد زين العابدين حسين شريف شخصنا إلى داره في العام الماضي حين علمنا أنه أصيب بذبحة صدرية ، ولم يكن قد مَرّ على علته أكثر من أسبوع واحد ، فإذا بنا نفاجأ بأنه غادر المنزل إلى المكتب ليزاول عمله كالمعتاد !!

والأطباء ينصحون في هذه الحالات بالراحة مدى أشهر ...

وقال لنا بعض العاملين في مؤسسته الطباعية أن السلمابي لا يذعن لنصيحة في هذا الصدد ذلك أن العمل أصبح جزءا من حياته .. وأضافوا أن السلمابي طلبا للكمال تستغرقه التفاصيل إلى جانب العموميات وأنه يظل دائما مشدود الأعصاب ، لا يتسامح في أداء الواجب ، ولا يغفر زلة وقد باع ماكينة حديثة متطورة لأن العامل الفني المتخصص فيها (لم يكن ثمة غيره لإدارتها) لم يسر حسب التعليمات التي صرفت له وأصيب السلمابي بمرضه الخطير الأخير وهي جلطة في الشريان التاجي فهرع إلى لندن وعولج .. فلما عاد إلى الخرطوم مضى يمارس ما لديه من مهام في غير هوادة ..

ولم يستطع كيانه المرهف الرقيق الذي تعاورته الأمراض أن يصمد أمام عبء روحه الطموح المثابرة .. فانهار ..

رحم الله السلمابي فقد كان أمة وحده ...

١ / ١ / ١٩٧٩

صورة من الحوار بين زميلين

إثر عودتي من تركيا في يوليو ١٩٥٨ كتبت الكلمة التالية ردا على محرر جريدة كان قد تعرض للرحلة في صحيفته :

فقد (....) البقية الباقية من عقله ، فأخذ يعوي كالمسعور .

لقد زعم في جريدته أن رحلتي إلى الشرق الأوسط كانت بدعوة من حلف بغداد ، وأن أنباء السودان يمولها الأمريكان أو حلف بغداد .. وأن الأستاذ محمود محمد طه قال في حديثه الأسبوعي أن محرري الصحف السودانية جهلاء وفقراء النفوس والجيوب ..

وليس في واحد من هذه المزاعم ذرة من الصحة ... وكلها تدل على أن هذا الدعي الأثيم ... لم يعد يملك أي شعور بالمسؤولية .. وإن مكانه الصالح ليس هو عالم الصحافة بل مستشفى المجاذيب ...

الدعوة :

نعم لقد تلقيت أنا يحي محمد عبد القادر دعوة من تركيا (بعبع) روسيا والجمهورية العربية المتحدة على السواء ... ولكنها دعوة من وزارة السياحة وغرضها اجتماعي محض .. ولا أثر للسياسة فيه ... وهي على كل حال كأية دعوة من الدعوات التي قبلها (....) نفسه من روسيا والصين ومصر ... وقبلها زملاء آخرون من هذه الدول أو من غيرها .. وقد أعطيت تذكرة ذهاب وإياب من الخرطوم إلى أنقرة وبالعكس عن طريق أثينا ...

فرق :

وذكر لي بعض الأصدقاء بأن في إمكاني إذا دفعت فرقا يسيرا عند العودة أن أمر على العراق ولبنان ، والسعودية واتصلت وأنا في أنقرة بشركة الشرق الأوسط للطيران .

وأبديت رغبتي في أن أعرج على بغداد فوافقوا ، على أن أدفع فرقا مقداره ١٠٧٠ ليرة تركية أي قرابة مائة جنيه ... ولم يكن في طاقتي أن أدفع هذا المبلغ فعدلت ...

غير أن شركة الشرق الأوسط استطاعت أن تعدل خط سيري إلى بيروت بدلا من أثينا . ثم أن تعدله إلى جدة فالخرطوم بدلا من بيروت الخرطوم مباشرة لعدم توفر الأماكن في الخط الأخير .

هذه هي قصة الدعوة التي لغطت بها الصراحة وقبلها الزمان ومضتا تضغطان عليها ضغطا شديدا وتحملانها ما لا تحتمل .

جاسوسية :

بل وهذه هي قصة الدعوة التي اهتمت بها الجمهورية العربية المتحدة نفسها ، فأرسلت جواسيسها ورائي في تركيا ، وقد ضبطت سلطات الأمن في أنقرة السيد صلاح عبود الملحق السياسي بسفارة تلك الجمهورية وهو يحاول أن يلتقط من مكتب الشرق الأوسط للطيران ميعاد قيامي من أنقرة والخط الذي أنوي السير عليه في طريق العودة ، مما أخر سفري بضعة أيام .. إذ اعتقد بعض الأصدقاء الرسميين أن ثمة مؤامرة تدبر لاغتيالي ..

معذورون :

و (....) ومن لف، لفه معذورون في إعطاء هذه الرحلة العادية التي كثر أمثالها في العهد الأخير ، هذا الوزن الكبير ، لأنهم يعيشون على بقرة حلوب ولن يستطيعوا استدرار المزيد إلا إذا خلقوا جوا محموما عن تمويل أميركي أو تمويل من حلف بغداد .

كذب أن جريدتي تمولها أمريكا أو حلف بغداد واقعها وواقع صاحبها فإن الجريدة اليومية التي تصدر مرة في الأسبوع اضطرارا ، والجريدة التي تثقلها ديون المطبعة والزنكغراف والجريدة التي يعيش صاحبها في حالة من الضنك والعوز تبلغ حد المسغبة ، ولا داعي للتفاصيل فالشكوى إلى غير الله مذلة ، أقول أن جريدة هذا شأنها .. لن يقال فيها هذا البهتان العظيم .

المعروف :

والمعروف عن أمريكا ودول حلف بغداد أنها أجبن من أن تقف أمام روسيا أو الجمهورية العربية المتحدة في هذا المضمار . فهي دول قد (قتلتها) المثل العليا ، يكاد يكون بعض رجالها في الخرطوم أنصاف شيوعيين ، وليس لديهم حرارة الإيمان بالمبادئ التي تدعو إليها دولهم بل لعلهم لا يفهمونها ، دع أن يتجاوبوا معها وينفعلوا بها ويعملوا لها .

بحبحة :

على أن تمويل روسيا أو مصر لم يعد ثمة مجال للاسترابة فيه ... فالبحبحة التي يرتع فيها (....) والولائم الليلية التي تجري فيها الخمر أنهارا ، والغلمان المقبلون المدبرون وهذا الحشد الضخم من المحررين والمخبرين وأشباههم لا يمكن أن يغطي نفقاته دخل الصراحة المحدود ..

وما خفي أعظم :

إن (....) هو آخر من يحق له التحدث عن التمويل الأجنبي ... وإنني لأتحدى ... وأحذر ... وأنذر .

فإن ما لدي من المعلومات كاف لكي ينسف تلك الجريدة من الأساس . وينسف صاحبها معها غير مأسوف عليه .

كاذب :

و (....) رجل كاذب أشر حين يقول :

إن محمود محمد طه نشر في الأنباء (أن محرري الصحف السودانية جهلاء وفقراء الجيوب والنفوس) . إذ أن محمودا لم يقل إلا أن « بعض » محرري الصحف السودانية ، فقراء الجيوب والنفوس . وفرق كبير بين المعنيين و (....) هنا لم يكذب فحسب ولكنه دلس أيضا بغرض الإثارة وبعث الفتنة والاستعداء .

وشخص .. ولا أقول رجل ، ينحط إلى هذا الدرك من عدم الأمانة غير جدير حتى بصفعة النعل .

هذه هي الحقائق المجردة الصريحة .

على أنني أود في ختام هذه الكلمة أن أجهر بحقيقة أخيرة وهي أن المورد الموبوء المتعفن الذي ينهل منه (....) وأشباهه .. قد فاحت روائحه الكريهة حتى زكمت الأنوف .. ولن تجدي في إخفائه أو ستره أية محاولات انصرافية ..

طاقية :

وتلقف (....) للطاقية التي أرسلها الأستاذ محمود محمد طه وشعوره بأنها على مقاسه ، وثوراته وتشنجه .. هو وحده دلالة تضاف إلى عشرات الدلالات على الوحل الذي تردى فيه .

ولأمر ما قال المثل السوداني :

(ال في قلبه حرقص براه بيرقص)

في تركيا

الشعب التركي

تعصب وتسامح - جبروت ووداعة - تجديد ومحافظة ... قضيت في تركيا شهراً كاملاً ... (من أول مايو ١٩٥٨ إلى أول يوليو) زرت خلاله كثيراً من المدن والقرى والقضاءات والنواحي ... وكان من أهمها أنقرة - وهي العاصمة - واستنبول ... وإزمير وقونيا ، وقرق قلعة ، وصريار ، وبورصة وأضنة - وتعرفت في هذه الفترة على الكثيرين من أفراد الشعب التركي ... تعرفت على بعضهم في المقاهي المنتشرة في الأحياء الشعبية ، وتعرفت على بعضهم في الفنادق ، والمطاعم الكبرى ، وتعرفت على بعضهم في الشوارع والميادين والمنتزهات والمزارع ... وعشت مع البعض وقتاً غير يسير في داره وبين أفراد أسرته كما اتصلت بالبعض في دور الحكومة والشركات والمصانع والمعامل ...

ومن أبرز ما لفت نظري في الشعب التركي تناقضات ثلاث :

الأولى : إن هذا الشعب القوي الذي استطاع أن يخضع شطراً كبيراً من العالم لسلطانه ذات حقبة ... والذي استطاع أن يقمع دولة كبرى كروسيا فآمنت مكرهة بحقه في أن يحتفظ بالمضايق ، وأن يسيطر عليها (وهي طريق روسيا إلى المياه الدافئة والسيادة العالمية والتفوق الدولي) ... والذي يملك أشجع جيش عرفه تاريخ الحروب في الماضي والحاضر على السواء أقول ... إن هذا الشعب بكل تلك الصفات الدالة على سطوة وبطش وجبروت ... ليس في واقعه إلا شعباً طيباً ... مهذباً ذا رحمة وإيثار ... كلماته المفضلة التي لا تكاد تفارق شفتيه « تشكرات أولدم » .

(استغفر الله) - ممنون أولدم - مرحبا - وقل ألا يتبع هذه الكلمات بانحنائة لطيفة وابتسامة عريضة .

يكرم الغريب ويمنحه من فيض لسانه ويده ، ويرعاه ويحدب عليه .

وقد حدث ذا مرة أن مررت ببعض المتاجر لشراء ما أحتاجه من مطالب

صغيرة ... فلما عرف البائع أني ضيف ومسلم أبى إلا أن يكون ما اخترته من بضاعة هدية ولم يُجد إصراري حتى ولو باستلام جزء من الثمن فتيلاً .

ولم يكتف البائع بما فعل بل قدم لي بعض المرطبات ... وقد اعتدت أن أبسط يدي بما لدي من عملة تركية لباعة الصحف ليأخذوا قيمة سلعتهم ، وقد راجع بعض أصدقائي الحساب فوجدوا أنهم لم يحصلوا إلا على أدنى القيمة ، وأنهم أجروا المساومة مع أنفسهم وكانوا لها من الظالمين .

ومن المألوف أن يتوقف المارة ليرشدوك إلى وجهتك ، وربما عطلوا أعمالهم ليقطعوا معك جزءاً من الطريق .

الثانية من هذه التناقضات : أن الأتراك إذ هم يتعصبون ضد اليونانيين في قبرص واليونان ... ويخاصمونهم خصاماً شديداً ليس بعده إلا القتال من أجل قبرص ، تجدهم في تركيا يتعاملون مع اليونانيين المحليين سواء منهم من يحمل الجنسية التركية ومن لا يحملها ، وهم كثيرون ومنتشرون ـ معاملة لينة رقيقة كلها تسامح ... بعيدة عن روح التعصب والمقت والكراهية .

وليس أدل على هذه الحقيقة من أن اليونانيين في استنبول يسيطرون على الاقتصاد التركي ... وهم يزاولون نشاطهم في حرية مطلقة .

أما ثالثة التناقضات فهو ذهاب الأتراك في التجديد إلى أبعد مدى ، حتى لتعتبرهم قد تساووا مع جيرانهم من الدول والشعوب الأوربية ... بل وتجاوزوها ـ ومع ذلك فهم محافظون تماماً من الناحية الدينية ـ فلا تتجمع عشرة منازل في أي صقع دون أن يكون إلى جانبها مسجد ـ وأما أماكن العبادة فعامرة مزدهرة ليل نهار ، واللغة العربية الفصحى تتردد بين جنباتها بوصفها لغة القرآن حتى لكأنك في بطحاء مكة ... وحفظة القرآن يزدادون يوماً بعد يوم ... وخريجو مدارس تحفيظ القرآن سنوياً يعدون بالمئات والآثار الدينية تجد في عناية تامة ، وتخصص لوقايتها الاعتمادات فلا تلبس إلا السراويل الطويلة التي تحجب الساقين والقمصان ذات الأكمام المسبلة التي تغطي الأذرع والطرحة التي تغطي الرأس ، والعنق وجانباً من الوجه .

ما أجدب الحياة بعد الخمسين

في يوليو من عام ١٩٥٨ حضرت عيد الأضحية في أنقرة واستيقظت في الفجر حيث صليت صلاة الصبح ، ثم تذكرت الأولاد في الخرطوم بحري ، وهم يقضون هذا اليوم العزيز على الأسرة كلها بغير أب ، وترقرقت عيناي بالدموع ...

وتجسمت أمامي الوحدة والضياع في هذه المدينة الضخمة ذات الثلاثمائة ألف نسمة لشد ما يشعر المرء أنه صغير في أمثال هذه المدن الكبرى .

ولولا التقاؤه بالله ، أعني ولولا الإحساس بأن الله قريب منه ، نصير له ، لما اطمأن قلبه لحظة ... وصرفت الوقت في قراءة متصلة حتى الخامسة .

وخرجت إلى الشرفة لا راقب الشفق وهو في تركيا بطيء الحركة ، يظل عالقاً بالأفق الساعة أو تزيد ، ثم ارتديت ملابسي وخرجت ، وكان فندق برلين الذي نزلت فيه يموج بالألمان وأكثرهم صناعيون ، فالتقيت بالكثيرين منهم وهم يهبطون الأسانسير إما بقصد النزهة الصباحية وإما لأن أعمالهم لا تعرف العطلات واستقبلني أحد الخدم الأتراك في باب الفندق وأومأ بالتحية وقد اتسع فمه وزهت أساريره ، ثم خفض قامته في إجلال .

إن الأتراك في الفندق يسمونني (حكومة مسافري) أي ضيف الحكومة ومن حق ضيف الحكومة أن يجد كل عناية واحترام .

منظر طريف

ومضيت أسير في شارع عريض كثير المرتفعات والمنحدرات يؤدي إلى السوق وهنالك رأيت منظراً قل أن يقع عليه النظر في أية مدينة من مدن الحضارة في العالم ... الشوارع والساحات الكبرى العظيمة كانت ممتلئة بالخراف ذات الذيول الحمراء والناس ... وكانت أصوات المتساومين ، وهي مختلطة بالثغاء ، تخلق في الجو لغطاً غريباً على مسمعي .

إن كل بيت في تركيا يجب أن يضحي وبالتالي يشتري ربه خروفاً ...

ودنوت من بعض المتساومين أسألهم عن السعر وبعد جهد استعملت خلاله اللغة العربية والإنجليزية والنذر من التركية ، علمت أن سعر الخروف الواحد يبلغ سبعين ليرة ، أي نحو الخمسة جنيهات ، ولم أرض عن هذا السعر ، فإن الخراف التي شهدتها كانت في ثلثي حجم الخراف في السودان رغم فرط سمنتها ومظهر الرفاهية البادي عليها .

وواصلت سيري فلاحظت أن السيارات العادية التي تعبر الشوارع في ذلك الصباح كانت قليلة ، بينما كانت الباصات الكبيرة التي تعمل بالكهرباء وتجري على أسلاك كالتراموای أكثر من المعتاد ، ولم أسأل عن السبب لأن أحداً لم يكن ليجيبني .

كل من رأيت مشغول بنفسه أو بأولاده أو بشراء لوازمه ...

اللعب بالنار

وتعالت الشمس ، واندفع الأطفال وهم يلبسون الثياب الزاهية ويحملون لعب الدبابات والطائرات والتومي جن إلى الميادين ... إن الأطفال هناك يلعبون (بالنار) فالجندية بالنسبة للأتراك مثل أعلى ، وهدف كبير ، وصرفت وقتاً بين أماكن المرطبات والفواكه والحلويات وأضعت مائة ليرة لم أكن في حاجة إليها ، وأنا أعتزم السفر في نفس اليوم وعدت إلى الفندق وقد حملت بعض لعبات الحرب لأدخرها لأطفالي ، رغم كراهيتي للحروب .

هدية

وحزمت الحقيبة ، وفيما أنا أهم بالذهاب إلى المطار طرق باب الغرفة وفتحته لأجد فتاة في ريعان الشباب وهي تقول في عربية مكسرة (عيد سعيد) دهشت للوجه الحسن ، ولهذه اللغة الحبيبة ، ثم قدمت لي الفتاة هدية من الحلوى ملفوفة في ورق من السولفان .

وحاولت أن أفهم مصدر الهدية فلم أفلح ، فإن عربيتها لم تكن تعينها على الإفصاح (وتركيتي) لم تكن تعينني على الفهم .

وقبلت الهدية لعلي أعثر بداخلها على اسم مرسلها فلم أجد ... وتذكرت أسماء بعض

الأصدقاء في وزارة السياحة التركية ، واسم مدير الفندق وأسماء بعض من تعرفت بهم من الصحفيين ولكن لم يخطر ببالي قط أنها من امرأة ذات علاقة .

لقد انتهى بالنسبة لي عهد الحب والغزل ، ما أجدب الحياة بعد سن الخمسين ؟

وغادرت الفندق وبين جنبي هم مقيم ، لقد سافرت بالطائرة عشرات المرات بيد أنني كنت في كل مرة أشعر بالضيق والحرج اللذين شعرت بها في المرة الأولى أيضاً وسمعت صرخات بعض الأطفال في المطار ، فكادت نفسي تطير شعاعاً ، وتذكرت أفراخي ، إنهم في هذه السن (سن اليأس) حبي الوحيد .

وأطلت الدموع من عيني ، هل هي دموع اللوعة لأولئك الذين أتوق إلى لقياهم في الخرطوم بحري ؟ أم دموع الألم من عالمي الخالي من بريق الحب والعشق والهيام ؟

استنبول مدينة الحب والجمال

الستون ليست سن اليأس

زرت استنبول ونـزلت في فنـدق بـارك ، وهـو من أفخم الفنـادق وأكثرهـا شهرة ، ويعتبر في مستوى فنـدق هيلتون .. ويشرف الفنـدق على مضيق الـدردنيل وترى ميـاهـه اللازوردية من الشرفات قريبة دانية حتى لتخالها بين يديـك ، وهي في الحقيقـة على بعـد عشرات الأمتار .

وفندق بارك مقصد السياح من جميع الأجناس والشعوب ويكثر فيه خـاصـة الانجليز والعرب .

وقل أن تجد بين خدمه من لا يتكلم العربية أو الانجليزية .

مصادفة :

وقد صادف نزولي في الفندق مقدم بعض كبار اللبنانيين ومنهم سـامي الصلح رئيس وزراء لبنـان في عهـد الثورة وبعض كبـار العراقيين ومنهم طـه الراوي وكانوا يتكلمون إلى جانب العربية اللغة التركية كأهلها .

الجمال :

كما شهدت كثيراً من الفتيات اللبنانيات ذوات الجمال الآسر ، ولاحظت عنـدمـا ازداد ترددي على مطعم الفنـدق وأبهـائـه وقـاعـاتـه واتصلت بنزلائــه ، وكانـوا خليطــاً من كل الأجناس والشعوب ، إن الجمال بين النساء موفور وفرة القبح بين الرجال ، وأن لهذا الجمـال طـابعـاً مميزاً يجعل لـه سحراً قل أن ينجـو امرؤ من سلطـانـه .. كما لاحظت أن الآداب في الفندق مراعاة تماماً وأن التقاليد محترمة ، إلا في حدود ضيقة قد تتغاضى عنها إدارة الفندق على سبيل التسامح .

طوف :

ولكثرة ما تنقلت عيني بين هذا النعيم .. أقصد بين هذا الشباب المتفتح الظامئ للحب تمنيت بكل جوارحي أن ألعب دور الدون جوان أو أعيش في مغامرة واحدة تملأ خواء حياتي ولو بالذكريات .. ولكنني كنت أشبه (بالأطرش في الزفة) .

كانت العقبة الأولى في بعض الحالات اللغة .. وكانت العقبة الثانية ، وهي أشدها نضوب معين الشباب ، وكانت العقبة الثالثة ، ولعلها أذهب في الشدة والتعقيد ، نضوب الجيب .

ماذا يكون شعور الظامئ إذا رأى الماء البارد العذب بين يديه وهو لا يستطيع أن ينال منه ولو رشفة واحدة تبل أوامه .

وقد هبطت المدينة وتطوفت عشرات المرات خلال الأيام الخمسة التي قضيتها فيها وكانت استنبول مشرقة نظيفة كأنها غانية لعوب قد خرجت لتوها من الحمام ، بعد أن تعطرت وتزينت وأخذت تمام أهبتها .

لقد سكب كبار الفنانين والمهندسين على المدينة مدى قرون عصارة عبقرياتهم في مبانيها الشاهقة ، وقصورها الرائعة ، وقبابها الشماء ، وميادينها الفسيحة ، ومساجدها ومعابدها ، حتى غدت آية من آيات الفتنة والسحر .

مقارنة :

والمقارنة بين استنبول وأية عاصمة من عواصم العالم تكاد تكون منقطعة ، كالفرق بين الأصل والصنعة والعراقة والحداثة .

عظمة :

ويدل على عظمة استنبول أن بها خمسين فندقاً من فنادق الدرجة الأولى والثانية ، ومثل هذا العدد من المطاعم الراقية يضاف إلى عشرات الكازينوهات والمراقص والملاهي ودور السينما ، بعضها تحت الأرض والبعض الآخر على سطحها ، كما يدل على عظمتها ، متاحفها الستة عشر ومن أهمها متحف أيا صوفيا وكوبي بلس ، إذ أن تاريخاً من ورائها

ينطق بمجد الترك والإسلام ويشير إلى ترف الخلفاء وثرائهم وبذخهم مما يعز تصوره على الخيال .

ما من أحد لا يتأثر وهو يرى الجواهر واللآلئ ونفائس الحلي وتقدر قيمتها بملايين الجنيهات تتكدس في محيط واحد ، وقد انبعث منها بريق يخلب الألباب .. وإذا كان ثمة عظمة دينية تنحني لها الرؤوس فهذه العظمة تتجلى في ثمانمائة مسجد ترتفع مآذنها إلى عنان السماء ، وتعبر عن ماضي الخلفاء العثمانيين الذي جعل من تركيا امبراطورية ضخمة ، وولد حولها هالة من الرهبة والنفوذ والسلطان ، قليل النظير .

أما الآن فأين تركيا من هذا كله ؟ .

ملهى :

وقد قصدت ذات ليلة ملهى (فور صدي) وراقبت الراقصين يدورون ويتقلبون ويتوثبون على نغمات الموسيقى العاصفة والأغاني المثيرة ... وظللت محتفظاً بحواسي إلى منتصف الليل ولكنني بعد ذلك اضطررت للرجوع إلى الفندق إذ كانت قواي أعجز من أن تواصل هذا الشوط الطويل ..

ولم يزل يستقر في خيالي منظر شيخ في الستين وهو يخوض الحلبة محتضناً فتاة في العشرين وقد مضى في جلد وحرارة وخفة ورشاقة ، يعبر القاعة جيئة وذهاباً ... تتعب الفتاة ولا يتعب ، حتى أصبح ملتقى العيون والأبصار .

هل الستون لا تعتبر سن اليأس ؟ .

حقيقة !

وعدد سكان استنبول نحو المليونين من الأنفس وهي العاصمة الحقيقية لتركيا ... ففيها معظم الصحف الكبرى ، ودور النشر ، ونشاطها التجاري يمتد إلى أنحاء العالم المختلفة ، ويزيد من مكانة استنبول أنها ميناء عالمي وحلقة اتصال بين شرق اوروبا وأقطار البحر الأبيض المتوسط ... ، ومصيف مشهور ، ومجال لنشاط غامض مثير للدبلوماسية الغربية والشرقية ، ومركز لحركة تجسس دولي ، وميدان للمغامرات ، زاد من روعتها ما ألف فيها من كتب ووضع من قصص وأساطير ..

خطايا بعض الزملاء

الطعن في الزملاء مهما يكن سبب هذا الطعن أمر غير مرغوب فيه رغم أن الضرورة قد تستوجبه أحياناً ..

ونحن حينما نكتب هذه الكلمة نكتبها وقد اعتصر قلوبنا الألم ، ولولا أن هناك مبادئ كبيرة لا يجوز المجاملة فيها والتغاضي عنها ، لما رضينا لأنفسنا أن نقف هذا الموقف الذي نكرهه من صميم نفوسنا .

لقد ذهب الوفد الصحفي السوداني المسلم أو الذي يفترض بحكم وضع البلاد أن يكون مسلما ـ إلى الأراضي المقدسة التي شرفها الله ببيته ومقام نبيه بدعوة من حكومتها (في نوفمبر عام ١٩٦٤) .

وكان ينبغي على أعضاء الوفد أن يلتزموا باحترام هذه الأراضي المقدسة بوصفهم مسلمين أو بوصفهم مندوبين عن بلد مسلم أو بوصفهم ضيوفاً ، عليهم واجب الحرص على تقاليد مضيفيهم ، خاصة وأن مدة الزيارة قد تختصر إلى أسبوع ولا تزيد على أسبوعين ، وهي مدة جد قصيرة يستطيع المرء أن يعصم نفسه خلالها ، ويقيدها ، ويقف منها موقف الحارس الأمين مهما اصطلحت عليها الرغبات والغرائز والنوازي .

لا يستطيعان :

ولكن زميلين يساريين عفا الله عنهما أبيا على نفسيهما هذه العصمة والقيد والحراسة ... وأطلقا العنان لأهوائهما وراحا في نهم غير عادي ينهلان من معين المعصية ... كأنهما كانا يودان الإعلان عن خروجهما على كل عرف والتعبير عما انطويا عليه من زندقة .. ولا داعي لذكر اسمي الزميلين فليس الغرض هو إشانة السمعة أو الإحراج وإنما تقديم صورة عن واقع حدث يجب أن يحسب حسابه في المستقبل ، لقد هبط الزميلان بعد

ثلاث ساعات من وصول الوفد إلى جدة (من فندق الكندرة) واختفيا عن الأنظار مع زمرة معينة وأحييا ليلة حمراء وكانت حجتهما أنهما لا يستطيعان النوم دون خمر .

وعادا للفندق في الهزيع الأخير من الليل يترنحان .. وفندق الكندرة كما هو معلوم فندق محترم وكان قاصراً على رؤساء الوزارات وزعماء الشعوب وكبار رجال الدين الذين جاءوا لتحية الملك الجديد باعتلاء العرش ، وظل هذا دأب الزميلين اليساريين لأيام ورأيا أخيراً أن تتم (العربدة) في الفندق نفسه ففعلا .. وشربا خمراً لبنانياً تفوح روائحه حتى تملأ الجو على بعد مئات الأمتار .. وظلا يرتكبان (المحرمات) طوال الرحلة وحرص أحدهما على ألا يفرط في يوم واحد إلا في حالة الاضطرار القصوى ، وذات يوم سهر هذا (الأحد) في شراب متصل حتى الرابعة صباحاً ... وأين ؟ في الرياض ؟ حيث تشتد قبضة الدين وتنحني لهذه القبضة كل الجباه ، واعتكف في اليوم التالي في غرفته معتلاً مريضاً لا يحرك عضواً من جراء هذه السكرة (الصباحية) .

ليت :

وليت شراب الخمر المتصل والعربدة في الأراضي المقدسة كان هو المنكر الوحيد الذي ارتكب فقد اعتذر أحدهم عن الوضوء أمام المضيفين في خجل مصطنع عندما جئنا لأداء العمرة ..

وفي المدينة المنورة تظاهر هذا الشخص بالمرض ورفض الذهاب إلى الحرم النبوي لأداء الصلاة إلى جوار قبر الرسول (ﷺ) في يوم الجمعة . وأبلغني زميلي بأنه قال له كلام لا يصح ذكره الآن ولكنه يعني عدم الاقتناع بكل الإجراءات التي قمنا بها والطقوس التي مارسناها .

جليطة

وكانت الجليطة الكبرى عندما لبى بعض الزملاء دعوة أحد الأمراء ... وخلال المأدبة أخذ ذلك (الأحد) يناقش الأمير الملكي الذي أكرم الوفد وأكرم السودان في شخص الوفد في حتمية زوال الملكية من الوجود ، رغم أنه لم ينكر الملكية السعودية ، ورغم أنه لم يتناول أحد رجالها بسوء إلا أن مثل هذه المناقشة في مثل هذا الجو ، خروج على آداب الضيافة

وقلة أدب وإحراج لبقية أعضاء الوفد بالإضافة إلى أن الملكية التي حاول ذلك الغر الساذج أن يدعي حتمية زوالها على وجه العموم دون استثناء كان كل ما حوله في المدن التي زارها يشهد بما صنعته الملكية في السعودية من خدمات جلى أقلها الاستقرار الدائم الطويل المدى الذي تتمتع به ، والرخاء الذي يسودها والوحدة التي تجمع بين صفوف قبائلها وشتى سكانها ، والتضامن والتكافل اللذان يربطان بينهم برباط محكم وثيق ...

حادث محرج :

واضطر زميلي أن ينصرف خجلاً ... وأن يحلف بعد ذلك ألا يصحب الزميلين اليساريين إلى اجتماع أو حفلة خاصة .

والحادث الذي كان مصدر إحراج الوفد كله سببه الزميل اليساري بسذاجته أو على الأقل هذا ما فهمناه .

فإن أحمد حسن مطر الذي بلغ الآن أرذل العمر والذي كان يعمل حتى ديسمبر من العام الماضي ١٩٦٤ مراقباً في جدة للنشر الأجنبي مستغلاً الكرمين العربي والسوداني وتسامحها وتغاضيها عن الصغائر ، استغلالاً واسعاً ، وجد فرصته في مجيء الوفد لترويج كتيب مليء بالتناقضات .. لقد أعد الكتيب أصلاً ليصدر في عهد الملك السابق سعود ، وبعد أن تم الطبع اعتلى العرش جلالة الملك الحالي فحاول أحمد حسن مطر جهد طاقته أن يحول الكتاب من الماضي إلى الحاضر ، فمزق بعض أجزائه وأعاد طبع بعض صفحاته .. ثم رفع سعر النسخة إلى ما شاء ، وأخذ في توزيعه بأسلوبه الذي عرفه عنه السودان ، ولا أزيد ... وسلم نسخاً للزميل اليساري المشار إليه آنفاً .. لكي يعرضها على جلالة الملك ... أي لكي يشتري منها الملك كميات ولم يخطر الزميل أحداً من أعضاء الوفد ... ولكننا فوجئنا به يسلم الكتيب لأحد كبار رجال القصر لكي يتولى تقديمه بدوره للملك وتسمرت عيوننا على هذا المنظر ، ثم خففنا لمقابلة جلالته ، إذ كان على بعد أمتار منا .. إنني شخصياً أرى أن أحمد حسن مطر وهو رجل انتهازي عريق في انتهازيته ، قد خدع الزميل اليساري وحمله وزراً ، لو عرف حقيقته لما انصاع له وقبل هذه المهمة المشينة به وبالوفد لقد كان الوفد يمثل كرامة الصحافة السودانية .. ومن واجب أفراده أن يتحلو

بصفات ترفع من قيمة الصحافة السودانية في أعين الناس .. لا أن تهبط بها وتجعلها في مقام أدنى إلى التسول والاحتيال .

إن تصرف أحمد حسن مطر كان رديئاً جداً وكان تصرف الزميل اليساري أكثر رداءة ... إذ كان يمكنه بدلاً من أن يفاجئ أعضاء الوفد بهذا الحادث أن يستشيرهم فيه لو توفر حسن النية .

مطر :

إن أحمد حسن مطر عبء ثقيل على السودان وهذا أمر لا يخفى على عارفيه ... ويعيبنا أن نزيد من هذا العبء الثقيل بأن نكون عوناً له على الآخرين ... وأن نشترك في اقتراف هذه السيئات المنكرة التي تحط من مكانة السودان والسودانيين وتؤذيه وتؤذينا شر إيذاء .

الوصي :

وداهية الدواهي أن الشاب اليساري نصب نفسه منذ لحظة وصول الوفد إلى جدة وصياً على الوفد وتطوع بتقديم تقرير للقائم بالأعمال السوداني عن زملائه في الرحلة بوصفه أحد ثوار اكتوبر وقيماً على السلوك العام لأفراد الأمة السودانية بما فيها نحن .

جريدة المدينة :

وحدث خلال وجودنا في السعودية أن نشرت جريدة المدينة مقالاً حملت فيه على ممثل الحزب الشيوعي في الوزارة السودانية السيد أحمد سليمان .. وقالت أنه حين أراد حلف اليمين الدستورية عند تشكيل الوزارة وضع يده على الإنجيل فلما نبه قال ساخراً .. كله زي بعضه ؟ .

كان المقال موقعاً بقلم سوداني من الخرطوم ، وذهب الزميل اليساري فاحتج لدى الصحيفة ، وحاول أن يعرف اسم كاتب المقال ، وعاد وادعى أنه عرف الكاتب ومهما يكن من شيء فإنني لم أعر الموضوع في حينه أية عناية إذ لم تكن لي به صلة على الإطلاق .

اتهام :

وعدت للخرطوم وذهني خال تماماً عن الموضوع السالف وفي حديث تليفوني جرى

بيني وبين السيد أحمد سليمان رئيس لجنة التطهير ووزير الزراعة في ذلك الحين ، فاجأني الرجل بقوله : « ليه يا يحي تشتمني في جريدة المدينة في السعودية ؟ » وحلفت للسيد أحمد سليمان بأغلظ الأيمان بأنني لم أفعل ، وأنني رغم كثرة عيوبي ليس من بينها عيب التشهير بمواطنيّ ، مهما كان أمرهم في الخارج ، إذ أرى دائماً أنه من الخير لنا جميعاً أن نغسل ثيابنا القذرة داخل الدار ... لا في الطرقات ولكن السيد أحمد سليمان لم يصدق وقال لي بالحرف الواحد : لقد أكدت السفارة السودانية في جدة ، أنك كاتب المقال ، وأكد زملاؤك في الرحلة أنك كاتب المقال ؟ ؟ .

وعلق السماعة في كثير من الأدب مما أقلقني .. فإن الرجل الذي يعبر عن غضبه بالصراخ والضجيج والشتيمة والقذف وشتى مظاهر الانفعالات هو أقل خطراً من ذلك الذي يحقد وينتقم عن طريق العمل الصامت الرهيب .

حسن مختار :

وكانت رحلة وفد الصحافة السودانية تشعر بأن الزملاء على تصاف وود .. ولكن عند العودة قرأت لحسن مختار كتابات لا تدل على أن أحداً كان بصحبته ، واعتذرت للرجل فما ذهب ليكتب عن الزملاء ولكنه ذهب ليكتب عن السعودية ، غير أنني لم أستطع إطلاقاً أن أجد عذراً أو مبرراً لحسن مختار أن يقتطع من صورة تجمع بين السيد وزير الإعلام السعودي وكل أعضاء الوفد صورته هو وصورة الوزير فقط ... وقد صدف أن كان يقف بجانبه وينشرها ـ ويهمل البقية لماذا يا ترى ؟ أليقال أنه قابل الوزير وحده ؟ ؟ أم أن هؤلاء الزملاء غير جديرين بالنشر في جريدة الصحافة ؟ ؟ إن الدنيا ملأى بالأعاجيب ولكن بعضها رغم تفاهته يثير أقصى غايات التحقير والاشمئزاز إذ يدل على ظلام بعض النفوس وصغارها وشعورها الدائم بالنقص ، وأنها مهما اغتنت مظهراً ، لم تزل في أشد حالات الفقر مخبراً .

أسف :

وللأسف فإن الصحف التي انتدبت ممثلين لها في الرحلة لم توفِ بالتزاماتها الأدبية ما عدا صحيفتي الصباح الجديد وأنباء السودان .. فالأيام لم تشر للسعودية بكلمة واحدة ..

وعاد مندوب جريدة الرأي العام ليتخلى عنها بسبب موقفها المزري الجبان منه بعد الثورة دون أن يكتب عن رحلته حرفاً . (فقد فصلته الجريدة بحجة أنه كان يتعاون مع عهد عبود) .

واكتفت الصحافة بكلام رذل رخيص نذر غير مدروس ولا مستوف لا ينطوي في عرف الحقيقة والحق على شيء - إلا تهريجاً مرذولاً قد بصمه حسن مختار الذي صحب الوفد ..

العدد رقم ٧٢٧ بتاريخ ١٠ / ١٢ / ١٩٦٥

في بيروت

موعد مع الأحداث

قمت برحلة في مايو سنة ١٩٥٨ إلى تركيا بدعوة من وزارة السياحة التركية وكنت اعتزم بعد انتهائها زيارة بعض الأقطار المجاورة .. غير أن الأحداث التي تتابعت في تلك الآونة لم تتح الفرصة لتنفيذ كل البرنامج وبالصورة التي كنت أقدرها وكأنما كنت مع تلك الأحداث على ميعاد .

ذلك أنني لم أكد أصل أثينا حتى وجدتني وسط دوامة من الصخب والمظاهرات وأعمال العنف .. إذ أن الشعب هناك وقد أراد أن يؤيد اليونانيين في قبرص توسع في التعبير عن مشاعره فشمل بسخطه الحكومة القائمة مما أدى إلى اصطدامات واضطرابات في طول البلاد وعرضها ..

وفي تركيا وجدت نفسي أزاء مظاهرات لم أشهد لضخامتها مثيلاً ، ولم يكد البعض يذيع بالميكرفون بأنه يوجد صحفي سوداني مسلم حتى حملني الجمهور على الأكتاف ... واضطررت إلى الخطابة بالعربية في جموع لا تعرف من العربية حرفاً .

واضطررت إلى عقد مؤتمر صحفي حضره مندوبون عن أكثر من مائتي صحيفة واذاعة ووكالة أنباء ، لأجيب على أسئلة لم تكن تخطر على بال .. ولولا العون الذي بذله مرافقي السيد عباس الباي وكان يتولى الترجمة ، لبلغ موقفي غاية السوء وغداة ذلك اليوم كانت صورتي تحتل مكان الصدارة في كل الصحف التركية عاصمية واقليمية بغير استثناء ....

وطرت إلى لبنان فإذا بثورة مروعة تنتظرني ، فقد كانت الدماء تجري في الشوارع بغير حساب ، وضمر سلطان القانون حتى احتجب وانتشرت الفوضى ، ولم تعد للأرواح قيمة .

وبعد لأي ووساطات متعددة حجزت مقعداً في طائرة تقلني إلى بغداد ومعي رسالة تعريفية من الصديق النبيل السيد هاشم خليل السفير العراقي في الخرطوم يوم ذاك إلى

باش اعيان وزير النشر والاذاعة وفي موعد السفر فوجئت بخبر ثورة الجيش العراقي في ١٤ تموز ومصرع الملك وولي العهد وذهبت إلى السعودية ، فإذا بالأزمة الدولية تنشب بسبب التدخل الأمريكي في لبنان . والتدخل الانجليزي في الأردن

وإذا بالطائرات الأمريكية وهي تحمل القنابل الذرية تحلق في سماء الشرق الأوسط ، وتتوتر الأعصاب ويسود القلق ، وتضطرب النفوس ولم تكن الحالة الداخلية في السعودية بأسعد حظاً .

لقد كان عمر رحلتي إلى تركيا وزيارتي إلى لبنان والسعودية ثلاثة أشهر عشتها كلها على أعصابي تتنازعني عوامل الحنين إلى أسرتي وإلى الوطن ، ويلاحقني سوء الحظ أنّى حططت رحلي وتتعقبني المتاعب من كل جانب وتعترضني المخاوف في كل طريق .. لماذا يارب ؟؟؟

لقد صدر قرار باغتيالي ـ

أثناء وجودي في السعودية في شهر يوليو من عام ١٩٥٨ ، وجدت في صحيفة بيروتية تسمى (كل شيء) كلمة من السيد حسين العويني ، وزير خارجية لبنان السابق وأحد رؤساء الوزراء السابقين وقطب الثورة الكبير ـ يرد فيها على حديث نشرته جريدة العمل لسان حال الكتائب اللبنانية منسوباً إليّ .. وقد علمت بعد ذلك أن الرد قد نشر في كل صحف لبنان الموالية للثوار والمستقلة وقد جاء في الحديث أن السيد العويني افضى إليّ بأن التدخل المصري في شؤون لبنان عمل مشروع لأنه ضد قوى الخيانة الأجنبية التي يمثلها شمعون ، وأن الدروز السوريين قد درجوا على معاونة دروز لبنان الذين يحاربون حكومة شمعون لأن هذه المعاونة طبيعية مادامت الأصول واحدة .

وقد نفى السيد العويني الحديث وحمل علي حملة شعواء ملأها بعبارات مسمومة لم أتصور أن رجلاً في مثل مقامه يلجأ إليها اللهم إلا إذا كانت تبديداً لظنة حامت حوله .. وتعجبت أكثر من تسرع العويني في الحكم علي قبل أن يسمع دفاعي .

وتعجبت أكثر عندما تلقيت بعد ذلك رسالة من الأستاذ صلاح أحمد محمد صالح

الملحق الصحفي لسفارتنا في لبنان تدل على اهتزاز شديد ـ يلح عليّ فيها أن أكذب الحديث لأن قراراً قد صدر باغتيالي .

وكان مثار تعجبي هو كيف يصدر قرار بقتل إنسان ـ أي إنسان ـ دون محاكمة ـ إذ لو وجدت في لبنان يوم ذاك لقتلت ، وذهب دمي هدرا دون ذنب حتى بمنطق الثورة نفسها .

والواقع إن الناس في حميا الغضب وسعار الدم تهتز في أنفسهم القيم ، ويفقدون عنصر العدالة والشعور بكرامة الإنسان .. إنني قابلت العويني فعلاً كما قابلت شمعون وآخرين من السياسيين والشخصيات البارزة في لبنان وكرمتني نقابة الصحفيين .. وتبادلت وجهات النظر مع كل أولئك .. ولكنني لم أكن قد دونت حرفاً مما سمعت أو رأيت ، اتكالاً على ذاكرتي من ناحية ، ولأنني من ناحية أخرى لم أكن لأستفيد من هذا التدوين نظراً لأن (أنباء السودان) كانت متوقفة في غيبتي، ولأنني لم أكن أنوي العودة إلى الخرطوم قبل زيارة العراق والسعودية .. أي قبل شهر على الأقل .. وهي مدة ربما تغير فيها وجه الحوادث والأشخاص .. فإن المفاجآت كانت تتواتر وتقلب كل وضع وتسبق كل احتمال ...

ويبدو أن أسمي وصورتي حينما نشرا في بعض الصحف اللبنانية لفتا إلى أنظار محرري جريدة العمل وهم في معركة طاحنة بالرأي مع الثوار ، قوامها الاتهامات والادعاءات فتركوني حتى أغادر لبنان ونشروا على لساني ما يشاؤون تأييداً لقضيتهم وقد أمنوا بالنشر في غيبتي شيئين :

أولاً) التكذيب

ثانياً) أن يكونوا سبباً في مقتلي ...

والبند الثاني يشتمل على عاطفة إنسانية .. إذا صح الافتراض ـ وأغلب الظن أنه صحيح ـ جدير بالشكر على أي حال .

وقد ظلمني العويني وظلمتني الثورة اللبنانية ظلماً بشعاً لم أكن خليقاً به .

وقد زرت لبنان بعد ذلك مرتين ولم أصب بسوء .. رغم أن الأستاذ صلاح أحمد كان خائفاً .. وقد أكثر من تحذيري ..

اشاعة

اشاع عني صديق صحفي غير مسؤول خلال رحلتي إلى الشرق الأوسط بأنني قتلت في العراق عند نشوب الثورة .. وقد تسربت هذه الاشاعة التي نشرت على سبيل الدعابة - ويالها من دعابة - إلى أسرتي ولولا ورود برقية مني في نفس اليوم من السعودية لفرشوا علي وأقيم مأتم .. وحدثت مأساة ..

ليلة رهيبة في بيروت

هبطت إلى بيروت في منتصف ليلة من ليـالي شهر مـايو ١٩٥٨ . ورغم دقـة المـوقف الداخلي في لبنان آنذاك ، حيث كانت الثورة مشتعلة ، فإن الموظفين المسوؤلين في المطار ، لم يتعنتوا في فحص جـواز سفري ، أو تفتيش أمتعتي ولعـل السبب يعـود إلى أني سـوداني ، وإني صحفي ، وإني قادم من تركيا .

ولكنني لم ألبث أن شعرت بـأن السهولـة واليسر اللـذين وجـدتها من المسئولين في المطار ، لا يكفيان للتعجيل بخروجي منه ، وانطلاقي إلى الفندق حيث أصيب ما أحتـاج إليه من الراحة .

لقد كان على جميع المسافرين أن يذهبوا إلى المـدينـة دفعـة واحـدة في قـافلـة ، تحت حراسة سيارات الجيش المصفحة .

وانتظرت ما يقرب من ساعتين قبل أن تجهز الباصات التي تقلنا .

وتسابق المسافرون في رعونة وأنانية للظفر بمقاعدهم ، تاركين جانباً ، قواعد الليـاقـة والمجاملة ، ولم أر أن أشترك في هذا السباق .

ووجدت في النهايـة مكانـاً في مؤخرة سيـارة البـاص الأخيرة ، ولاحظت أنني كنت وحدي في (كنبة) واسعة مريحة .

وتعجبت لهذا الإيثار غير الطبيعي من أولئك الناس !!!؟

وترددت أن أشكر حسن حظي ؟

وأقبـل طـالب أردني ، كان المسـؤولـون في المطـار قـد حجـزوه لارتيـابهم في أوراق هويته ...

وأشرت متلطفـاً إلى المكان الفسيـح إلى جـانبي ... فتجهم وجهـه ، ثم قـال في صـوت

أجش : في المؤخرة ليه .. عشان أتعرض للرصاص !!؟؟ وصمتت السيارة .. ولم أعن به أولاً لأنني لم أفهم المقصود من كلامه . ثم تسرب الفهم قليلاً ، قليلاً إلى رأسي .. فشدهت وشعرت بانقباض شديد ، وبرداء تسري في أعصابي ، وقلت في غير وعي :

ـ رصاص ...!؟

وتطلعت خلفي ، وإلى جانبي لأرى للوهلة الأولى أن النافذة الخلفية ، تجعل جزئي الأعلى مكشوفاً تماماً .

فأجابني الفتى في صيحة مبحوحة ـ أيوه رصاص ... أمال ورد !؟؟

وكنت أتصور نفسي غير قادر على الثبات في مثل هذا الموقف .. بل كنت أشبه بالرجل الذي يعاني من حلم مزعج ، ولكنه مشلول الإرادة فاقد العزم ، ومضيت في هدوء وبرود ، أخرج صندوق السجائر من جيبي ، أختار واحدة ، ثم أشعلها بيد لا ترتجف .

ولا أدري ، ما هو المعنى الذي أفصحت عنه أساريري .. فإن الطالب الأردني الفزع نظر للجالسين فيما يشبه التحدي ثم جلس إلى جانبي وهو يهمهم بألفاظ ، لم تتميز في أذني ، ولعلها شتائم .

ونصحني الطالب ، في لهجة الشخص الخبير : ـ نزل الزجاج .. فإن شظاياه إذا أصابتها رصاصة ، قد تكون أشد فتكاً من الرصاص نفسه . وأذعنت لمشيئته دون تردد . ومرت في ذهني في تلك اللحظة ، صور خاطفة عن أولادي ، وهم يغطون في نومهم سالمين مطمئنين في الخرطوم بحري ..؟

وتداعت الخواطر ، وحسبتني وأنا مقبل على مغامرة ، فيها الموت ، خيراً من أي زميل قابع في عقر داره تسير حياته على وتيرة واحدة .. وتذكرت رحمي سليمان خاصة ومشيته المضطربة واسترساله لحياة الوداعة (والونسة) .

وتحركت القافلة ـ .. ولم نكد نغادر حظيرة المطار حتى أنزلق الطالب الأردني من (الكنبة) و (تكوم) في أرض الباص كأنه جوال من الدقيق ، ونظرت إليه في غير سخرية ، دون أن أشعر بالرغبة في مجاراته ، وحاولت أن أكسر من حدة الصمت المخيم ، فسألت رجلاً أمامي عن المسافة التي تقطعها السيارة حتى المدينة ؟

فلم يجبني أولا ، بل نظر إلي بعينين واسعتين ، تجسم فيها الرعب .. وعندما كررت السؤال ، أجاب مين يعرف ..؟ وكان يظهر في ثوب البريء الذي حكم عليه بالإعدام .. وأوغلت القافلة في طريقها ، حتى بلغت أجمة متشابكة الأغصان أعتاد الثوار أن يختبئوا فيها ، ويطلقون الرصاص وأطفئت الأنوار ، وازدادت الأعصاب توتراً . وفجأة توقفت القافلة ، وأحسسنا بقرب الخطر .. ومرت ثوان ثقيلة مروعة انطلق بعدها صوت واضح لأحد العسكريين وهو يقول :

في موتور سايكل من حاملات الرشاشات تعطل .

وسمعت عندئذ ، صوت تحرك الركاب وهم يستريحون في مقاعدهم ...

وأضاف العسكري : لازم نصلح الموتور .. لأننا لو تركناه يقع في أيدي الثوار

وقال راكب : ونحن مالنا .. أتركوه أحسن نموت كلنا .. وظللنا دقائق في حالة توقع لتساقط الرصاص القاتل ...

وأصلح خلل الموتور ...

وانطلقت القافلة ـ في سبيلها دون أن يحدث ما توقعناه .

ووصلنا المدينة .. ثم مررنا ببعض الشوارع الخطرة دون أن تطلق نحونا رصاصة واحدة ، وإن كنا قد سمعنا أصوات طلقات من بعيد ...

وكانت الشوارع خالية تماماً ، ودوريات الجيش تمر بانتظام ...

ونزلت في فندق أكسسوار واختيرت لي غرفة في الدور الثالث ، تواجه شارعاً رئيسياً ، واتجه الخادم ليفتح باب الشرفة قلت له : ماذا تريد أن تفعل ؟

فأجاب : ـ إن الهواء طيب ـ قلت له : لا حاجة بي إلى الهواء فالموت حراً ، خير من الموت برصاصة عابرة . وهز الرجل رأسه ، ثم نظر إلي نظرة ليس فيها الكثير من معاني الاحترام ..

واستدار ثم ذهب ، دون أن ينبث بحرف .. وقضيت ليلتي الأولى في بيروت وأنا في أشد حالات القلق .

مع الثوار وضدهم

حضرت معركة لبنان وهي على أشدها في منتصف شهر يوليو من عام ١٩٥٨ ... وكنت أنزل بفندق (أكسسور) وهو فندق كبير وكان خدمه ككل اللبنانيين منقسمين ، بعضهم يدينون بالولاء للثورة ، والاخرون يدينون بالولاء للرئيس كميل شمعون .

وكان كل خادم من هؤلاء يحمل تحت طيات ثيابه مسدساً ، ويحمل في حديثه العادي أفكاره السياسية غير أنهم على ما يظهر اتفقوا على هدنة داخل الفندق حرصا على موارد رزقهم ، فلم تقع معارك بينهم طيلة مدة اقامتي .

وكان كل خادم من هؤلاء اذا دخل غرفتي لسبب من الأسباب انهمك في الدعاية لرأيه السياسي وكان تصوري بأن المسدس يكمن في مكان ما من ثيابه يجعلني حريصا على مجاراته في التفكير .

ولكثرة من يتصل بي من خدم الفندق ، فقد كنت مع الثوار ، وضدهم ، دون توقف .

وحدث ان وجدت نفسي ذات صباح في ردهة تجمع فيها عدد من الخدم ، وهم يتناقشون ولم يكادوا يلمحونني حتى خفوا الي يسألونني أن أفصل بينهم ، بوصفي محايدا ، وكل واحد منهم كان يعرف مقدما طبعا أنني من رأيه ؟

وكانت ورطة لم أدر كيف أتخلص منها ، لولا أن ظهر فجأة صبي الفندق ودعاني لمقابلة السفير التركي الذي جاء ليزورني .

وكنت أجلس ذات يوم مع السيد النور علي سليمان القائم بأعمال السفارة السودانية في مكتبه بدار السفارة ... ومعنا سوداني يتلقى الدراسة في الجامعة الأمريكية ... وعلى غير انتظار بدأ اطلاق النار بالقرب من الدار .

وفي هـدوء الواثق المطمئن طلب (النـور) من كل واحـد منـا أن يبعـد مقعـده عن مواجهة الشرفة وكانت مغلقة بالزجاج فقط .

ثم ذهب وفتح الزجاج لكيلا تصيبنا شظاياه اذا اصطدمت به رصاصة ـ وأخذنا بعد ذلك في الحديث العادي ، وآذاننا مرهفة للمعركة التي لم يطل أمدها .

كيف تصبح سودانيا ؟

وخرجت من السفارة وفي رأسي طنين مزعج ، فان ثمة رجالا مسلحين في الجوار في استطاعتهم أن يستعملوا المسدس أو البندقية أو المدفع ، دون أن يكون هناك قانون يردعهم .... !

وانطلقت بسيارة السفارة ـ وكان سائقها لبنانيا وقال لي أثناء السير : نصيحة يا أستاذ ... شكلك فيه شبه كبير بالمصريين ؟ إذا قابلت (زلمان) شمعون (يعني رجاله) أفضل أنك تقول في الحال : أنا سوداني مين يعرف لأنهم (تكرم) مابجبوا المصريين ، جائز من غير قصد يقوصوك (أي يضربوك بالمسدس) .

ونظرت الى قفا السائق نظرة حائرة ... وقلت :

واذا كانوا بالقرب قد يشتبهون في أنني مصري ... فهم في البعد وأنا راكب سيارة ربما تيقنوا من مصريتي ؟ وأجاب سريعا : جائز ! اعمل حسابك ... وانكفأت داخل السيارة لا أبرز رأسي إلا لضرورة قصوى .

يا خبر :

وخطرت ببالي فكرة رائعة نفذتها دون تردد ... فقد كان الأخ صلاح أحمد صالح الملحق الصحفي بالسفارة قد حسن لي الانتقال من فندق اكسسور الى شقته ، وترددت ـ فإن جهاز تكييف الهواء والطعام الجيد واعتبارات أخرى ، لم يكن التخلي عنها سهلا أما الآن فقد رأيت أن أستجيب لهذه الدعوة ـ وأن ألازم صلاحا ففي لونه الأسود الصارخ ، ومنصبه في السفارة السودانية شاهد عدل على (سودانيتي أنا) .

العكروت

وفي احدى الأمسيات ، نزلنا أنا وهو الى فناء العمارة ، حيث تعود صاحب العمارة

ـ وهو من المتشيعين للثوار ـ وبعض أصدقائه أن يجلسوا للسمر الى أن تحين الساعة الثامنة وهو موعد حظر التجول .

واتخذنا مقعدين بينهم ، وكان النقاش حرا ـ كما تخيلت ـ فرحت أطلق لساني ذات اليمين وذات الشمال .. وأنا مستريح (للقعدة) وكان الى جانبي رجل عملاق ضخم الجثة صارم التقاطيع ، ذو لهجة موغلة في عاميتها وقد فهمت من حديثه أنه « زلمة » عبد الله اليافي . ولم أعن به كثيرا ... في أول الأمر ... ولكنني اضطررت للعناية به أخيرا ..

لقد قلت ، جوابا عن حديثٍ لصاحب العمارة زكّى فيه اندماج السودان مع مصر ـ أنا ... أولا ... لا أؤمن بأي اندماج ، وأنا ، ثانيا لا أعتقد أننا عرب خلص فنحن سلالة قائمة بين العرب والزنوج .

ثم أشرت للأخ صلاح أحمد وهو أسود غريب ، كأنه قطعة من الظلمة ، وقلت : هل تعتقد أن صلاحا هذا عربي قح ، من نسل قحطان ؟؟ وكانت النكتة تتمشى في حديثي ، ولم أكن جادا في بعض عباراتي ... وانما هي التريقة وتفريغ الموضوعات وفجأة تحرك العملاق الذي يجلس الى جانبي ، ووجه الي نظرات نارية وشهر علي بيده اليمنى مسدسا ، بينما وضع يده الأخرى على مسدس لم يزل في قرابه .. وقال : ايش يقول ... ها ... العكروت ؟ وخفت حقا ولكني فكرت في سرعة ، بأن أي ارتعاش أو اضطراب سوف يسيء الى موقفي ... ولهذا السبب قابلت هذا التصرف في برود وبسمة عريضة ، واستمريت في حديثي ، كأن الأمر لا يخصني وكأنني أشهد تمثيلية ، أقف منها موقف المتفرج .

وخاطب صاحب العمارة الرجل وكان كما وضح صاحب نفوذ عليه قائلا : ضيف السفارة السودانية وضيفنا ثم أطال معه الهمس ... وسرعان ما .. هبطت اليد التي تحمل المسدس ، ثم ارتفعت اليد الأخرى عن موضعها وواصلنا النقاش ...

ولم ننصرف أنا وصلاح الا بانصرافهم جميعا ... وفي بطء وهدوء لقد كان هذا التكنيك هو خير ما يمكن عمله في أمثال هذه الظروف وفي فرصة أخرى سوف أسرد الميتة الأخرى التي نجوت منها في لبنان وكانت هذه الميتة لولا يد القدر ، حتمية تماما ، كامساكي الآن بالقلم ، ومزاولتي ازعاج القراء .

الرقص على أنغام البارود ...

استيقظت مبكرا حيث استقبلت نهاري الأول في بيروت .. وأحسست بأن جهاز تكييف الهواء في الغرفة قد أصابني ببرد خفيف ... أورث جسمي خمولا وضعفا وتذكرت عندئذ قول الصديق منصور عطا الله في مناسبة مماثلة :

(ان طيب الورد يؤذى بالجعَل ؟) ونزلت الى قاعة الفندق وكان الخدم يحفون بي كما يحف السوار بالمعصم ...

ويتدافعون لاجابة مطالبي تدافعا مثيرا ...

لقد كان النزلاء في يوليو (١٩٥٨) بسبب الثورة قلة ... وكان الخدم يبذلون قصارى جهدهم لكي يعوضوا ما فقدوه من البقشيش في هذا الموسم الراكد باعتصار هذه القلة من النزلاء اعتصاراً شديدا .

وحسبوا أنني مصيدة سمينة ... فالجسم الضخم والملابس الفاخرة والحقيبة المنتفخة والنزول على حساب وزارة السياحة التركية ... كل ذلك يدفع لحسن الظن بثراء صاحبها .

غير أن الخدم مالبثوا أن انصرفوا عني كما لم ينصرفوا قط عن احد ، بعد أن اتضح لهم أنني لا أملك ليرات لبنانية ولا أية عملة أخرى ... وأنني لست ، بسبيل امتلاك شيء منها .

ولم يسؤني أمر بقدر ما ساءني انطفاء لمعان الاغراء في عيون فتاتين اعتادتا الجلوس عن كثب مني دائماً في القاعة الرئيسية وكانت مظاهر خيبة الأمل من الوضوح بحيث لم تستطيعا اخفاءها .



وزارني في منتصف النهار السيدان النور سليمان القائم باعمال سفارة السودان في بيروت وصلاح أحمد محمد صالح الملحق الصحفي بالسفارة ، ولم أغادر الفندق طيلة ذلك اليوم تنطسا للأنباء وتعرفاً على الحالة .

وفي الغداة صحبني السيدان النور سليمان وصلاح أحمد محمد صالح الى الشاطئ حيث قمنا بطوفة سريعة ... وكان علم السودان يرفرف على السيارة فيوفر لنا الحماية والاحترام ... وقد راقني أن أرى الأمن مستتبا في تلك المنطقة ، ... والكازينوهات والبلاجات والمطاعم غاصة بروادها والسيارات تملأ الشوارع وحياة المرح الصاخب نشيطة موفورة .

اكذوبة كبيرة

وعرجنا عند العودة على شارع الحمراء ... فانفقت ليرات حصلت عليها من صلاح أحمد في شراء صحف وكتب ...

ولم أكد أقضي ثلاث أيام في بيروت حتى شعرت بأن ثمة أكذوبة كبيرة جازت على العالم كله ... فان هذه المدينة السياحية الكبرى التي يعيش أهلها على سخاء الغرباء والسياح كانت لاتزاول الثورة الا بين اللبنانيين فقط وفي غير المناطق التي يؤمها النزلاء ... اشفاقا على هذا المصدر الرئيسي للدخل من أن يتبدد ... اذ لو استثنينا أحياء (البسطة) والمطار وساحة البرج وسن الفيل ومنطقة القصر الجمهوري .. حيث تتبادل الطلقات النارية وتلقى القنابل والمتفجرات فان الحياة تسير سيرها العادي الى الثامنة مساء عندما يحين ميعاد حظر التجول .

والليل الشاحب الحزين خارج الدور والفنادق في بيروت يقابله ليل صاخب طروب طائش داخلها ... فهناك تخلع المدينة ثوب عذريتها وتندفع طليقة صاخبة واعرة ...

لا تقف نزواتها عند حد ... وربما تعالى ازيز الرصاص من الجنود وهم (يقوصون أحداً بعد الساعة المحرمة) ، أو من الثوار وهم يحاولون اثبات وجودهم من وراء الجدران وفي الأزقة والحواري الضيقة ـ دون أن يكف الشاربون عن احتساء كاساتهم ولا الراقصون عن

الـدوران في الحومـة ولا العـازفون عن ارسـال نغماتهم الصـاخبـة الحنون ... ولا المحبون عن ارتشاف رحيق القبل ...

نقيضان

لقد كانت بيروت تحاول آنـذاك الجمع بين نقيضين قل أن يلتقيـا ، أن تكون في وقت واحد وادعة طيبة كريمة مضيافة مرحة مع النزلاء شريرة وحشية باطشة مع أبنائها .

(والمعايش كما يقولون جباره)

☆ ☆ ☆

في السعودية

ممثلو صاحبة الجلالة ـ فضحونا فضحهم الله ؟

عندما زار الوفد الصحفي السوداني السعودية في نوفمبر عام ١٩٦٤ وجد أمامه عشرات الوفود من أقطار العالم المختلفة جاؤوا بدعوة من وزارة الاعلام لمشاهدة الوضع بعد أن تولى جلالة الملك فيصل سلطاته كاملة والاتصال بجلالته للحصول على المعلومات التي يشاؤونها وتقديم الأسئلة التي يرونها مناسبة ، فقد فتح الباب واسعا لكل من يريد أن يتحرى ، وكانت الاجابة على كل سؤال صريحة واضحة ، لا لبس فيها ولا إبهام . فليس هناك كما قال جلالته ما يخشى أن يخفيه وكان القطر كله يرحب بالباحثين عن الحقيقة ويعاونهم على الوصول اليها .

محبو المغامرة وصائدو الذهب

وقد دخلت السعودية في وسط هذه اللجة من الوفود الصحفية العديدة المدعوة ، وفود صحفية أخرى غير مدعوة ، ولا مطلوبة ، أغلبها من لبنان وسوريا وبعض بلدان أمريكا اللاتينية ، من محبي المغامرة وصائدي الذهب .. وكان بعضهم يعلن أنه بصدد اصدار عدد خاص . وكان البعض الآخر يعلن أنه بصدد تأليف كتاب ، وكل منهم يطلب أن يحصل على أحاديث من الوزراء والأمراء والكبراء والتجار ومديري الشركات والمصانع ، وليس القصد في الواقع هو هذه الأحاديث ولكن القصد استدرار الأكف ، واستنفار النخوة واختلاب « الضروع » واستعمال الذكاء لجمع أموال خيالية قيل لهم أنها منثورة على أرض الذهب الأسود ، لاتكاد تجد من يتناولها ؟ ومهما كان المرء غنياً أو كريما أو ذا يسر فان الأعباء التي تفرضها عليه المروءة والحياء لاتتعدى أن يترك حدود امكانياته وطاقاته ، ولكن الجراد الذي لم يكن يعتزم أن يترك أخضر ولايابسا ، إلا أتى عليه ؟ قد جمد بعض الصفات الكريمة وجعل أمر المقابلات للتحري الصحفي الخالص أمر غير ميسور إلا بعد

سعي والحاح ، وبفعل هذا السُعار المحموم الذي بدا وكأنه محاولة جديدة لرجل الغابة في معركة تنازع البقاء ، كاد الباب يغلق حتى على المخلصين في السعي وراء الحقيقة والذين سبق أن أبدت الدولة استعدادها الكامل لمعاونتهم في تحرياتهم ...

الخراب العاجل

والحق يقال ما الذي يستفيده تاجر في السعودية يبيع في دائرة ضيقة لا تتجاوز المدينة التي يعمل فيها من اعلان في جريدة تصدر في ريودي جانيرو (ان صح أن هناك جريدة تصدر لطالب الاعلان) وما الذي يستفيده مصنع ، انتاجه لايكاد يكفي جزءا من عشرة من حاجات السعودية في اعلان ينشر خارج السعودية (حتى وان ثبت بالدليل القاطع أن هذا الاعلان سوف يكون نصيبه النشر) ربما خجل صاحب العمل « ودفع » لصحفي واحد أو اثنين أو ثلاثة أو حتى عشرة اما أن يدفع لمائة أو يزيدون ، فهذا هو الخراب العاجل بل هذه هي الحماقة التي لاتماثلها حماقة .

لقد ابتليت السعودية بهذه الجيوش من الجراد ممن أسموا أنفسهم صحفيين ـ وهم ليسوا إلا طفيليات تمتص دماء الآخرين ومضوا يجوبون الوهاد والنجاد ولا يتعبون ولا يستنفدون ماء وجوههم .

أيوب

وقد ظل مع ذلك الشيخ غالب أبو الفرج مدير عام الصحافة والنشر (وهو رجل حكيم واع قدير حصيف ، عالم بنفسيات الناس) يمد الحبل ويبتسم ، بل ويوسع من ابتسامته ويستقبل كل من انتسب لصاحبة الجلالة بما يرضيه ؟ ، غير مدخر وسعا في فتح كل باب مغلق ، وجئته ذات يوم لأسمع حوارا غريبا يدور بينه وبين مندوبة وكالة أنباء في بلد مجاورة غير شقيق كانت تطمع في أن تقول فور وصولها : (افتح ياسمسم) فتنفتح أمامها الكنوز المليئة بالذهب والجواهر والدولارات والريالات ولقد قالت الصحفية : أنها غاضبة من بعض التصرفات وأنها لذلك لاتريد ضيافة الحكومة السعودية التي كانت تتمتع بها ... ولوت بوزها ، وصعرت خدها . ولعلها كانت تنتظر أن يحدث هذا التهديد تأثيراً عاصفا ... ولم يهتز طرف لأيوب أبو الفرج من هذه القنبلة المتحركة بل أجاب في سماحة

ورحابة صدر وضبط أعصاب كم حسدته عليها : اننا نحن العرب اذا استضفنا أحدا لا نطرده من ضيافتنا ، ولو أقام السنين المعدودات ولكن لهذا الشخص بمحض رغبته واختياره اذا شاء ، ان يتحول من الفندق الذي أصبح مقر الضيافة الى فندق آخر وبذلك يكون قد ضنَّ علينا بشرف كنا نود لو استمر ، اذ في هذه الحالة تنقطع الضيافة تلقائيا ...

ونظرت الفتاة الغاضبة مذهولة الى أبو الفرج وتريثت قليلا قبل أن تقول وقد لانت أساريرها ـ ولكنني سأبقى ؟

فأجاب دون أن تفقد ابتسامته اتساعها : على الرحب والسعة وخرجت تتعثر في خطواتها دون أن تتفوه بكلمة وداع ... وقد علمت أن هناك خطأ في فهم بعض الناس فان السعودية ليس لديها شيء تخفيه وليس لديها ما ترغب أن تشتري به سكوت الصحفيين أو كلامهم .. كائناً من كانوا ؟ وما على الصحفي الأمين الذي ينبغي اداء رسالته الا أن يكتب الحقائق كما هي بغير تلوين ولا رتوش وعن هذا الطريق يخدم السعودية ويخدم مهنته وصحيفته وقراءه .

ان السعودية عندما تدعو الصحفيين وتفسح لهم من صدرها وصدور المسؤولين فيها تريد أن تعطي العالم صورة عن واقعها ، أن يكون ضمير الصحفي وحده هو الحسيب عليه .. وان تنفي عمليا ما يذيع خصوم السعودية من أكاذيب وأراجيف حول الحياة فيها وليس مثل نور الشمس تبديدا للظلام ..

مع الأمير عبد الله الفيصل في جدة ...

حاولت عند هبوطي الى جدة في يوليو من عام ١٩٥٨ أن أقوم بجولات صحفية اتصل فيها بكبار المسؤولين ... غير أن هبوب ريح صرصر عاتية عليها قبل مقدمي بفترة قصيرة ، جعل مهمتي على جانب كبير مع العسر .

ذلك أن الاستاذ أبو بكر عثمان عمران كان قد مر بالمنطقة في طريقه الى اليمن وسبقه أو لحقه لا أدري الاستاذ (ا . ا) . وقد ترك كلاهما آثاره ... وسألت عن الوسيلة التي ألجأ اليها لمقابلة كبار المسؤولين فقيل لي أبعث ببرقيات وستحدد لك مواعيد ... وأرسلت برقيات ولكن لم تحدد لي مواعيد ؟

وظللت حائرا ..

وفجأة قابلت الشيخ منصور عطا الله رئيس الجالية السودانية في الرياض .. وهو صديقي وكان كما عرفته دائما ضاحك الوجه .. متفائلا ، يملأ مجلسه بالنكتة الحية والسمر اللطيف .. وقال لي بأسلوبه الصريح : تعال الرياض لتقابل اخوانك السودانيين وهم كثيرون وستخرج بنصيب الاسد .. كلهم متشوقون للصحف السودانية ولن يضنوا بدفع اشتراكاتهم بالطائرة ..

وأضاف منصور : ولكن لكي تسافر للرياض يجب أن يأذن لك وزير الداخلية . وكان الوزير هو الامير عبد الله الفيصل الشاعر الوجداني المعروف .. وشعرت بأن الموضوع سهل ولا يتطلب غير ساعة أو بعض ساعة . والصورة التي تكونت في ذهني من الأحاديث العامة أن الأمير شاب رقيق يعيش في عالم من صنع نفسه .. وأن في شعره ملامح من حياته ... وشخصت الى وزارة الداخلية في غداة ذلك اليوم ... وترددت ثلاثة أيام بعد ذلك لكي يُحدد لي ميعاد لمقابلة الأمير .

وفي منتصف النهار جاء الوزير .... وعندما شاهدته لم تتبدد الصورة التي قامت في مخيلتي عنه ... فهو شاب في الخامسة والثلاثين ناضر العود ضامره ، أنيس الطلعة ... مرسل المشية ... ليس في مظهره طغيان السلطان ، ولا تعالي الارستقراط ... استقبلني في مكتبه في لطف وتؤدة وابتسامة غير واسعة ودلني بحركاته وأساريره أنه غير منطلق لأمثال هذه المقابلات ودعا بالقهوة .

ونسيني حيناً ، حتى أنجز ما بين يديه من أوراق ثم رفع رأسه ، ونظر إلي نظرة ساهمة فيها حلم ووداعة وألقى إلي بكلمتين اثنتين ضمنها الترحيب ، ثم تحول الى مدير الشرطة يتحدث اليه هنيهة عن شؤون الأمن وكان يلمس الموضوعات لمسا ويعبر بها عبورا دون أن يتعمق ...

ثم انتقل الى الشيخ اسماعيل زهران الثري المعروف واستقر عنده هنيهة بحديثه حيث تبادلا الرأي عن دولارات زائفة خدع فيها اسماعيل ، ويبذل رجال الشرطة الجهد في التحقيق لمعرفة مصدرها .

وكان استقرار الحديث فترة ما عند اسماعيل ـ كما خيل الي ـ يرجع الى عناية شخصية أكثر مما يرجع الى جدية الحادث وخاطب الأمير بعد ذلك رجلا تكررت رؤيتي له في مجالس علية القوم بالسعودية ، يحسن قلقة الألفاظ ، ويحفظ الكثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ونوادر الخلفاء .. ولا ينفك يستظرف ويستجيد كل ما يقوله اولئك العلية ... وأخيرا عاد الأمير الي ... وهنا رأيت أن أحدث دوامة في الماء الساكن ... فقلت : ما رأيك في الانقلاب العراقي ؟ وظهر الاهتمام على وجه الأمير وانزاحت من أساريره علامات السأم .. وقال ـ كرجل يريد خوض لجة ماء ويخاف البلل فيرفع أطراف ثوبه بكلتا يديه : وما هو رأيك أنت أولا .. أجبت : ان الحقائق عن ثورة العراق لم تتكشف بعد لأمثالنا .. فالقطع برأي ربما لايكون صوابا وقال خلال الحديث كأنما يرد على شماتة خفية ظنني أحملها ، وما كنت بالشامت بل كنت مفجوعاً : يا سيدي ان العدل أساس الملك .. فلو عدلت الملكية في العراق لما أصابها ما أصابها ... ومضى يروي في صفاء وتحرر تفاصيل عن حياة أمير المؤمنين عمر الفاروق وما قاله رسول ملك الروم حين وجده نائما تحت ظل شجرة بغير حراسة : (عدلت فأمنت فنمت) .

وأشار وهو يفرع الأحاديث بأنه يفضل الصيد في غابات السودان على الصيد في بادية السعودية لأن الصيد في ادية السعودية يكلفه حوالي ٥٠٠٠٠٠ ريال ، وعلل ذلك بالتقاليد التي تدعوه لاستقبال رجال القبائل خلال الرحلة والاكثار من الولائم وتقديم الهدايا ...

وأخيرا عرضت عليه موضوع الاذن بزيارة الرياض فقال : ان هذا الاذن لا يملكه هو وينبغي ارسال برقية لجلالة الملك سعود .

وخرجت لأرسل البرقية ...

ثم مضى اسبوع ظللت اقطعه في ارسال البرقيات دون أن يؤذن لي بزيارة الرياض ... وعدت للسودان دون أن تتاح لي فرصة التمتع برؤية محيا منصور عطا الله المشرق ، وبالطبع دون أن تتاح لي فرصة التمتع بنصيب الأسد من كرم السودانيين هناك .

ولله في خلقه شؤون ...

☆ ☆ ☆

عبد الله بلخير

وفي السعودية قابلت في يوليو من عام ١٩٥٨ رجلا يسمى عبد الله بلخير من الحضارمة يشغل منصب وزير الثقافة ومنصبا آخر لا يضاف إلى اسمه ... ولا يعلن عنه .... وهو منصب الرقيب العام .

وفي المطار غرفة مكتوب على بابها (ممنوع الدخول) ارتفعت بداخلها أكوام من أوراق الصحف الممزقة ... هي من آثار المعركة اليومية التي يزاولها هذا الرجل . وقد قابلته لأول مرة في فندق قريش في جدة حيث كنت أنزل . وقدمت إليه رسالة من السفير السعودي في الخرطوم .

شكوى .

وشكوت إليه مصادرة الجمارك لحقيبة أوراقي والصحف التركية التي كنت أحملها في يدي ، وكانت هذه الصحف قد نشرت عني معلومات خلال زيارتي لتركيا ، كما نشرت أحاديث أدليت بها في مؤتمر صحفي . وملخص حديث أذيع من أنقرة .

وسألته أن يمهد لي الطريق للتعرف على الحالة في القطر السعودي والإتصال بكبار المسؤولين وقد أيدني في مطلبي الأستاذ سعيد رمضان قطب الأخوان المسلمين وكان ينزل في ضيافة الحكومة السعودية .

غير أن السيد عبد الله بلخير لم يعط أقوالي أية أهمية .. وقال أنه لا يملك من الصلاحيات ما يفك هذه الحقيبة أو يقدم لي أية مساعدات .

وأضاف في تواضع وهمس لقد سلبني الأمير فيصل كل صلاحياتي ، ثم أودع رسالة السفير جيب ردائه دون أن يقرأها .

وانزوى في ركن المقعد الذي يجلس عليه وبدأ في جسمه الصغير ورأسه المهزوز

وعينيه القلقتين وشفتيه الرقيقتين .. ووجهه الكالح وعقاله المنحرف ، اقرب الى منظر الطفل الخائف .. وغادر الفندق وهو يتقفز واحدى يديه ترتفع وتنخفض بالتحية .. والأخرى تمسك بعباءته البيضاء الواسعة التي لا تناسب حجمه وتزيده قصرا على قصر .

قطيعة .

وأنشب الحاضرون أنيابهم في سيرته فوصفه أحدهم بأنه بهلوان يمشي على الحبال .. ووصفه أخرون بالمكر وقالوا ان وضعه كأجنبي يفتح أمامه باب النفاق .. والآ سحق كما تسحق حبة قمح بين شقي الرحا .

وذكروا أن من آيات هذا النفاق موقفين للرجل .

أولاهما أنه قال حينما أمر مسؤول بقطع رأس رجل هاجم رئيس البلدية وطعنه بحربة طعنة غير قاتلة .

انها العظة والعبرة وهيبة السلطان وكأنما أراد أن يبرر هذا التصرف فلما نمى الخبر لجلالة الملك سعود وعبر عن شديد سخطه وغضبه وأصدر أمره بمعاقبة المسؤول عن الحادث .

قال عبد الله بلخير : أنه قتل نفس بغير نفس وأنه لمنكر عظيم .

استشارة .

وذهبت للمطار غداة ذلك اليوم وطلبت من الموظف الذي يعمل في غرفة الرقابة ... وتسمى الإذاعة على سبيل المبادلة ؟ ان يسمح لي بأن آخذ من حقيبتي نسخة من كتابي (شخصيات من السودان) فأجاب بأنه سوف يستشير عبد الله بلخير ..

وأخرج الكتاب ووضعه أمامه .. وعدت في الميعاد الذي عينه لي فقال إن الشيخ حمل الكتاب ليقرأه قبل إجازته وعدت بعد ذلك مرارا ... وكانت الإجابة في كل مرة من المرات واحدة وهي (أن الشيخ لم يعد الكتاب) وقضيت في المملكة شهرا وغادرتها ، والكتاب لم يزل في حوزة الشيخ ؟؟

سوء معاملة .

لقد عاملني عبد الله بلخير وهو الرجل الذي أوكلت إليه مهمة رعاية الصحافة والصحفيين معاملة قاسية غير كريمة ... ولا تتفق مع الروح الطيبة التي عرفت عن المسؤولين السعوديين ... ان عبد الله بلخير أغلق أمامي كل الأبواب ، ووضع العقبات في طريقي أينما ذهبت ، وحاول أن يقدم لي صورة غير مشرفة عن بلاد انتدبته لكي يقوم بالدعاية لها وينقل الصور الجميلة عنها للنزلاء عامة والصحفيين منهم خاصة ... فما الذي يدعو عبد الله بلخير لمثل هذه التصرفات ؟

أهو طابور خامس ؟

لقد دارت في ذهني خواطر كثيرة وأنا أعود للخرطوم .

وحتى هذه اللحظة لم أهتد الى الحقيقة الواضحة من هذه الشخصية الغامضة المهزوزة .

ومهما يكن من أمر فقد أقصي عبد الله بخلير من منصبه عقب عودتي للخرطوم بشهور قليلة .

وأنبأني بهذا الخبر السفير السعودي الذي كان متأثراً من المعاملة غير المناسبة التي لقيتها هناك رغم رسالة التوصية التي حملتها منه .

ولعله شعر بأن في هذا الأقصاء انتصارا له .

الشربتلي

ربما أمكنك أن تقابل الملوك ورؤساء الجمهوريات والأمراء ورؤساء الوزراء أو من يماثلونهم ولكن مقابلة الشيخ حسن الشربتلي المليونير السعودي الكبير تبدو أكثر عسرا ذلك أن طراز الحياة التي يعيشها المليونير يجعل وجوده في مكان معين ، في ساعة معينة غير معروف ، الا لخاصة الخاصة .

ويغلب أن يبدأ الشيخ الشربتلي تصريف مالديه من الأعمال المكتبية في الساعة الثامنة مساء ، ولا ينتهي الا في الثالثة صباحا بتوقيت السودان المحلي ...

وقد لا يغادر مقره التجاري الى داره الا بعد أداء صلاة الصبح ....

ولعل اختياره الليل لتصريف الأعمال المكتبية هو رغبته في التفرغ لها إذ أن النهار يمتلئ بطلاب الحاجات والوساطات وغيرهم ... أغلبهم من الأجانب الطارئين الذين تهافتوا على بلاد الذهب الأسود وسعياً وراء الثراء السريع أو طلباً للعون .

مقابلة

وقد قابلت الشربتلي عند زيارتي للسعودية في عام ١٩٥٨ وتم تحديد الميعاد في الثامنة مساء بتوقيت السودان المحلي عن طريق الشيخ جميل القمصاني أحد كبار موظفي وزارة الداخلية ومن أصدقائي الحميين وقد صحبني اليه ، ودخلنا من بوابة كبيرة في قلب سوق جدة اعتاد حارسها أن يحيل السائل عن وجود الشيخ الى المكتب .

وصعدنا سلالم عديدة وتحولنا من دهليز الى آخر حتى وصلنا المكتب وكان رحبا ممتلئا بالموظفين ولكنه عتيق الأثاث ، وحتى الموظفين كانوا يشابهون الأثاث في العتق ... وهذا اذا كان يعني في نظر البعض تأخراً فهو في نظري دليل الوفاء ...

وجلسنا الى الباشكاتب ... وهو رجل في السبعين من العمر يحفظ الكثير من الشعر العربي القديم ، ويحسن اكتساب القلوب ، قد ذكر أنه زار كسلا وسواكن وبورتسودان قبل الحرب العظمى الأولى ، وتحدث عن أسماء في السودان أصبحت الآن في ذمة التاريخ ...

وما هي إلا دقائق تناولنا خلالها مشروباً حتى صعدنا سلالم أخرى ، وتلوينا كالحيات في دهاليز آخذة في التغلغل ... وجلسنا في غرفة انتظار مكيفة الهواء .. وبعد نصف ساعة أو تزيد شربنا خلالها أيضا القهوة السعودية والشاي السوداني ، أقبل علينا الشيخ الشربتلي من باب جانبي في خطوات ثابتة ورأس مرفوع وقامة معتدلة ، وبعد الترحيب خرج بنا الى ساحة في أعلا المكان ، فرشت بالسجاد الثمين ونثرت عليه الوسائد ، وجلسنا على الأرض جلسة مريحة ... وحرصت منذ الوهلة الأولى أن أتعرف على الرجل الاسطورة الذي شغل العالم العربي بسيرته وثروته ، وراعني أنه كان أصغر في مرآه مما يبدو في صوره ، وأنه لولا أثر يسير في أنفه لكان أدنى الى الوسامة .

اصطدام

ودار بيننا حديث طويل فيه حرارة وقوة وصلابة وكأننا حينما كنا نتكلم يصطدم بحديد .

كان الشربتلي في عام ١٩٥٨ من أولئك السعوديين الذين يحبون مصر حباً جماً ... ويرون في نظامها خير النظم وفي أوضاعها خير الأوضاع ، وكان يتطرف في ذلك تطرفاً بالغاً يبعده عن حدود الاعتدال ، وكان على عكس ما يشاع عنه من (أمية) رجلا مبيناً واضح الحجة يجمع في ذهنه معلومات وأرقاماً وتواريخ لايجمعها بعض كبار المثقفين ، وكانت العاطفة تطغى على حديثه ... وقال انه استخدم جزءاً من ماله في مصر لثقته في النظام والقائمين به والأوضاع واستقرارها .. وكنت أنا كعادتي أحمل على النظام المصري في غير هوادة وأرى أن الأوضاع غير سليمة وان ثمة تحولات سوف تحدث وان أطماعا استعمارية سوف تغزو وتبطش وتعتدي .

وقلت : ان النفس البشرية هي النفس البشرية ، والأطماع هي الأطماع .. واذا

وجدت الأسباب وتهيأت الظروف ، فسوف تسير تلك الدولة الى غايتها ، غير عابئة ولا مكترثة ولا يفل الحديد الا الحديد .

سخط

ولم يطل بنا المقام .. فانني بحديثي عن مصر لم أرضي الشيخ حسن الشربتلي وهو بحديثه عنها لم يرضني ...

وتناولنا مثلجات وجاء كهل وفتى وسيم اشتركا معنا في تناولها وتغير مجرى الحديث ونهضت ونهض صاحبي الشيخ جميل القمصاني ساخطا عليَّ غير راضٍ عن اغضابي للشيخ الشربتلي . ولسخطه سبب فهو يريد لي الخير ، ولكنني رجل أترك نفسي عادة على السجية وقد أحاول النفاق أحيانا فلا أستطيع وقد أحاول الارضاء فلا أستطيع والى ذلك يرجع أكبر الظن ما منيت به من فشل أينما ذهبت .

اللهم لاشماته :

وكان أول ما خطر ببالي عندما وجدت نفسي في جدة مرة أخرى عقب رجوعي من الرياض في نهاية العام الماضي (١٩٦٤) وكان الوقت أمامي فسيحا أن أزور الشيخ حسن الشربتلي فقد علمت أن النظام المصري الذي كان يحمده الشربتلي والأوضاع المصرية التي كان يصفها بالاستقرار ، قد صادرت من أمواله ماقيمته ثمانية ملايين من الجنيهات ؟؟ وان الحب الذي كان يكنه لمصر قد انقلب الى عداء سافر قوي عنيف ...

وأحسست بأنني قد كسبت موقعاً هاماً :

وكنت أود أن أقابله لأذكره بالحديث الذي دار بيننا أمام الشيخ جميل القمصاني ... وكانت هذه حماقة مني ... ولكنني هكذا خلقت ... فقد تركت مقابلتنا في عام ١٩٥٨ في نفسي يوم ذاك آثارا عميقة الغور ولست (رغم بساطتي وسذاجتي ومظاهر طيبتي) ممن تبرأ جراح نفوسهم في يسر .

الجراد

وقصدت الى مكتب الشيخ الشربتلي في الصباح لأحدد ميعادا فوجدت جيشا من

(الجراد اللبنـاني السـوري الـلاتيني المشترك) ... وكان جيشـاً جراراً مـلأ المكتب حتى فاض ... وقيل لي أن هؤلاء صحفيون سمعوا بـاسم الشربتلي ويريـدون أن يتعرفوا عليـه ، أو بعبـارة أكثر صراحـة يريـدون أن يستضيئـوا ببريـق الـذهب ... ووجـدت البـاشكاتب الشيخ نفسه ... ورغم مرور سبع سنين على مقابلتنا الأولى فقد تذكرني ونفحنى بأبيـات من الشعر وقدم لي مشروباً .

وانصرفت وجئت في الظهر فوجدت جيش الجراد لم يزل في مكانـه لايريم وقـد ازداد عددا وعدة وتمـددت أطرافـه ... ووجـدت البـاشكاتب الشيخ وهو يهم بمغـادرة المكتب الى منزله في صحبة ابنه فنـاولني (على المـاشي) بيتـا من الشعر وكلمـة لطيفـة وأثنى على ابنـه وبره به .

وجئت في الخامسة مساء فإذا بجيش الجراد قد انتشر في الدهاليز والسلالم والقاعـات ، ولم يعـد هنـاك موضع لقـدم وأطل على البـاشكاتب الشيـخ من فـوق الرؤوس .. وقـال : تكاثرت الظباء على خراش فما يدري خراش ما يصيـد ... وعـدت في الثـامنـة مسـاء فـإذا بجيش الجراد لم يسـأم وكان البـاشكاتب الشيـخ قـد مضى الى عشــه فهـو رب أسرة مثــالي وانصرفت بغير شعر ولا مقابلة .

علوم كذلك

وفي الصباح عاودت المرور على مكتب الشربتلي فإذا بجيش الجراد مقيم كما يقيم الـداء الوبيل ، ولكنـه لم يحـظ بـالمقـابلـة المبتغـاة ... ومضى بعضهم يحبر رسـائـل لكي يبعث بهـا للشيخ .

ولعل هذا الجيش لايعرف اليأس ... انها مهمة من أبرز أسباب نجاحهـا ، أن يضيف المطلوب بشدة الحاح الطالب ، فيرى السلامة في صرفه مهما غلا الثمن .

وأدنيت فمي من اذن الباشكاتب الظريـف الذي يسيل رقـة وعـذوبـة ويتسع صـدره لكل هذه الآفات ... وقلت : هل بات هؤلاء الليل هنا ؟ فأجاب : (وهو يغمز بعينيه) لا أدري لقد خرجت وتركتهم هنا وعدت فوجدتهم حيث تركتهم أسأل البواب فعنـده الخبر اليقين ...

ثم نصحني الباشكاتب الشيخ كما ينصح الصديق صديقه ، وقال عليك بالدار ... الدار ... (ومد اللفظة مدا شديدا) .

فأجبت : أنني لا أريد ما يريدون انما هو نقاش ناقص أحببت أن أتمه قال : كلهم يتحدثون مثلك ثم يتحولون الى الموضوع الأصلي ...

أجبت : لقد سبق أن مررنا بالدار (تلك التحفة الأنيقة) فإذا بها خالية ... فقال : انه الحظ يقبل مرة ، ويدبر أخرى وأنشد بيتاً من الشعر ...

عودة

وعدت من السعودية دون أن تتاح لي مقابلة الشيخ ودون أن يدور بيني وبينه حديث طلي أسمع فيه نغمات الكراهية للدولة التي صادرت من أمواله ثمانية ملايين جنيه ؟ والشربتلي رجل غني جدا وربما بلغ ما يملكه أكثر من مائة مليون جنيه .

وفقدان ثمانية ملايين جنيه لم يؤثر على أعماله وإنما حرك شفتيه بالقدح بدل المدح .

ويعتبر الشربتلي من أكثر الناس عصامية فقد شق طريقه بقوة ساعديه أولا ، ثم بقوة عقله ثانيا ، ثم بمثابرته وجهاده واجتهاده ودأبه وصبره على كل الأحوال ثالثاً .

وأهم أعمال الشيخ الشربتلي ، التصدير والتوريد ولديه الآن مطابع كبرى تصدر صحفاً يومية ، كما أن لديه أملاكا ومؤسسات مختلفة في السعودية ولبنان .

ويمتاز الشربتلي رغم عدم تعليمه بذكاء خارق وأسلوب ناه صارم في ادارة أعماله لا يضارع ، وذاكرة حية معجزة تحصي الملايين في ثوان ، ولاحدَّ لكرم الشربتلي ...

ولكنه يحرص على أن يضع الاحسان حيث يجب أن يوضع ويصرف المال على الوجوه التي ذكرها القرآن الكريم والحديث الشريف .

وتحركات الشربتلي تحاط بسرية تامة وهو كثير التنقل لمراقبة أعماله وتصريفها ..

واقامته المستديمة في جدة ، وتوجد فيها أسرته ...

وثمة خبر رُوي لي أخيراً وهو أن الشربتلي حين تُوفي ، وُجد مـديناً ؟ وأن ورثتـه لم يحصلوا على كثير .

ورغم غرابة الخبر فإنه قد يكون صحيحاً ... ولعل هناك حقـائق لا نعرفهـا في حيـاة الشربتلي ...

والأمر لله من قبل ومن بعد .

جاسوس مصري ؟

في العشرين من نوفمبر من عـام ١٩٦٣ كنت أتنـاول الشـاي في الخـامسـة صبـاحـا في مقهى مطار جدة ، وانتظر دعوة الميكروفون لركوب الطـائرة الى الريـاض ، وحـانت مني التفاتة فخيل الى أن الكهل المصري الذي يرتدي الملابس الأفرنجية ويشغل المائـدة المجـاورة لي ، غير غريب عني ، فأمعنت النظر فيه فإذا بي أجـدني أمـام الـدكتور (....) المهنـدس والمقاول المصري المعروف .. وفي هذه اللحظة تداعت على مخيلتي الـذكريـات فقبل عشرين عاما كنت أتردد يوميا على الـدكتور (....) حين كان يقوم ببنـاء مـدرسـة في الخرطوم ، وأنقل عنه ، وعن ناظر المدرسـة بوصفي مـديرا لمكتب الأهرام في الخرطوم ، جهودهمـا في البناء ، وجهودهما في تـذليل العقبـات التي كان يضعهـا البريطـانيون وجهودهمـا في تـذليل العقبات التي كانت تضعها وزارة المالية المصرية .

وكان بعض ما أنقل مبالغا فيه ، ومطلوبـا مني للرجلين لكي يلمع أسماهمـا في القـاهرة بل كان بعض ما انقل كذبا محضا لا مكان فيه للصحة ولا للحقيقة ولكن كان مطلوبـا مني أيضـا للرجلين لـزوم التفخيم والتضخيم اللـذين يحبهما المصريـون (مـوت) .. احتضنت (....) في حرارة ، فقـد كانت للرجـل عليّ في بـدايـة عملي الصحفي حسنـات مـا زلت أذكرها فأشكرها .. والحسنات ربما لا تكون مادية ، فإن الكلمـة الطيبـة والتوجيـه الرحيم من مهنـدس عـالمي في مركـز الـدكتـور يـوم ذاك كانت تسـاوي كثيرا بـالنسبـة لصحفي مغمور ، يتعثر في طريقـه نحو الشهرة أو مـاتوهم إنهـا الشهرة ، وجرى بيني وبين الـدكتـور حديث طويل شائق لم ينته إلا عند مطار الرياض فللصداقات القديمـة طعم عـذب محبب يبعث أقصى غايات الإرتياح ..

مفاجأة .

ونـزلت في فنـدق اليامـة وهـو من أكبر الفنـادق في المـدينـة بـل من أفخم الفنـادق وأكثرها توفيرا لأسباب الراحة والرفاهية في الشرق الأوسط .

ويتكون الفندق من خمسة طوابق وأربعمائة وخمسين غرفة ... ويمتاز بأنه له أجنحة لنزول العائلات .. والشخصيات الكبيرة كما أن للفندق ملاحق سكنية أشبه بمنازل صغيره يستقل فيها المرء استقلالا كاملا في حياته إذ شاء يضاف الى ذلك أن به جراجات للسيارات ، وغرف جانبية مخصصة للخدم والأتباع ، وهبطت في الصباح الى بهو الفندق وقابلت على غير انتظار الدكتور ..... وكان أنيقا محتفظاً بكثير من مظاهر الشباب رغم أنه في حدود الخمسين .

ولاحظت أنه يأمر وينهى في الفندق كأن له شأنا غير شأن الضيف صاحب الامتياز الخاص ، وكان مدير الفندق اللبناني يتظاهر أمامه بأقصى ما يمكن أن يظهره كائن له كرامة من خضوع وطاعة .. واحترت من هذه الظاهرة وفيما كنت أهم بالسؤال إذ بالدكتور نفسه يتقدم نحوي وهو يقول منذ اليوم أنا صاحب الفندق ـ بموجب (كنتراتو) يعطيني حق إدارته لعدة سنوات ... ودعاني للدخول الى مكتب يقع وراء حجرة الاستقبال وهناك ... بين الشاي الأحمر الذي يحسن الفندق صنعه ... ودخان النارجيله الذي يصطنع فيما أحسب اصطناعا الإدمان في تدخينها ... راح يحدثني في شيء من الإعتزاز وشيء من الإرتياح كيف أن الاتفاق تم بينه وبين (بن لادن) وكيل صاحب الفندق الأصيل على تأجيره بأجر سنوي يبلغ خمسين ألف جنيه .. وسألته في صراحة مطلقة اعتدت أن أحدثه بها في الخرطوم ، وقد ارتفع حاجباي علمت أن (بن لادن) كان يشكو من أن الفندق يخسر بإطراد أو بالأصح لا يستفاد منه الفائدة التي تنتظر من أمثاله فكيف تؤجره بهذا المبلغ الكبير ثم تغطي مصروفاتك وتكسب ؟ ..

فأجاب : إنني لم اؤجر هذا الفندق وحده بل أجرت معه الفندق الآخر ويسمى (زهرة الشرق) والفندقان يدران الذهب لو وجدا إدارة حازمة وعملا متصلا .. ورقابة على العمال وتوفيرا في الصرف بل وتوفيرا في عدد المستخدمين والموظفين .. وافترقنا مازالت علامة الاستفهام ترتسم في خاطري ...

نجاح

وفي ذلك المساء تمكنت من علاج مشكلة طرأت بين العمال .. السودانيين في الفندق والدكتور لم أحتج الى أكثر من عشرين دقيقه لكي أصل الى التسوية المشرفة فقد طالب

العمال بمكافآتهم عن المدة السابقة وكانت الاستجابة لهذا الطلب من بين الشروط التي وضعها (بن لادن) فلم تحتج لنقاش .. وطالب العمال بأن تعطى تذكرة الطائرة الى السودان ومدة الإنذار القانونية لمن لايود من العمال الاستمرار في العمل .. أو لمن استغنى عن الفندق ... وقد وجدنا هذا النص غير واضح ولكن الدكتور وجد فيه عدالة فقبله في الحال .. وطالب العمال بأن يعطي العامل منهم إذا أنهى مدة خدمته في أي وقت في المستقبل سواء أكان هذا الاستغناء من قبل المخدم أو من قبل الشخص المستخدم ، ... أن يعطي تذكرة الطائرة الى السودان والمكافأة القانونية وقد توقف الدكتور قليلا عن هذه النقطة ولكنه لم يلبث أن قبلها ... وأن بدا أن قبوله لهذا الشرط كان على مضض ... وكانت أول سفارة ناجحةً قمت بها وكدت أقول أول عمل ناجح قمت به .

لماذا ؟

وبعد عدة أيام شرح لي الدكتور الأسباب التي اضطرته للجوء الى السعودية ... فقال أن أعماله في الاسكندرية أممت وأنه فقد في التأميم حوالي ستين ألف جنيه نقدا ... ؟ وقال ان معرفته ببعض الأفراد السعوديين المعروفين والشخصيات السعودية الكبيرة اعانته لكي يحصل على الجنسية السعودية ولكي يعين في منصب مهندس القصور الملكية ثم لكي يفوز بعطاءات مجزية أفاد منها الكثير من الأرباح . وقد نهض بعد كبوة وكون بعض الرصيد .. وقال أنه يقوم الآن بإنشاء المجاري العامة في الرياض وسوف يقوم بعدها بعدة مشروعات كبرى ربما أدت الى وقوفه على قدميه تماما .

وظللت بعد ذلك اجتمع بالدكتور يوميا في مكتبه خلف حجرة الاستقبال أو في مكاتب أخرى جانبية أحسن أعدادها بالفرش الوثيرة والمقاعد المريحة والسجاد الفاخر الذي تغوص فيه الأرجل . وكان يجتمع إليه بانتظام وفي أوقات مختلفة لبنانيون وسوريون وفلسطينيون وأردنيون ومصريون بالإضافة الى السعوديين ...

وقد قدم لي بعضهم فإذا بأحدهم وكيل وزارة والآخر مدير عام والثالث خبير .. الخ وكلهم على ما يظهر قد تجنسوا بالجنسية السعودية .

علامات استفهام .

وكان الدكتور كثير الحديث عن مصر كثير السخط على الرئيس جمال عبد الناصر كثير التغني بمحامد الملك فيصل وما قدمه من خدمات لبلاده .

وذات يوم حمل أليّ خبراً وصفه لي بأنه بشرى قائلا : بأن مالية مصر قد اضمحلت إذ أن هناك عجزا قدره سبعون مليوناً من الجنيهات وقال هذا ما ذكره هيكل ولكن ما خفي أعظم ، وأن الاشتراكية والتأميم لم يَجُراً على مصر غير الخراب وأضاف أن النظام الجديد في مصر أخذ ينهار بالتدريج غير أنني لا حظت أنه عندما يهاجم مصر يهاجمها في إتزان فلا يكاد يعلو صوته أو يتحمس أو ينفعل .. كأنه يجري عملية حسابية .. كما لا حظت أنه كثير الخلوة بأشخاص من مختلفي المهن والهيئات والمراكز ، وأن المكاتب التي أعدت في الفندق لإستقبال الزوار إنما أعدت خصيصا لهذا الغرض ... ولم أستبعد أن له صلة بالتهريب ... وقال لي في حديث ، ونحن على انفراد : أنه يحن الى مصر حنينا شديدا ولكنه لن يدخلها في ظل النظام الراهن .. وقال لي أيضا : أنه لا يريدني أن أكتب عنه شيئا في الظرف الراهن وأنه يريد أن يعيش في هدوء وبعيدا عن الأضواء وقد طلب اليّ في إلحاح أن أكون عند حسن ظنه وفي هذا الشأن ...

وقد أثار هذا الالحاح استغرابي واهتمامي لأني أعلم عنه في الماضي رغبة حارقة في الشهرة ... وسعيا ملحا لكي يكون لأسمه دوي في كل مكان وجرى في نفسي شعور بأن وراء هذا الرجل سراً وان لم أكن أدري ماهو هذا السر ؟ وزاد من هذا الشعور قوة هو القلق الذي أحسست أنه يعيش فيه .. لا لكثرة صلاته ودعواته المتكررة ولكن كثرة ارتيابه في كل رجل يقدم إلى السعودية وينزل في الفندق ، وسؤاله عن هويته وعن أغراضه وهل هو مخلص للسعودية أم عون لمصر ؟ ويد من أياديها ؟ وغادرت الرياض وتركت الدكتور في أحسن حالاته كما كنت أعتقد فقد كان يزوره الأمراء ويعقد محادثات مع رؤوساء المصالح والمسؤولين فيها عن كل ما يخص أعماله ويستطيع أن ينجز فيها ما يريد انجازه في ردة الطرق .. وكان منظورا إليه بمنظار العطف والتقدير وكان يريد أن يتوسع ويعبر عن رغبته في التوسع باستمرار أو لعل الحبل كان يمد له الى أوسع مدى لحاجة في نفس يعقوب .. فإن السعوديين كالسودانيين يكتمون انفعالاتهم ويصابرون ويرابطون الى

أن تتم اجراءاتهم وتستوفي أدلتهم ، وفجأة سمعت أن الدكتور طرد من السعودية لإتهامه بالتجسس لحساب مصر وأن ابنه يتولى تصفية أعماله وهو شاب واع على جانب من الكياسة وحسن الأدب .

ورغم نحوله الواضح ودمامته وقصره فقد كان متفتحاً للحياة لا يحمل حقداً ولا تعقيداً .

اجراء رحيم .

وهذا إجراء رحيم عرف عن الملك فيصل المعظم .. فإن عفوه عادة يسبق عقابه وحلمه يسبق غضبه ... لم أشعر باستغراب للخبر الذي أذيع عن الدكتور فقد فسر الاتهام كثيرا من الألغاز التي كانت تحيط بالرجل ، ولعل تأجير الدكتور لفندق اليامة وزهرة الشرق أكبر فندقين في الرياض وتخلي (بن لادن) عنهما بهذه السهولة غير المعتادة كان المقصود منها إتاحة الفرص من قبل السلطات السعودية لمراقبي الدكتور لكي يركزا تحرياتهم على نطاق أكثر ضيقا ولكي يطيلوا للرجل الحبل الذي يشنق به نفسه بحيث يتيسر القبض عليه وهو في حالة تلبس .

إذ لا يخفى أن للسعودية جهازاً للتحري على أتم ما يكون من الدقة .. والحذق والمصابرة وأن لديهم عدالة نزيهة لا تقبل الحكم لمجرد الاشتباه ولقد أفاد الخبر بأبعاد الدكتور أن عددا أخر من المصريين وغيرهم وبينهم نساء طردوا أيضا لثبوت تهمة تعاونهم معه ..

والحقائق على أي حال حول هذا الموضوع لا يتيسر الكشف عنها ، نظراً للسرية التي اعتادت السعودية أن تحيط بها أعمالها وخاصة في كل ما يختص بشؤون الأمن .

حسن محمد حسن

كان السيد حسن محمد حسن الشريف الممثل الدائم للأمم المتحدة في السعودية عام ١٩٦٤ وكان مقره الرئيسي الرياض .. وقد كان السيد حسن محمد حسن أحد رجال وزارة المعارف السودانية ثم انضم لوزارة الخارجية ، فلمع فيها خلال ملأه منصب مستشار سفارة السودان في لندن عام ١٩٥٧ ... واختير للعمل في الأمم المتحدة منتدباً فازداد لمعاناً وتألقاً .. ثم انضم اليها نهائياً (١٩٦٢) بعد أن أصبح ممثلا دائما لها في السعودية ، وأعترف للسيد حسن محمد حسن الشريف بأنه رجل ناجح جدا في عمله ... فقد استطاع أن يشرف على مؤسسات الأمم المتحدة في ذلك القطر الشقيق إشرافا فعالا ... وينظم الخدمات التي تقدمها ويساعد خبراء الأمم المتحدة الذين يفدون للمعاونة في شؤون التعليم أو الصحة أو غيرها من ألوان الخبرات على تيسير مهامهم تنسيق العمل بينهم وبين الدوائر المحلية المختصة - ويتعرف على المطالب الحقيقية والضرورية للمملكة فيسعى الى تنفيذها .

لقد استطاع بلباقة رائعة ... أن يلائم بين عمل الأمم المتحدة ورغبات الحكومة السعودية ... فأرضى كلا الجانبين أو بعبارة أكثر وضوحا جعل الأمم المتحدة تنال ثقة الحكومة السعودية بثقتها في ممثلها فتعطيها مزيداً من الحرية في التصرف وتقديم خبراتها على شتى أنواعها .

وقد أفاد بهذه الملاءمة الأمم المتحدة والسعودية معا .. ان الأمم المتحدة تضم أشتاتا من الموظفين سواء أكانوا إداريين أو خبراء ، ينتمون الى شعوب مختلفة ، ولا تستطيع أية دولة إذا كانت في مثل حرص السعودية على التزاماتها الوطنية والدينية أن تفتح صدرها للرجل منهم إلا إذا كان هذا الرجل قد وصل إلى موضع الثقة منها ، ولن يصل الى هذا الموضع إلا بعد ممارسة دقيقة يمتحن فيها إخلاصه وتفانيه وتجرده من الغايات ذات الطابع غير الصديق ، أو غير المنسجم أو غير المطلوب ولذلك فإن وصول السيد حسن محمد حسن

الى هذه الثقة بل وصوله الى الرضا الذي يعقب الثقة بخاصة لدى الجهات العليا في المملكة ، حدثٌ في حد ذاته جدير منا بالعناية نحن السودانيين الذين ينتمي إلينا السيد محمد حسن .. أما كيف بلغ السيد حسن محمد حسن الشريف هذه المكانة في السعودية ؟؟

فيرجع في نظري إلى عاملين :

الأول ـ تقواه التي لا شك فيها ، والتي تكاد تلتقي أحيانا بالاتجاه الصوفي .. وتقوى حسن محمد حسن ليست مقصورة على الصلاة والصيام والقيام .. وميكانيكية الدين .. بل إلى روحه ... فهو شاب صادق أمين ... عفيف اليد واللسان والرداء ... وَقَى الناسَ شَرَّهُ ـ وأتقى شرَّهَم ، يخالفهم بخلق حسن ويحفظ غيبتهم ، ويخشى الله فيهم ... والتقوى الصادقة ـ في السعودية هي المفتاح السحري الذي يفتح أمامك كل الأبواب لأنها في واقعها ميزان دقيق تشيل فيه كفة الزيف والانحراف .... والبهلوانيات والتمثيليات ولا يصح فيه غير الصحيح .

إن الأرض الطاهرة بحق لا تعرف إلا الطاهر بحق ...

أما العامل الثاني فهو قدرته الخارقة على التجاوب مع الآخرين ، والاندماج فيهم ... والسير وفق محابهم وتجنب مكارههم ، وهي خصلة عبقرية لا تتأتى إلا للقليلين النادرين .. كما أعترف للسيد حسن محمد حسن بأنه قد نجح في تكوين قدر من الثروة ظل حريصا عليها دقيقا في اتفاقه عاملا على الاستزادة ما استطاع .. وقد قابل وفد الصحافة السودانية السيد محمد حسن في الرياض ... عند وصوله وكان يلبس اللباس الأفرنجي .. ثم قابله وهو يلبس الجلباب والعمامة السودانيين .. وذهبت بمفردي الى مكتبه مرارا ... ولا أدري وقد قضيت في مستشفى الرياض أسبوعين أشكو علة أتضح بعد الفحص الدقيق الذي تولاه خبير ألماني إنها ليست كما توهمت .. هل دعا زملاء الرحلة إلى تناول الشاي أو الغداء أو العشاء ، كما فعل السيد (البنا) أحد كبار المواطنين السودانيين المتازين الذين يَقدرون سودانيتهم ويقدرون من يحملونها وكما فعل غيرهم ؟؟

أما أنا .. فلم يزورني السيد حسن في مرضي وقد كان مرضي لو صح خطير وهو القلب ، ولم يدعني على سبيل المجاملة أو سبيل التأكيد الى مائدته بينما فعل ذلك من السودانيين هناك كثيرون .

وليس ترحيبي بمثل هذه الدعوات ترحيب طالب الشهرة أو الظامئ الى القبول بين الناس ، ولكنني كنت في وحدة وكنت مريضا ... وكان طبيعيا أن أتطلع إلى بعض مشاعر العطف من مواطني .

وخلت ساعة من نهار أن السيد حسن محمد حسن قد انصرف عني لأن بعض زملاء الرحلة ذكروا له أنني عدو للحكم القائم يوم ذاك .

وأن البعد عني من حسن السياسة ولكنني عدت عن هذا التخيل لمعرفتي بأن السيد حسن محمد حسن شاب تقي ... والتقوى تمنح المرء حصانة ضد الوصولية والذيلية ... إن التقوى تعني الإيمان والإيمان شجاعة وقوة .. وهل يخشى المؤمن غير الله ؟؟ وهل يرجو غير الله ... وخلت ساعة من نهار انه البخل ولكنني راجعت نفسي فما سمعت ممن تحدثوا عنه هذه الصفة (وأن لم يشتهر بينهم بالكرم أو ما دونه) ثم رددتها أخيرا للمشغولية ـ مشغولية العمل ، ومشغولية العبادة ومشغولية الأسرة ـ مشغولية والسلام ـ واسترحت لهذا السبب ، وكان لا بد من أن أستريح إلى سبب ، فإن السيد حسن محمد حسن بالإضافة الى سودانيته جاري في الخرطوم بحري .. وللجوار حقوق .. وتذكرت وأنا في الرياض الأعداد الخاصة التي أصدرها (المصور وآخر ساعة) وبعض الصحف اللبنانية عن السعودية بل الإعداد الخاصة التي أصدرها بعض اللبنانيين عن السودان والتي يعتزم بعض المنتمين الى الصحافة المصرية إصدارها عن السودان وتركتهم في الخرطوم يتجولون وبصحبتهم الزميل ـ عصمت يوسف ـ .

وتحدثت في هذا الشأن الى السيد حسن محمد حسن فشعرت من أحاديثه رغم العبارات اللطيفة التي تخللتها إنه لا يوافق ... أو على الأقل لا يرى ثمة جدوى تعود علي من إصدار مثل هذا العدد الخاص .. ولعله يريد بروحه العالية الحفاظ على الكرامة السودانية ، وفي جده ... أحسست أن أصحاب المصانع والتجار والناس على وجه العموم لكثرة أولئك الذين أخذوا يمرون عليهم لإصدار إعداد خاصة أصبحوا يتبرمون ويضيقون ذرعا بهذه المحاولات .. وشاورت السيد (فقيده) وهو شاب سوداني باذخ كريم .. فأشعرني بأن مثل هذه المحاولات أصبحت لا تجدي لكثرة الصحفيين ولكثرة المطالبات ولعله يريد بروحه العالية الحفاظ على الكرامة السودانية أيضا ؟؟

وتمنيت بيني وبين نفسي لو كنت كصديقنا سعيد فريحه صاحب (الصياد) و (الأنوار) و (الشبكة) في لبنان ، يقفز من قطر الى قطر دون أن يشعر بحاجة إلى إصدار أعداد خاصة تقف دونها الكرامة اللبنانية .. ولا هم إلا التمعن في السيقان الممتلئة والخدود المتوردة والعيون ذات السهام .. وله الحق ما دامت العمارات قائمة ، وأرصدة البنوك وفيرة ... وبلاده لا يتسيطر عليها حزب شيوعي .. أما أنا وقد ظللت أشهراً معدودات أعاني دوارا متصلاً لا أكاد أعرف فيه أين رأسي من رجلي ... ولا أحسُّ إلا بالتعاسة وتعدد المسؤوليات وثقلها وعبئها .. وفداحتها .. فلم أكن أفكر إلا في الظلام الدامس الذي يحيط بحياتي المقبلة بل الظلام الذي يلف السودان كله في أيامه المقبلة ...

والمثل السوداني الذي يقول (المصروم ولا عاقل) هو ترجمة للمثل العربي القائل (صاحب الحاجة أرعن) ..

سعيد رمضان

عرفت سعيد رمضان في القاهرة عام ١٩٤٩ وكانت حملة الرئيس ابراهيم عبد الهادي على الاخوان المسلمين على أشدها عقب مقتل النقراشي ورغم أن سعيداً لم يكن من أعضاء الاخوان البارزين الذين اتجهت اليهم الأنظار يومئذ ، الا أنه كان يؤثر التخفي والتقية وحفظ اللسان عن الخوض في أمر يضر به ولاينفع غيره ... وكانت مقابلتي له عن بعد ، وكانت مقابلة عابرة وسريعة ، وكنت يوم ذاك أشترك في وفد صحفي سوداني دعي دعوة رسمية وأفسح له المجال ، رغم قيام الأحكام العرفية في التعرف على الحياة المصرية في نطاق محدود بحدود برنامج وضع مسبقاً .

وقابلت سعيد رمضان في عام١٩٥٨ ... وكان هو وعبد الحكيم عابدين وآخرون من أقطاب الاخوان المسلمين الهاربين قد قدموا الى السعودية تحت ستار أداء فريضة الحج التي لا تستطيع المملكة أن تحول بين المسلمين وأدائها مهما كانوا وكيف كانوا ، وقد التقوا هناك بحشد ضخم من رؤساء أقسام الاخوان المنتشرين في مدن مصر وقراها والذين جاؤوا تحت ستار أداء فريضة الحج .. أيضا .. وقد شهدت بعضهم يجتمعون بسعيد رمضان وعبد الحكيم عابدين في قاعة كبرى من قاعات فندق قريش وسمعت طرفاً من أحاديثهم بعد أن أشار اليهم سعيد رمضان بأنني صديق وكان الحديث جاداً وصريحاً وخطراً . وكان عبد الحكيم عابدين ينظر الى المجتمعين بعينين متسعتين تخلوان من التجاوب وومضات الحماس ، وكانت الظاهرة الوحيدة التي تدل على أنه حيّ وموجود ، قضمه لأظافره باستمرار .. وعلمت بعد ذلك أن الاخوان عقدوا مؤتمراً بعيداً عن الأنظار ، حيث وضعوا ماشاؤوا من الخطط وأبرموا ما شاؤوا من الاتفاقات .

وأعطاني سعيد رمضان بنفسه ذات صباح منشوراً غير موقع عليه ، فيه حملة شعواء مركزة على الحكم القائم في مصر وعلى النظام الاشتراكي الذي يراد تطبيقه ، وعلى الجهود

المبذولة باسم الحرية والدين لمعارضة الحكم والنظام معا ، وكان ماجاء في المنشور قويا ومعدا اعدادا دقيقا : أسلوبا ومعنى ، وكل ذلك يحتاج الى وقت ، ومطبوعا طبعا راقيا ووفيرا وكل ذلك يحتاج الى وقت أيضا ، ففهمت بغير مشقة أن المنشور ربما تم وضعه في لبنان ، منذ فترة غير قصيرة .. وقد فهمت بغير مشقة من ذلك أن المؤتمر الذي عقد في أيام الحج كان متفقا عليه ، منذ فترة غير قصيرة كذلك كما فهمت بغير مشقة أن الاتصال كان قائما ومنتظما بين زعماء الاخوان خارج مصر والاخوان داخلها في صورة دقيقة متقنة .

وكان سعيد رمضان عندما أعطاني المنشور يعرف بغير شك أنني صحفي ، فهكذا قدمت له نفسي ، وهكذا قدمني له الكارت الذي أحمله ، ... وبهذه الصفة كنت أحادثه وأجادله ...

ولم يكن يعلم أنني صحفي فحسب بل كان يعلم أن صحيفتي تناوئ النظام الحالي في مصر ، وان كانت مناوئتها لذلك النظام ، قائمة على أساس مختلف عن مناوءة الاخوان ، إذ لم نكن نعني بشؤون مصر الداخلية ولا نحب أن نتدخل فيها ... ونطلب من مصر أن تعاملنا بالمثل ، فتنصرف عن شؤوننا الداخلية ولا تتدخل فيها . وتتركنا وشأننا ، فقد اخترنا الاستقلال عن بينة ، ونحن على استعداد لصيانته والتضحية في سبيله بأرواحنا ...

وكان الطموح المصري في ذلك الوقت قد بلغ أوجه ... فهو الذي أدى الى الانقلاب السوري ، والانقلاب العراقي ، وأدى الى الثورة الأهلية في لبنان ، وكاد يؤدي الى انقلاب في الاردن .. وكنا نخاف من التحركات المصرية في السودان ، وكنا نخشى أن يورط بعض قادة الأحزاب ، وكان بينهم لسوء الحظ الشيخ علي عبد الرحمن ، أنفسهم في اصطدامات داخلية ، لاتفيد السودان وانما تفيد الخصم المتربص وراء الحدود .. نعم كانت جريدتي تناوئ النظام المصري ... لاكنظام فهذا لا يدخل في حسابنا ... فلكل بلد الحرية الكاملة في أن يقوم بما يصلح أموره ... وانما كطموح كاسح يعمل على صهر البلاد العربية في بوتقة واحدة يكون على رأسها رجل واحد معروف ... اننا كنا ضد الاستعمار الجديد ولولا النجدة الأمريكية الانجليزية لتغيرت جغرافية الشرق الأوسط الآن ... ولكان العلم المصري يحمل خمسة نجوم وربما ستة ! من يدري ؟؟

وقضيت في السعودية أكثر من شهر وكنت أقابل سعيد رمضان كثيرا فلم أسمع منه كلمة واحدة عن ضرورة عدم نشر المنشور ، وعن ضرورة عدم نسبته للاخوان ... وأذكر أنني حاولت أن أوسطه لكي أقابل صاحب السمو الأمير فيصل وكان هو الآمر الناهي في ذلك الحين أيضا لكي أحصل منه على حديث لصحيفتي فأجابني قائلا : ان لي شهرا الآن وأنا أحاول مقابلة سمو الأمير فلا أستطيع ..

وعدت للسودان ، وكان أول ما فعلت أن نشرت منشور الاخوان المسلمين باعتباره صادراً بموافقة المؤتمرين أيام الحج ومعبراً عن آرائهم وارادتهم . وسرعان ماتلقيت بعد أيام خطابا من سعيد رمضان ينفي فيه نسبة المنشور للاخوان المسلمين ، وينفي فيه نبأ عقد مؤتمر للاخوان في جدة ، وطلب الي أن أرسل اليه العدد الذي يصدر فيه النفي في قطر حيث كان يقيم يوم ذاك ، وقابلني الاستاذ صادق عبد الله عبد الماجد رئيس تحرير جريدة الاخوان المسلمين ورجاني أن أنفي نسبة المنشور للاخوان المسلمين كما طلب الي أن أنفي عقد المؤتمر في جدة ، وقال لي أن توزيع منشور سياسي للاخوان ضد دولة اسلامية في أيام الحج حيث تعني الدولة السعودية بأن توفر جو محبة وائتلاف وسلام بين المسلمين أجمعين ، لايلائم الأمير فيصل ولا يتمشى مع سياسته ، وكذلك عقد مؤتمر للاخوان فيما وراء ظهره ، لايلائمه كذلك وهما سابقتان تعطيهما السعودية مكانة من الخطورة لم يفكر فيها أحد من زعماء الاخوان ... مقام الاستاذ صادق عندي كبير لأنه رجل عقيده مخلص ، وكنت من أجله ومن أجله وحده قد أكلف نفسي مالاتطيق فأنفي هذا النفي الثنائي المطلوب .. أنفي ما أثبته بالأمس ... وكبر علي الأمر حينما جلست لأكتب وأخيرا رميت القلم وآثرت أن أتغاضى عن طلب سعيد رمضان ، وأن أغضب صديقا عزيزا عليّ كالاستاذ صادق عبد الله عبد الماجد .. انني لا أكره شيئا بقدر ما أكره الخبر الكاذب ... كما أنني بقدر أكبر أكره أن أنفي خبرا صحيحا . اذ أن كلا الأمرين لصوصية صحفية وامتهان لكرامة العاملين في المهنة .. انني في الواقع وان لم أكن صحفيا ناجحا اعتبر نفسي دون أن يكون مصدر ذلك الغرور أو الاعتزاز الشخصي وانما تقريرا لواقع محض يقتضيه مساق الحديث وتسلسل الحوادث ... صحفي أفهم مهنتي وأحترمها وأعطيها خير ما أملك من الأخبار الصادقة الأمينة الهامة ، واهتزازي ارتياحا عندما أنشر مثل هذه الأخبار وخاصة اذا كنت غير مسبوق اليها ، يشبه اهتزاز الفنان الأصيل ارتياحاً اذا رأى عملا متقنا من

أعماله أرضى هويته وتجاوب مع تطلعاتـه نحو الأفضل .. ومنـذ ثلاثـة أعوام قـابلت سعيـد رمضان في فندق الكندره (جده) قبل أداء فريضـة العمرة وبعـدهـا وكان كما عرفتـه منـذ سنين قد احتفظ بكل شبابه ، كأنما توقف نموه عند سن معينـة لا يعـدوهـا وكان كما عرفتـه نشيطا نشاطا خارقا فاذا مشى أسرع السائرون خلفه لاهثين ، تكاد تطفر الدماء من وجهه صحة وعافية ، قد أبقى الزمن على أسنـانـه كلهـا فلم تفقـد منهـا شيئـا ، خفيف الحركـة ، سريعها يتكلم اليك ويستمع باذن بينما اذنه الأخرى مع شخص آخر ... ولعل تفكيره أيضـا يسرح في مكان بعيد ... فأنت تجلس الى بعضه إذا صح هـذا التعبير لا الى كلـه ، وليس في ذلك (انجذاب) كانجذاب (العارفين) وانما مشغوليات دنيوية ، ومحاولة لانجازها جميعاً في وقت واحـد مـزدحم ، لاتكفي فيـه الأربـع والعشرون سـاعـة التي هي (مسـاحـة اليـوم الواحد) .. يقتضب الألفاظ اقتضابا ليصل إلى نهاية مايريد ويوجز ايجازاً مخلاً ، ويحـاول أن يقسم نفسـه بين ضيـوف كثيرين إذا كان هنـاك ضيـوف كثيرون دون أن يشفي غليـل واحد منهم .. بل ويحاول أن يقسم نفسه بين جلسائـه والتليفون الـذي يقفز إذا دعى إليـه كأنما فك من عقال ، ثم يعود حاملاً ابتسامتـه الاكلشيـه التي لاتكاد تفـارق شفتيـه ولا تعبر عن غبطة أو بهجة . ولعلها أدنى إلى التعبير عن هَمٍّ متغلغل دفين .

وفي العام الماضي قابلته أيضاً في فندق الكندرة وقد جـاء ليهنئ جلالـة الملـك فيصل بتولي العرش . وحاولت أن أعرف منه شيئاً عن حركة الاخوان المسلمين عامة وحركتهم في مصر خاصة فقال إن الحركة نامية في كل قطر .. وهو لايمثل فيها إلا العضوية المتاحة لكل مسلم ... ومضى يقـول : إنـك تعرف أن الاخـوان في السـودان يتزايـدون وتنتشر عقيـدتهم والقائمون بالأمر فيهم أقويـاء وعاملون مخلصون ولن يطول بهم الزمن حتى يصبحوا أصحـاب نفوذ حقيقي وقال : إن الحركة مزدهرة كذلك في الأردن . وحـاولت مرة أخرى أن أعرف منه شيئاً عن حركة الاخوان في مصر فقال : إن حركة عقائدية كحركـة الاخوان ليس من الطبيعي بحال أن يؤثر عليها الكبت والارهـاب بل إنها يزيـدانهـا حـدة وضراوة وقـال إن قطـاعـاً ضخماً من أفراد الشعب والمسئـولين منضمـون للـدعـوة سراً ويتظـاهرون بغير مايبطنون ، وهذا مصدر خطورتهم . ولم يكن ينتظر ثورة أو ما يشبـه الثورة بل انـه بـدا لي انـه كان يكره أن يقوم الاخوان في مصر بعمل مبتتر قبل أوانـه فيعرضهم لبطش القـوة الحاكمة وجبروتها ...

وأضاف في عبارات واضحة أن الحركات العقائـديـة اذا أعطيت الوقت الكافي لم تقض على خصومها بالسيف والمدفع بل بسلاح العقيـدة نفسـه . اذ أنها طـال الزمن أو قصر ربمـا أمكنها جذب المسؤولين الى حظيرتها فإذا السلطة لها خادم مطيع بـدلا من أن تكون سيـدا مستبدا . هذا ما قاله سعيد رمضان وأبدى شعوراً طيباً وأكد أنه سوف يمر بـالخرطوم عنـد عودتـه من الصومـال وقـد عنّت عنـد مقـابلتي لسعيـد رمضـان الأخيرة مـلاحظـات رأيت تسجيلها هنا ، بعناية وصراحة .

أولا) رغم أن سعيد رمضان عضو في رابطة العالم الاسلامي وأحد المتظاهرين بالعمل لهـا فهو على مـا يبـدو لا يكن لهـذه الرابطـة الاخلاص المطلوب ، ويرجع السبب في رأيي الخاص (وقـد أكون مخطئـاً) الى أن فكرة الرابطـة ، وهي فكرة كبيرة ، قـد تطوي تحت جناحيها ، المذاهب والاتجاهات الدينية المخـالفـة وفي هـذه الحـالـة قـد تقف عقبـه دون نمو حركة الاخوان المسلمين الذين يهدفون الى ضم كل المسلمين في اطار واحد تحت شعار واحـد ورئاسة واحدة ونظـام واحـد ملؤه التعصب والعـداء ضـد النظم الاخرى ... بينمـا الرابطـة يتسع صدرها لكل النظم الاسلامية ولكل الشعارات الاسلامية ولكل الرئـاسـات الاسلاميـة مع تخطيط يقرب بين سياساتهم واتجاهاتهم ويوجد بين أغراضهم وأعمالهم ويلزمهم في نهـايـة المطاف بالوقوف صفاً واحداً وقد يتم هذا الوقوف تلقائيـاً فـان العقيـدة إذا سـادت وتملكت الأنفس كانت لها قوة تعلو على كل القوى وسلطان يتفوق على كل سلطان .

ثانيا) سعيد رمضان (المدني) قـد كاد يتغلب على سعيـد رمضـان (الـديني) ولعل وجوده أغلب أشهر السنة في أوروبا قـد جعلـه يتـأثر الى حـد مـا بحيـاة الأوربيين الـذين تخففوا جهد طاقتهم من كل أعباء لا تتصل بجوهر المصلحة المادية .

ثالثا) الاسلوب الذي يعامل به الآخرين ليس فيه (عمق) الصدق الكافي .

رابعا) محادثاته فيها أحيـانـا ألفـاظ تقف بين « لا » و« نعم » ، أو تحتمل معنيين .. ومثل هذه المحادثات صالحة للدبلوماسيين ودهاقنة السياسة ولكنها غير صالحة اطلاقا لرجل ينتمي الى الدين وفي مواقف لاتستدعي مثل هذا الاسلوب الغريب .

خامسا) سعيد رمضان الذي أعرفه غير مغامر ، وغير مستعد للعمل على اشعال ثورة في مصر كما يذهب اليه البعض ... ولا أبرئه لأنني أحاول الدفاع عنه .. لكنني أعتقد ان مثل هذه الأعمال الكبيرة ليست على مقياسه .

سادسا) قيل انه لم يكن وفيا للمرحوم حسن البنا ، زعيم الاخوان القتيل ، ويتضح ذلك من معاملته لابنته وهي زوجته ، ولعل عدم الوفاء جزء من طبيعته وقد ينسحب هذا الخلق على علاقاته مع الآخرين جميعاً .

العدد رقم ٧٢٩ تاريخ ١٩٦٥/١٢/١٧

اجتماعيات

الاذان في جامع شندي ؟؟

في عام ١٩٣٣ كنت أراسل من شندي بعض الصحف المصرية ، وأكتب لمجلة النهضة السودانية ، وجريدتي « السودان » و « حضارة السودان » وأخيرا لمجلة « الفجر » .

وكان انتاجا غزيرا ولكنه ككل ما يصدر عن فتى دون العشرين لم يقدر له قسط واف من التعليم المنتظم فطيرا خاليا من التجارب ممتلئا بالتعميمات والحتميات .. والأخطاء والتوافه .

وكنت عاطلاً لا أعول في حياتي إلا على والدتي ، وكان أبي بعيدا ... في الجزيرة قد شغل عنا بالمقاولات وأشياء أخرى .

عزلة .

ولما كانت مشاغلي الإجتماعية لا تعدو صداقة واحدة حميمة في شخص الريح الأمين الذي كان يعاني من العطالة مثلي ...

ولما كنت لا أُعاقر الخمر ولا أغشى الندوات ولا أجتمع الى الناس في مقاهيهم وأماكن سمرهم ولهوهم ... فقد كانت تلك الصداقة الوحيدة والكتب والصحف ودراساتي هي كل زمالتي ... وكل تسليتي وكدت أقول كل ما يجمع بيني وبين البشر من غير أفراد أسرتي الصغيرة .

الدين .

وقد اتجهت اتجاها دينيا ، كنت أقرأ القرآن وأجوده عند الشيخ عبد الحميد التهامي وكنت أقرأ العزية والرسالة ومختصر خليل وأتلقى شرحها من الشيخ عبد الحميد التهامي أيضا .. وكنت أصلي في مواظبة تامة وأصلي صلاة الصبح خاصة في الجامع ... وكنت أصوم رجب وأصوم جزءاً من شعبان وأصوم رمضان وأصوم أياماً في شوال قيل إن الصيام فيها أفضل .

مؤذن .

واستأذنت من مؤذن الجامع وهو الشيخ الحارث إبراهيم أن أُؤذن لصلاة الصبح فسمح لي وتسلقت السلالم المتآكلة في غبشة الفجر حتى إذا اعتليت نهاية الدرج وقلبي في يدي ، خرجت الى المنور ورفعت صوتي خشنا بالأذان ، وكانت تجربة رهيبة وفعلت مرة أخرى وثالثة .. وتحدث الناس عن صوت شاذ غير مألوف ولا مقبول أصبح يتعالى بديلا عن صوت الحارث الحنون الفريد وكنت أستمع ولا أعلق ، وقد خطر ببالي أن سوء حظي أو سوء تكويني جعلني غير صالح حتى كمؤذن في جامع ؟

اتهامات .

وهمس في أذني أحدهم بحديث (وأكد ما قاله قريب لي فيما بعد) ان شاباً درويشاً اعتاد أن يؤذن في الجامع ، فوجد ذات صباح ملقى على الأرض تحت المأذنة ميتاً ، وقد حفظت القضية على أساس أنه قد سقط من حالق قضاءاً وقدراً .

غير أن بعضهم ذكر ما يخالف هذا الزعم وأشاع اتهامات معينة ، ويبدو أن تلك الاتهامات المعينة ـ رغم أنني لم أصدقها قد أثرت في نفسي وأعصابي ذلك أنني لم أكد أرتقي سلالم المأذنة ذات فجر بعد ذلك حتى سمعت صوت أقدام تتبعني ، وأسرعت ، فأسرعت الأقدام .. كانت واضحة في أذني تماما .. وقد شاع الذعر في نفسي .. وكدت أتراجع لولا أن الأقدام ورائي ... ولم أكد انتهي من الأذان حتى تسمرت قدماي حيث كنت ، إلى أن اتضحت الرؤية ، وعندئذ هبطت وهرعت الى منزلي دون أن أصلي في الجامع ... ودون أن أستمع إلى حديث كان يوجهه الى بعضهم عندما ما رآني أسير في عجلة .. ومنذ ذلك الحين انقطعت عن الأذان وعن صلاة الصبح في الجامع .

هل كان ثمة تآمر لإبعادي ؟ ... يجوز ؟

اختلاف الرأي .

وقمت يوما بعد صلاة الجمعة بإلقاء خطاب مثير وكنت أقرأ من ورقة .. وكانت يدي تهتز ولكن صوتي على ما يبدو كان قويا ... وكانت عباراتي ضخاماً ، وموضوعي مما يهم الناس في محيطهم .. فقد كنت أتحدث عن الأخلاق والدين .. وعندما فرغت من إلقاء

خطابي أقبل عليّ بعضهم مهنئا ومنهم الشيخ الطيب بابكر ووصفني بالجرأة في أبيات أرسلها إلي فيا بعد جاء فيها :

يحي إليك روحك القوي
وصدرك المبرأ النقي

وقال حسن نجيله : إن يحي كان يتعلم الخطابة على حساب المصلين .. أما ابن عمي المرحوم المعلم محمد سيد فقال :

لقد فزعت أولاً ... كنت أظن أنك ستطلب عوناً من الناس ؟؟ وأما المرحوم الشيخ عبد الكريم السيد وكان شديد العناية بمصيري فقد قال لي : يا يحي الكلام ده كله ما بنفعك شوف ليك شغله .

وقد أحدث الخطاب على تفاهته موجات في ذلك الجو الراكد .. غير أنني لم أعاود، تجزبة الخطابة بعد ذلك اليوم في الجامع ، بل ولم أعاودها إلا نادراً في إجتماع عام .. ففي تلك المدينة الصغيرة شندي لم يكن الناس يرحمون ، كانت ألسنتهم تنهشني في غير ما رفق .. قالوا أنه (الزهج) ... وقالوا (يأكل ويشرب وينظف جلابيته ويلف عمته ويسل لسانه وفي جيبه مافي مليم !؟) .

توافه لايؤبه لها في النطاق العام

أسجل في هذه الذكريات عادة الحوادث بحسب عمق انطباعها في نفسي ، لابحسب اهميتها العامة فربما أسهبت في الكتابة عن واقعة ذات محور ضيق .. وبين أشخاص مغمورين ، ... وربما أهملت أو أوجزت في الكتابة عن واقعة هزت الدنيا وشغلت الناس ، تمشياً مع القاعدة السالفة والوقائع المقتضبة التي أسردها هنا في شيء من الغموض ، ودون ذكر الأسماء بل ودون ذكر الحروف الأولى من الأسماء .. هذه الوقائع المقتضبة كان بودي ألا أُشير اليها بحرف ما ، فهي لاتهم أحدا غيري ، أو بالأصح لاتهم لو اتسع النطاق وعرف الشخص بطل هذه الوقائع ـ الا قلة قليلة ـ غير أن التجاوز عنها ، كان يشكل نقصا في هذا (التسجيل) الذي حرصت في حدود أن يكون أمينا .

(شخص ما) تربطني به صلة وقد أثَّر تصرف من تصرفاته غير الملائمة مع إحدى النساء على نفسي ، وأنا لم أزل في بداية حياتي ، اذ لم يكن هذا التصرف ينطبق مع الخلق ولا التقاليد ، ولا ما تلقيت أو اقتبست أو لقنت من آداب السلوك ... أو بالأصح اذ كان هذا التصرف دون المستوى الخلقي ـ الذي كنت أتوقعه وأنا في سن تتوهج أمامها المثاليات .

من هذا (الشخص)

في عام ١٩٣٠ كنت عاطلا وكان هذا (الشخص) يعمل في مكان ما من المديرية الشمالية .

وقصدته تحت الحاح ممن يهمهم أمري ، أنتجع عملاً .. وهبطت في إحدى المحطات .. ثم نقلت الى قارب حكومي وكان النهر عاليا ، تتقاذف أمواجه ، والقارب يتأرجح كأنه ريشه في مهب الريح .. وكان كل من حولي من رجال ونساء وأطفال يتحدثون في بساطة

ويتضاحكون في جزل .. أما أنا لم أعتد ركوب مثل هذا القارب الصغير الخفيف ، ولم أكن أعرف السباحة ، بل لم أتعرض لرحلات نهرية حتى ذلك الحين الا ثلاث مرات فقط ... وعلى خفيف ، وقد أردت إلا أظهر الجزع .. ولكنني أيضاً لم أعد أحتمل فتشبثت بعارضة من عوارض القارب في عنف ... وكان قلبي شديد الخفقان .. ولم أزل كذلك حتى أنقضت الدقائق العشرين التي يقطعها القارب في رحلته الى الضفة الأخرى وكأنها أيام ...

وانجلت الغاشية ... واذا بي أقف على أبواب عالم جديد كانت الأشجار سامقة وارفة الظلال ، والأرض سندسية خضراء أينما اتجهت ببصرك ، والمزارعون منكبون على حقولهم يفلحونها في صبر ومثابرة .. وقابلت (الشخص) ونزلت في داره ، وكان موضع احترام رسمي من سكان المنطقة .

ولم أقض يوماً حتى تعرفت على بعض الموظفين وكان أحدهم أديباً ، فوجدت فيا لديه من كتب منصرفاً عن الحياة التافهة التي يعيشها العاملون هناك .. كان كل همهم الخمر والنساء ، وما هو شر من الخمر والنساء ؟

وكان (الشخص) صاحب الصلة غارقاً حتى أذنيه في آثام لاحد لها ولاحظت أن أغلب الناس في القرية قد أصبحوا أسرى غرائزهم ، يعبدون الله بغريزة الخوف ، ويعصونه بغرائز الجنس والحسد والحقد والجشع والتسلط ..

وبعد أيام من حضوري سمعت في الهزيع الأخير من الليل جلبة حمير تقف وصوتي رجل وامرأة ... واستقبالاً حافلاً من (الشخص) صاحب الصلة ... وفتحت عيني خفية لأشهد أمامي في الفناء منظراً على ضوء رتينة وهاج لن أنساه .. (الشخص) يعانق فتاة سوداء جميلة جدا ، خلابة جداً ، ذات أنوثة طاغية بينما ينتصب بالقرب منها رجل ذو مقام محلي عرفته خلال اقامتي القصيرة ... وقد بدا ضاحكاً مستبشراً ... وأسفر فمه الواسع عن أسنان بيضاء ... ودخل ثلاثتهم الى القاعة التي كنت أنوم في جانب منها ... وحانت من الفتاة التفاتة فرأتني فتوقفت وقالت فيا يشبه الهمس ـ ده منو ؟؟ فأجاب (الشخص) واحد من ولادنا ولا يهمك ؟ وجلس ثلاثتهم ... (الشخص) والفتاة على عنقريب والرجل ذو المقام المحلي في كرسي ... وأخذوا يعاقرون الخمر (المحلي) التي جاء بها الضيفان معها ... وكان (الشخص) يكثر من مداعبة الفتاة الى حد مثير ... وكانت الفتاة

تصدر أصواتـاً (غنجـة) تحرك الجماد ... وبعـد أن شرب الرجل مع الفتـاة و (الشخص) صاحب الصلة قليلا انصرف وحده بغير وداع .. ولم أتحمل (أنا) أكثر من ذلك فوثبت من العنقريب ، وحملتــه ، ثم خرجت بـــه الى العراء حيث قضيت الليــل ... دون أن يلتقي جفناي .

فـإن الظـلام الـدامس ، والأصـوات الغريبـة التي تصـدر من بين الأشجـار ، ونبـاح الكـلاب ، والخـوف من شتى الاحتمالات ، كانت تشغـل نفسي وتـوتر أعصـابي ، وهـو أمر طبيعي بـالنسبـة لصبي غريب غير ذي تجـارب في مكان منعزل .. ويظهر أن (الشخص) صاحب الصلة وفتاته لم يهتما بما حدث مني قـط ... ولعلهما ارتـاحـا لمـا فعلت وفي الصبـاح أعـدت العنقريب الى مـوضعــه من القــاعــة .... ولكنني لم أجــد الفتــاة ... ووجــدت (الشخص) صاحب الصلة نائماً في عمق ... ولم يستيقظ لعمله المكتبي الا بعـد جهـد جهيـد من الخادم ...

وأثقل هـذا الحـادث على نفسي ونـال من كبريـائي وزهـدني في العمـل الـذي كنت أسعى اليه ... وتجنبت لقاء الشخص ما وسعني الجهد ولم أحادثه الا نادراً .

وسمعت أثنـاء اقـامتي عن عـلاقـات مريبـة (للشخص) صـاحب الصلـة مـع نسـاء أخريات وان هذه العلاقات كانت من السوء بحيث لم يرع فيها عهدا ، أو يصن حرمـة ... وانه كان أشبه بحيوان جامح لايهمـه الا أن يشبع غريزتـه النهمـة ... أمـا كيف أشبعت ؟ فالخلق والضمير والدين عملات لا يعترف بتداولها في هذا المضار ..

وانصرفت عن المنطقـة وأنـا لا أطيق (الشخص) صـاحب الصلـة ... انني بشر وقـد ارتكب المعصية ... ولكنني أكره من يقترفها في لامبالاة ، وخاصة تلـك التي تتميز بـالخسـة والغدر ، بل بالأخص تلك التي تتميز أيضا بالضعف المطلق أمام الغريزة .. غير أنني أسعدت أثناء وجودي هناك بأمرين الأول ارتباطي بذلك الأديب ارتباطـا أمتـد حتى الآن ـ فقـد أصبح الرجل قطبا معروفا ذات نزعـة دينيـة متحكمـة ... والثـاني استمتـاعي لفترة بمحيط وهبته الطبيعة بسخاء أجمل هباتها الماء الغزير والأرض الخصبة والمنـاخ الصحي ... ومـات أخيراً (الشخص) صـاحب الصلـة ... وكان همـه طيلـة حيـاتـه أن يلغ في المـاء الحرام ...

ومات موتاً يدل على اخلاص مفرط لطبيعته الشاذة ... فقد تزوج على كبر فتاة صغيرة ... وأراد لنفسه القدرة التي تتناسب مع التزاماته الجديدة .. وكان قد ظهر عقار (هـ ـ ٣) المشهور فاذا به وهو الشديد النهم للجنس ـ يأخذ عدة كورسات دفعة واحدة وأوتي القدرة التي أرادها ...

ويبدو أنه أوفى بالتزاماته ....

وذات يوم دعى الطبيب .. وفحص (الشخص) صاحب الصلة فاذا به سليم من كل الأمراض ... ولكن شيئاً واحدا قد فقد ، هي الطاقة ... لقد استنفد في شهر واحد أو شهرين مدخراته من الطاقة لسنين معدودات .

ولم يعد يستطيع الحركة ... وكانت عيناه تدوران في غير تركيز بل وجسده مسجى في تهالك وصوته ضعيفاً واهناً ... ووقف الطب عاجزاً عن أن يمد له يد الانقاذ .

ولم يطل به الزمن حتى صعدت روحه الى بارئها وبكيته يوم ذاك ، لأن خلف كرهي كان يوجد حب عظيم .. لقد وضعت حياته بيننا حاجزاً رهيباً ومات فزال ذلك الحاجز الرهيب ...

☆ ☆ ☆

حادث مروّع

كان يتولى منصب الياور السوداني لحاكم عام السودان في عام ١٩٣٧ اليوزباشي منصور فرج الله .. وكنت أتصل به تليفونيا كل صباح لكي أنقل تحركات ومقابلات الحاكم لجريدة النيل وكان اليوزباشي ، منصور رجلا مهذبا ظريفا كيسا ، يسعى لخدمة الآخرين عن طواعية ، وفي غير من .. وكان حريصا على تلطيف الجو بينه وبين محدثه بالكلمة الطيبة والنكتة المستملحة .

وقد نقل بعد حين الى فرقة السواري المرابطة في شندي ..

فأسفت بالغ الأسف على هذا النقل .. وأسف الكثيرون من عارفيه .

وكنا نتذاكر مرؤته وحسن خلقه وكريم تصرفاته ما جاءت مناسبة .

وأذيع بعد عام من هذا النقل نبأ روعنا له .. وهو أن اليوزباشي منصور إغتال زميله الصاغ الحضري ثم انتحر .

واتصلنا تلغرافيا بالسواري نستفهم ونتأكد فقد كان الخبر غريبا وغير مألوف عند من عرف أخلاق اليوزباشي منصور .

وتلقينا الرد وهو يفيد صحة ما أذيع .. وقيل يومئذ أن الشخص الوحيد الذي لم يستغرب وقوع الحادث كان سير مايلز لامبسون الحاكم العام . ذلك لأنه ربط بين عاطفية اليوزباشي منصور الحادة وتصرفاته .

تفاصيل .

وقد ذهبت إلى شندي بعد الحادث في إجازة ... وكان في نيتي أن أتعرف على تفاصيل ما وقع من الأستاذ حسن نجيله الذي كان يعمل مدرسا في المدرسة الأولية هناك وكان صديقا حميا للرجلين . بل ان الصاغ الحضري لم يكن يغيب عن مجلسه

يوما ... (كانت دار نجيلة مقصداً لمعظم الشخصيات البارزة في المدينة) وكان حسن أحرى بأن يشفي غليل الصحافة لأنه أديب وكاتب ومطلع ...

غير أن بعض الأصدقاء حالوا بيني وبين ما انتويت قالوا :

إن حسن نجيلة قد صدم بوقوع الحادث صدمة عنيفة الية مما أثر على أعصابه وعلى نفسيته ، وهو الآن لا يحتمل الخوض في هذا الموضوع .. وقد اقتنعت بوجهة نظر أولئك الأصدقاء فلم أتحدث إلى نجيلة عن المأساة ... يوم ذاك ، بل ظللت حتى هذه اللحظة حريصا على عدم مفاتحته في هذا الصدد ولجأت الى المعلومات العامة التي كان يرددها الجمهور وبعض أصدقاء الفقيدين ... ومما تضمنته هذه المعلومات أن أمراً صدر لنقل اليوزباشي منصور فرج الله من شندي الى وحدة أخرى .

وقد قام الصاغ الحضري كبير الضباط الوطنيين باستلام العهدة منه فوجدها ناقصة .

وكان اليوزباشي يأمل أن يتجاوز الحضري عن الرسميات ، وهما جاران وصديقان وزميلان ويعطيه الوقت الكافي لإكال النقص ، غير أن المرحوم الحضري لم يتجاوز - كعادته - عن الرسميات ، وحرص على تنفيذ اللوائح حرفيا ... ولعل هذا التصرف لم يكن متوقعا لدى منصور ، ولعله رأى في هذا التصرف كبيرة غير قابلة للمغفرة ... ولعله تصور ما يعقب الإتهام في نقص العهدة من (مرمطة) تمس شرفه وكرامته ... وهو أمر دونه الموت .

اغتيال فانتحار .

وقد دبر اليوزباشي منصور الحادث على الوجه التالي :

أقام زملاء منصور إحتفالا ساهراً لوداعه بميز الضباط .... وفي الطريق إلى الاحتفال أخفى في نافذة اصطبل لابد من المرور به عند العودة الى المنزل ، مسدسا محشواً .

وفي وقت متأخر من الليل عاد منصور والحضري إلى منزليهما بعد إنتهاء الإحتفال - وهما كما أشرنا جارين .. وعندما مرا بنافذة الأصطبل تناول منصور المسدس ، وأطلقه على زميله فقضى عليه في الحال .

وأسرع منصور بعد ذلك الى منزلـه ، ودخل غرفـة المقـابلـة (الـديوان) وأطلق على نفسه النار أيضا .

وكانت زوجتا منصور والحضري تجلسـان في تلـك اللحظـة في منزل منصور إنتظـاراً لأوبـة زوجيهما ، جـاهلتين مـا خبـأه لهما ولأطفـالهما القـدر ، وسمعتـا صـوت اطـلاق الرصـاص ... فهرعتـا إلى حيث وجـدتـا منصور جثـة هـامـدة وقـد تنـاثر مخـه في الفراش والغرفة ...

وقع المأساة .

وطار الخبر في منتصف الليل من دار الى دار في تلك المدينة الهـادئـة ، وقـد وقع على أصدقـاء الرجلين وقوع الصـاعقـة .. وهرع الزملاء الـذين قضوا في الهزيع الأول من الليل لحظـات سعيـدة كلهـا مرح مع منصور والحضري ، لكي يقضوا الهزيـع الأخير وهم بـاكـون عليهما لا تجف لهم دمعة ، فزعون لمصرعهما تلعب بهم الحيرة ويفترسهم التساؤل .

لقد هزت المأساة المشاعر هزاً عنيفاً وكان انطباعهـا في نفس الشـاعر الرقيق والأديب الحساس نجيلة انطباعا عميقا مريرا لا يمحى .

وقد علمت يوم ذاك أن حسن نجيلـة أعتكف في داره فلا يكاد يخرج إلا الى المـدرسـة وظل يعاني فترة عصيبة الى أن خف الضغط على أعصـابـه بمرور الوقت وعـاد يحتمل الحيـاة من جديد .

والزمن وحده هو القادر على منح النسيان ودمل جروح النفوس ..

الصحفي صاحب رسالة وليس جاسوسا

في عهد من العهود وقبل أعوام مضت ، غادرت الخرطوم الى بلد عربي في بعثة صحفية مكونة من ثلاثة أشخاص لحضور مناسبة من مناسباتها العامة .

ولا داعي هنا لذكر التاريخ ولا لذكر اسم البلد ولا لذكر إسم أولئك الأشخاص لإعتبارات سوف يفطن إليها القارئ فيا بعد ، وقد كانت هذه الرحلة بمثابة اختبار وتعرف لأخلاق الزميلين ودراسة لشخصيتيهما وسبرٍ لغو رئهما .

وقد لاحظت في أحدهما طموحا الى التزعم تخطى كل الحدود فهو يتصدر كل مجلس ويتصدى لكل حديث ، وينصح بما ينبغي أن يتبع ، ويشتد في النصح ، ويحاول أن يخلق لتزعمه ـ خلفية ـ لا تعتمد ـ إلا على الكذب المحض أما الثاني فعابث يؤثر أن يكون نقاشه وسلوكه قائمين على الهزل والدعابة .

ويؤثر أن يقضي أوقاته التي تخلو من البرنامج في مجون لا يليق .. ولا يتورع كلا الشخصين من أن يخرج على كل قاعدة أو تقليد أو عرف ـ فأساس حياتيهما الأول على ما يبدو لم يبن على أرض صلبة .

وكان القطر العربي قد أكرمنا إكراما فياضا وبذل لنا الكثير من أسباب الرعاية والعطف غير أننا لم نقابل الإحسان بالإحسان .

عود غير أحمد .

وفي طريق العودة سألني أحد الدبلوماسيين السودانيين ونحن في بيروت سؤالا أثار ريبتي .. فقد قال لي أن أحد زميليك قد أساء الى الحبيب بورقيبة في مجلس .. فمن هو ؟ ورغم أن الدبلوماسي استفسر بلهجة الصديق إلا أن السؤال لم يرقني ، وأجبت بأنني لم أسمع أي زميل يتحدث عن بورقيبة ، لأن المجال لم يستدع الحديث عنه ..... ومع ذلك فلم هذه

المتابعة ؟ ومن ذكر لك هذه الواقعة ؟ ولم ؟ ولم يشأ الدبلوماسي أن يجيب على أسئلتي فغيّر مجرى الحديث .

وعدنا إلى أرض الوطن وشغلت بمشاكل العيش المتعددة ...

ولأول مرة أجيء من الخارج فأجد جريدة أنباء السودان منتظمة الصدور وكان السبب يرجع إلى أن نائب رئيس التحرير التوم البدوي المبارك استطاع بما عرف عنه من نشاط وإلحاح ، وتعرف على الأسواق والمتاجر والشركات أن ـ يسرق الباك ـ ويمر على كل الزبائن ويحصل منهم على أجور الإعلانات ويدفع لنفسه وللعمال المحررين والمطبعة ويشتري الورق الخ ...

كما استطاع مشكورا أن يحفظ غيبتي فيهاجم من هاجموني في إحدى الصحف ويكيل لهم بلسانه السليط الصاع أصوعا .

وتمنيت بيني وبين نفسي لو بقيت في الخارج قليلا لأستريح من هذه الدوامة التي حطمت أعصابي ، ودفعت بي الى الشيخوخة قبل الأوان .

تقرير .

وبعد مضي أسبوعين من عودتي الى الخرطوم تلقيت من مسؤول محادثة تليفونية يقول فيها : ان تقريرك عن الرحلة لم يصلني حتى الآن .... فسألته عن أي تقرير تسأل ؟ فأجاب : إننا رأينا أن يكتب كل من ثلاثتكم تقريرا عن الرحلة يستعرض فيها ما وقع للبعثة وآراؤه عن السودانيين وغير السودانيين الذين التقى بهم ، وعن الشكاوى والمقترحات ان كانت ثمة شكاوى ومقترحات وقال أن التقرير الوحيد الذي لم يصلني هو تقريرك .

وانتهت المحادثة التليفونية عند هذا الحد ، وبعد أسبوع آخر اتصل بي المسؤول يسأل عن التقرير مرة أخرى .

وفي الأسبوع الذي يليه سأل عن التقرير أيضا مرة ثالثة وتكررت المساءلة وتكررت المراوغة .

لقد صممت أن أتجاهل هذا الطلب ، مهما يحدث من وراء تجاهله ، فإن الرائحة التي

تفوح منـه كانت رائحـة كريهـة وربمـا كان علي أن أسيء إلى المسـؤول وأن أعلمـه أنني أعتبر كتابة مثل هذا التقرير جاسوسيـة لا صحـافـة ، وان الفرق بينهما هو فرق أسلوب وكيفيـة وهـدف ولكنني بحكم ضعفي المـأثـور لا أستطيـع أن أواجـه إنسـانـا بمـا يكره ، وأكتفي بـالامتنـاع عن الفعـل دون الجهر بهـذا الامتنـاع ، او الـوقـوف مـوقف التحـدي .. فـأنـا لا أمارس الشجاعة ـ أحيانا ـ الى حد يصل بي طور التهور ، الا في الكتابة .. وفي الكتابة فحسب ؟ وهـذا قـد يعني انني اتلبس شخصيتين تكادان تقتربـان من دكتـور جكل ومستر هايد من حيث الازدواجية لا من حيث الخير والشر ..

ودعاني المسؤول بعد ذلك الى مقابلته وسألني عـدة أسئلـة منهـا سؤال عن جمـال محمـد أحمد سفيرنا في ذلك القطر العربي ..

فأجبته بأن جمالاً حين ذهبنا الى هناك لم يكن موجودا ، كما أننا لم نمكث وقتا كافيـا للتعرف على سلوك الآخرين ..

ويبدو أن جوابي لم يعجبـه فـأكتفي بـالإعراض عني والانشغـال بموضوعـات أخرى ، دون أن يستمع إلى أجوبتي عن بقية الأسئلة التي وجهها ..

السيارة الأولى والأخيرة !!

في عام ١٩٤٩ اشتريت سيارة بالأقساط من السيد عوض بولص الموظف بشركة جلاتلي آنذاك ومدير شركة الانيون للتأمين على الحياة فيما بعد . وكانت قيمة السيارة وهي من طراز مورس ماينر ، ٨٥ جنيها تدفع على أقساط شهرية ، قدر القسط منها عشرة جنيهات .

وهي أول سيارة في حياتي وآخر سيارة حتى الآن على الأقل ، واستلمها السيد عثمان راشد ابن خالتي ، وكان يعمل في نفس الشركة وجربها واتفقنا مع (سائق) على أن يجيء في الصباح فيجدها أمام مكتب الأهرام الذي كنت أعمل مديراً له . لكي يذهب بها ، يصحبه حسن عشرة رئيس الباعة الى شجرة غردون ، حيث كانت تهبط الطائرات المائية ثم يعود بجريدة الأهرام ليوزعها . وكان حسن عشرة يتدرب على (السواقة) ويظن في نفسه القدرة عليها ... وان المهندس المختص لم يعطه الرخصة ، معاكسةً له أو لعدم وجود واسطة قوية تسنده ، اذ أن الأمور في هذه البلد كما كان يقول كلها تمشي بالواسطة . وفي الصباح جاء عثمان راشد للسيارة وتركها أمام المكتب ومضى إلى عمله وجاء حسن عشرة وانتظر السائق حسب أقواله ، فلما لم يجيئ قادها (هو) أو بالأصح وجد الفرصة للبرهان على قدرته على (السواقة) حسب أقوالي (أنا) فانتهزها ، دون نظر للعواقب ..

ومهما يكن من شيء فقد قفز الى كرسي القيادة وألهب ظهر السيارة فانطلقت تسابق الريح الى الشجرة .. ووصلت سالمة تماما ... ولكن موظفاً في الجمارك طلب عند العودة الى حسن عشرة أن يوصله الى مكتبه في المقرن فرضخ ... وفيما كانت السيارة تسير بالقرب من حديقة الأوقاف ، بعد شركة النور كما كانت تسمى في ذلك الحين . (أو الادارة المركزية للماء والنور كما تسمى الآن) وهي وشيكة أن تبلغ المنحنى المؤدى الى الأسكلة ، إذا بسيارة مسرعة قادمة من أم درمان تقبل ، ويريد حسن عشرة أن يتفاداها (وهو مبتدئ في

السواقة) كما أسلفت ... فتخونه أعصابه المضطربة ويده غير الثابتة ، ويفلت الدركسون ... فإذا بالسيارة تنحدر نحو الحديقة وتصطدم بحائطها ثم تخر فاقدة الحركة والحياة ، وقد تحطم منها الدفرنش والكاربريتر وانشقت الماكينة ... وقرع جرس التليفون ، وإذا بموظف الجمارك يلقي الي بالنبأ الفاجع ...

ولم يخطر ببالي في تلك اللحظة الخسارة المادية التي أصبت بها ....

ولم يخطر ببالي أنني حرمت من متعة الركوب في سيارة خاصة كنت أتوق إليها طول حياتي ولكن خطر ببالي حسن عشرة نفسه ... هل تراه أصيب ... ؟ وأحسست بشعور من التأنيب النفسي تكثف بسرعة الى حد اعتصر قلبي اعتصارا ...

لقد علمت أن حسن عشرة هو الذي قاد السيارة وكان ينبغي أن ألاحقه بسيارة أخرى مع سائق ... وكان ثمة وقت كاف ، وكان يمكن تدارك الموقف ، وحسن عشرة على مساوئه كان شابا مؤدبا عمل معي طويلا ، وتوثقت صلتي به ... فهو في مقام أحد أبنائي وعيبه هو الطموح ، وهو عيب حرىّ بأن يغتفر وخاصة للشباب . وسألت في لهفة : هل حسن عشرة كويس ؟ فأجابني الصوت بعبارة جعلتني أشعر بفرحة غامرة : لم يصب بأي سوء .

وشيئاً فشيئاً ابتدأت أدرك فداحة خسارتي بتحطيم السيارة ، وشيئاً فشيئاً بدأت أدرك أن ثمة خطأ قد ارتكبه حسن عشرة ويجب أن يلام عليه ...

وقابلت في طريقي الى الدار الصديق سليمان موسى وأفضيت اليه بجلية النبأ فقال لي بحماسته المأثورة : أنا عندي ورشة لتصليح السيارات .. أولادي كلهم يخدموك مجانا .... أنا أخدمك مجانا .... الاسبيرات فقط ... ورأيت في ذلك مخرجا (فكلمة) مجانا حلوه جداً لأولئك الذين ـ يطاردهم الفقر بظله ... الرهيب .

وجرّت عربة كارو السيارة المحطمة الى ورشة السيد سليمان موسى .... بالمنطقة الصناعية ـ الخرطوم . وظلت السيارة هناك ثلاثة أشهر ... وكان العمل السياسي على ما يظهر يشغل السيد سليمان موسى ... وكان العمال غير مخلصين في أداء أعمالهم كما يجب ... وذهبت ذات يوم فوجدت أحد العجلات قد تجردت من الاطار ، وأحسست بأن

بقاء السيارة هناك لايجدي بل قد يضر بي ... ودار في نفسي كلام كثير لم أفضي بـه للسيـد سليمان موسى حتى الآن ... فان الصداقة التي تربطنا أعز من ألف سيارة وسيارة .

وقام عثمان راشد ابن خالتي بالاتصال بـالشركـة لكي تتسلم السيـارة وتعفيني من بقيـة الاقسـاط ووافقت الشركـة بعـد لأي ... ونزل عن كتفي عبء ثقيـل ... ولم أحـاول بعـد ذلك شراء سيارة خاصة ... لقد خلت حياتي من السيارات الخاصة على الاطلاق ...

ولا أدري هـل في العمر بقيـة تستحـق أن أسعى من أجلهـا وراء سيـارة خـاصـة أخرى ؟؟ ان حياتي بعد الستين تخلو من الطموح في أدنى درجاته وأعلاها ... انني لا أريد أكثر من أن أعيش مستورا ... وأن أجعـل من بنـاتي وأولادي مـواطنين صـالحين في المجتمع الجديد . وان أخـدم وطني بقـدر امكانيـاتي على الوجـه الـذي أحسنـه وأرى صلاحيتـه أما الرفاهية في نطاقها الضيق أو الواسع فلا أجد لها من نفسي تطلعاً ....

لقـد أسـأمتني الأمراض التي اصطلحت عليّ في الفترة الأخيرة ، ودفعتني الى عقيـدة ثابتة بأنني على وشك النهاية ... وان مصيري قد تقرر وليس أمامي غير سنوات قصـار ... ثم أذهب مع الـذاهبين .. وليس ثمـة ضرورة في هـذه الفترة الا الى العمل الصـالـح ... لكي يظفر المرء بحسن الختام .

تراجع

أحمد يونس (نائب مدير ورش المخازن بـالخرطوم بحري في عـام ١٩٤٢) وهو قوي ، مفتـول العضـل ، ضخم الجسم ، ومحمـد يس (مـوظف) وهـو نحيف طـويـل ـ صـديقـان حميـان ، وكانـا يترددان على نـادي الخرطـوم (الخريجين الآن) . وحـدث ذات يـوم أن تشاجرا فجرى بينهما النقاش التالي :

قال أحمد يونس : لو شئت ـ ورفع يده وبسطها مشيراً الى أرضية النادي ، مديراً في تحد هيكله الكبير ـ لمسحت بك البلاط !

واشتد الانفعال بمحمد يس وصاح : أتدري لو غضبت ماذا أفعل بك ؟

فأجاب الآخر وقد بلغ ذروة اهتياجه ، وشمّر عن ساعده ، وبدا كأعنف مـا يكون : ماذا تفعل ؟

قال محمد يس (وقد تخافت صوته) امسح اسمك من ذاكرتي ؟؟

المؤلف

- اشترك عام ١٩٣٥ في انشاء أول صحيفة يومية في السودان ، وهي جريدة النيل .

- قام بمراسلة جريدة الأهرام وادارة مكتبها في الخرطوم من عام ١٩٣٦ الى عام ١٩٥٢ .

- أصدر صحيفة المستقبل الأسبوعية والسوداني اليومية خلال أعوام ١٩٤٩ الى ١٩٥٢ .

- تولى سكرتارية الحزب الوطني (حزب الشريف) منذ انشائه حتى اندماجه عام ١٩٥٣ في الحزب الوطني الاتحادي (حزب اسماعيل الأزهري) .

- من مؤسسي الحزب الجمهوري (الاسلامي) برئاسة محمود محمد طه ، وقد انفصل عن الحزب عندما أخذ محمود يدعو لنظرية الرسالة الثانية للاسلام .

- من موقّعي وثيقة الأحزاب المؤتلفة عام ١٩٥٣ ، وهي الوثيقة التي أدت الى قيام الحكم الذاتي وتقرير المصير في السودان .

- أصدر صحيفة أنباء السودان اليومية من عام ١٩٥٣ الى ٢٥ مايو ١٩٦٩ .

- واعتقل في مستهل ثورة ٢٥ مايو عام ١٩٦٩ ثم أطلق سراحه بعد أن قضى في الاعتقال حوالي ثلاثة أشهر .

- يعتبر من الذين عملوا بحماسة وثبات لتحقيق استقلال السودان ثم في سبيل صيانته .

- أصدر كتابا بعنوان (الديمقراطية أم الديكتاتورية) خلال الحرب العالمية الثانية ، ناصر فيه الديمقراطية وشجب النازية والفاشية .

- أصدر كتاباً من ثلاثة أجزاء بعنوان (شخصيات من السودان) تحدث فيه عن الشخصيات التي لعبت أدوارا هامة في تاريخ السودان الحديث .

المحتوى

الموضوع	صفحة